مكسيم غوركي

طفولتي

الترجمة الكاملة

Bibliotheca Alexandrina
0095746

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مكسيم غوركي

طفولتي

الترجمة الكاملة

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

١

كان والدي مستلقيا على الارض تحت نافذة غرفة صغيرة مظلمة تعج بالغبار ، يبدو لي طويلا بشكل يلفت النظر ويدعو على الدهشة ، وقد اكتسى بالبياض من قمة راسه حتى اخمص قدميه .. وكانت اصابع قدمه الحافية منفرجة عرضا بشكل غريب جدا ، تتباعد عن بعضها بفعل حركة تشنجه ، واصابع يديه اللطيفتين ، المصلوبتين فوق صدره ، ملتوية هي الاخرى بعناد وقوة . وكان درهمان نحاسيان يغلقان عينيه الضاحكتين ، وقد امسى وجهه النحيف شديد الزرقة ، هالني منه بصورة خاصة اسنانه الاصطناعية وبروزها بين فكيه المتوترين .

وكانت والدتي ، نصف العارية بتنورتها الحمراء القصيرة ، جاثية قربه تسرح شعره الطويل الناعم ، المنسدل بدلع على جبينه ، بذلك المشط الاسود الذي اعتدت ان استعمله منشارا اقطع به قشر البطيخ . كانت تجمجم باشياء عديدة مبهمة في صوت مبحوح عميق ، وقد انتفخت عيناها الرماديتان وراحتا تذرفان دموعا غزيرة .

كانت جدتي — وهي امراة ضخمة الجسم ، مستديرة الراس ، كبيرة العينين ، ذات انف بارز يبعث على السخرية — ممسكة بيدي ، وكل شيء فيها كثير النعومة ، عظيم الكآبة ، فائق الفتنة ... وكانت هي الاخرى تذرف الدموع السخينة ، لكن بطريقة خاصة تصعد نغمة رقيقة ترافق بكاء امي . وكانت ترتجف بكليتها ، وهي تدفعني باستمرار ناحية والدي . اما انا فارتمي الى الخلف ، وافتش عن مخبأ لي وراء تنورتها ... كنت خائفا ومتضايقا في وقت واحد ...

كنت قد ابللت لتوي من مرض خطير طرحني في الفراش مدة طويلة ، عادني والدي اثناءه — وانا اذكر ذلك جيدا — واخذ يلاعبني ويضاحكني في

شيء كثير من الجذل والمرح . ولكنه اختفى ، فجاة ،وشغلت مكانه هذه المرأة الغريبة ، جدتي !

سألتها :

ـ هل تعبت كثيرا من السير حتى وصلت الى هذا المكان ؟

فأجابت :

ـ انا لم امش ، بل ركبت ! فأنت لا تستطيع السير على الماء ، ايها الماجن الصغير ! لقد هبطت من نيجني نوفجورود .

وقد ابهم هذا الكلام علي ، وان ترك في نفسي صدى مضحكا : كان يقطن فوقنا في المنزل بعض الفارسيين ذوي اللحى الطويلة والاجسام الناحلة، اما القبو فيقطنهكالميكي ذو البشرة الصفراء الذييتاجر بجلودالخراف. وكنت استطيع الهبوط اليه بالتزحلق على حاجز السلم ، او تدحرجا اذا زلت القدم بي . . . وانا اعرف ذلك تمام المعرفة . ولكن ، ما دخل المياه في هذا الموضوع،انها مخطئة ، وهي تخلط بين الاشياء بهوس وجنون .

سألتها :

ـ لم تنادينني بالماجن الصغير ؟

فرن جوابها المفحم الهازىء :

ـ لانك كبير جدا !

كان اسلوبها في الحديث لطيفا ، جميلا ، رائعا ... ولقد اصبحنا صديقين حميمين ، جدتي وانا ، منذ اليوم الاول للقائنا . أما الان فقد اخذ القلق يستولي علي ، فأود لو اغادر هذه الغرفة بأقصى سرعة ممكنة .

كانت أمي تقلقني ، تملؤني دموعها ونواحها بمخاوف غريبة لا حصر لها ، فتلك هي المرة الاولى التي اراها فيها على هذه الحال ... كانت ، على وجه العموم ، امراة عابسة الوجه ، صامتة ، نظيفة ، حسنة الهندام ابدا ، عريضة المنكبين كالفرس ، ذات جسد متين ، ويدين صلبتين قويتين للغاية ... غير انها غدت الان مترهلة الاعضاء ، شعثاء الهندام بشكل لا يبعث على الارتياح ابدا .. فثيابها ممزقة ، وشعرها ـ وهي تسرحه عادة وتعقصه كتلة ضخمة شقراء في قمة راسها ـ قد تبعثر على كتفيها العاريتين ونزل فوق عينيها ، في حين راحت خصلة منه تتراقص على وجه والدي النائم . ومع اني قضيت فترة طويلة منتصبا في وسط الغرفة كالتمثال ،

فانها لم تعرني ادنى التفات على الاطلاق ، اذ شغلها عني امر تصفيف شعر زوجها ، وواجب ذرف الدموع عليه . . .

وفتح الباب فجأة ، والقى الجندي الحارس وعدد من الفلاحين السود الوجوه نظرة عجلى على الغرفة ، ثم صاح الاول بحدة :

ــ هلموا اسرعوا ، واحملوه خارجا !

كان حرام اسود اللون، مسدلا على النافذة، وهو يتطاير بفعل تيار الهواء الجاري فكأنه شراع قارب صغير ، يذكرني ، دون سبب على الاطلاق ، بما حدث لي مرة عندما اصطحبني والدي في نزهة على متن مركب شراعي ، وانفجرت عاصفة من الرعد بغتة ، فضحك والدي ، وضمني بين ركبتيه ، وصاح يهدىء من روعي :

ــ لا بأس ، لا تخف يا بني !

وعلى غير انتظار ، تحاملت والدتي على نفسها بصعوبة ، ولكنها لم تلبث ان سقطت واستلقت على ظهرها ، فانتشر شعرها على الارض ، وازرق وجهها ، وغاض منه كل لون ، وانطبقت اسنانها بعنف كانطباق اسنان والدي تماما .

تمتمت في صوت خائف يرتعد :

ــ اغلقي الباب ، اخرجي الكسي !

فدفعتني جدتي جانبا ، وهي تمضي ناحية الباب . . .

صاحت جدتي عاليا :

ــ لا تخافوا ، أيها الطيبون ! لا تلمسوها ! اخرجوا ، محبة بالمسيح ! ليست هذه كوليرا ! بل بداية آلام المخاض ! ، اشفقوا عليها ، ايها الناس الكرام !

واختبأت وراء صندوق للملابس في زاوية مظلمة ، اتطلع منها الى والدتي تتلوى على الارض ، تئن وتصر بأسنانها ، بينما تتدحرج جدتي بالقرب منها وهي تتلو بلطف وجذل بعض الصلوات :

ــ باسم الاب والابن ! تشجعي يا فاريوشا ! يا والدة الاله العذراء ارحمينا . . .

كنت خائفا . . . فهما تتابعان الزحف والحركة على الارض قرب والدي ، حتى تلامسا جسده البارد أحيانا ، تئنان ، وتبكيان ، وتلطمان الخدود حزنا عليه . . . اما هو ، فيرقد هادئا دون حراك ، وعلى محياه

سيماء السخرية منهما . واستمر هذا المشهد مدة ليست قصيرة ، وامي تحاول الوقوف على قدميها ، لتعـــود من جديـــد فتسقط على الارض ، بينما تقفز جدتي داخل الغرفة وخارجها كطابة كبيرة سوداء ، وانا عاجز عن ادراك اي مغزى لذلك الاضطراب كله ... وعلى حين غرة ، تـــردد في الظلمة بكاء طفل صغير ...

تنفست جدتي الصعداء ونبرت :

ـــ شكرا لله ! انه صبي !

واشعلت شمعة ...

لا ريب انني استسلمت للنوم في زاوية الغرفة ، لانـنـــي لم أعد اذكر شيئا مما حدث بعد ذلك ...

أما ثاني ذكريات حياتي فكنت اقف في بقعة مهجورة في احدى المقابر ، ذات يوم ماطر ... على رابية قليلة الارتفـــاع ، فـــوق كتلة من التـــراب لزجة متحركة ، اتفرس في تلك الحفرة التي انزلوا فيها نعش والدي . كان قاع الحفرة يطفح بالماء والضفادع ـــ حتى لقد قفزت ضفدعتـــان فوق غطاء النعش الاصفر اللون ، واستقرتا عليه .

كنت هناك مع جدتي ، والحارس ، وفلاحين يحملان معوليهما . وكنا ، جميعا ، نستحم في رذاذ بديع كان يتساقط حديثا ...

قال الحارس ، وهو يتحرك مبتعدا :

اطمرا الحفرة بسرعة .

فانخرطت جدتي في البكاء ، وقد غطت وجهها بطـــرف وشاحها ... وانحنى الفلاحان ، وهالا اول دفعة من الطين في الحفرة ، فتطايـــر الماء منها ، واخذت الضفدعتان تثبان على جوانب القبر تطلبان النجاة . فتردها دفقات التراب ثانية الى قاع الحفرة .

وقبضت جدتي على مرفقي ، وقالت :

ـــ فلنرجع ، يا اليوشا !

فافلت من قبضتها ، راغبا في العودة ...

تنهدت بشكل ترك في بعض الارتياب :

ـــ اه ، يا الهـــي !

ترى ، اشكواها مني ام من رب السماء ؟

ظلت جامدة في مكانها فترة طويلة ، مطرقة الراس ، صامتة ... ولم يخطر لها ان تتحرك ، حتى بعد ان طمرت الحفرة تماما ..

مهد الفلاحان الارض بسطح معوليهما ، وفي هـذه الاثناء هبت ريح صرصر طردت الغيوم ، وحملت المطر بعيدا . فاخذت جدتي بيدي ، وقادتني الى كنيسة غير بعيدة تقوم بين غابة من الصلبان السود .

والتفتت الي عندما خرجنا من المقبرة ، وسالت :

ــ ما بالك لا تبكي ؟ يجب ان تبكي قليلا !

فقلـت :

ــ اني لا اشعر بميل الى البكاء .

ــ حسنا ، ان كنت لا تميل الى البكاء ، فلا حاجة لك به اذن .

ادهشني منها ان تطلب الي البكاء ... كنـت نادرا ما ابكي ، واذا فعلت فلأن بعض الناس جرح شعوري ــ ابدا لم ينتزع الالم الجسدي مني الدموع ــ فاذا ما اهرقتها مرة ، كان والدي يضحك من عبراتي ، اما والدتي فتامرني قائلـة :

ــ لا تبك ! اني امنعك عن البكاء !

وقطعنا ، بعد قليل ، دربا عريضة مغبرة تمتد بين عـدد من المنازل تجمع بين اللونين الاسود والاحمر .

سالت جدتـي :

ــ هل ستخرج الضفدعتان من الحفرة ؟

ــ كلا ، لن تخرجا . غفر الله لهمـا !

كانت تردد اسم الله بكثرة ، وبشيء مـن السهولة ، لم اشاهدهـا عند والدي مطلقـا ...

●●●

بعد مضي عدة ايام اتخذنا ، جدتي وامي وانا ، غرفة صغيرة على متن احد المراكب البخارية ... كـان اخي الطفل مكسيم قد توفـي ، وهو الان

ممدد على طاولة صغيرة في احدى الزوايا ، تلفه ثياب بيض محزومة بشريط احمـــر .

جلست على بعض صناديقنا وامتعتنا ، اتطلـــع الى الخارج مـــن كوة صغيرة ، مستديرة ، اشبه بعين الحصان الصغير . وكانت المياه الغاضبة تتدفـــق تحت الزجاج المبتـــل . وتتكوم في بعض الاحيـــان بموجة عاتيـــة جبارة فتغمره برذاذها . وساعتئذ ، كنت اقفز مكرهـــا حتى الارض ... فتنهضني جدتي بذراعيها الناعمتين وتعيدني مرة أخرى الى مكاني السابق فوق الامتعة ، وهي تقول :

ــ لا تخف ، يا عزيزي !

كان ضباب رطب، رمادي اللون، يبدو كأنه معلقفوق المياه.. وبينالفينة والفينة ، كانت بقعة خضراء من الارض تنبثق من قلب الضباب ، ثم لا تلبث ان تتلاشى في مكان ما ، على بعد سحيق ... كان كل شيء يحيط بنا يهتز بشكل واضح جلي ما عدا أمي ، التي تقف ثابتة لا تأتي بحركة ، مستندة الى الجدار وقد شبكت يديها خلف رأسها ، واغلقت عينيها بشدة واحكام ، وبدا وجهها اسود اللون ، عابسا ، خاليا من كل تفكير . ولم تفــه بكلمة طوال الوقت ، حتى خيل الي انها قد تغيرت تماما ، وتجـــدد كل شيء فيها . حتى ان ثوبها ايضا لم يك مألوفا لدي ...

كانت جدتي تلتفت اليها من وقت لآخـــر ، وتخاطبها بحنان وعطـــف لا يخطران ببال :

ــ هلا تناولت بعض الطعـــام ، يا فارفارا ... لقمة واحـــدة على الاقـــل ؟...

ولكن والدتي تظل معتصمة بصمتها محتفظة بجمودها ...

وطفقت جدتي تحدثني همسا كعادتها ، فاذا خاطبت أمي توجهت اليها بصوت عال بعض الشيء وفي شيء من الخجل والحذر ، وفي فترات متباعدة كل البعد ، مما دفعني الى الظن بأنها تخاف والدتي . ولم يصعب علي فهم ذلك ، بل ضاعف تحببي الى الجدة ، وزاد الروابط بيننا شدة وتمكنا ...

قالت امي ، على غير انتظار ، فيصوتمرتفع أجش :
ــ ساراتوف ! أين هو ذلك النوتي ؟

تلك كلماتها الغريبة غير مألوفة : « ساراتوف » ، « النوتي » ؟ .

ودخل الى الغرفة رجل عريض المنكبين ، اسود الشعر ، يرتدي بزة زرقاء ، ويحمل صندوقا صغيرا تناولته جدتي منه ، ومددت جسد اخي الصغير في جوفه . . . ومن ثم حملته ، بعد ما تم لها ما ارادت ، وخطت ناحية الباب ، وقد مدت يديها بحملها الى الامام . غير انها كانت اسمن من ان تتمكن من المرور منه الا بصورة جانبية ، بحيث وقفت عنده حائرة مرتبكة ، وهيئتها تبعث على السخرية .

صاحت والدتي ، وهي تختطف النعش من يدي جدتي :

ــ اوف ، ما بك يا امساه !

ثم اختفتا معا ، وتركاني في الغرفة بصحبة ذلك الرجل الازرق . فقال ، وهو يحنو علي :

ــ لقد ذهب اخوك وتركنا هنا .

ــ من انت ؟

ــ نوتي .

ــ ومن ساراتوف ؟

ــ انها بلدة . انظر من النافذة ، انها .. هناك !...

كانت الارض تتحرك خارج النافذة وتميد ، سوداء ، كثيرة التعرجات، مكللة بالضباب المتصاعد منها كالدخان ، فتذكرني بقطعة كبيرة من الخبز اقتطعت من رغيف ساخن .

ــ أين ذهبت جدتي ؟

ــ تدفن حفيدها .

ــ هل ستدفنه في جوف الارض ؟

ــ طبعا !

فقصصت عليه كيف طمروا الضفدعتين الحيتين يوم دفنوا والدي . فحملني بين ذراعيه ، وضمني الى صدره ، وقبلني ثم قال :

ــ آه ، يا صغيري ! انك لا تدرك الا أمورا قليلة بعد ! ليست الضفادع

ـ أخـذها الشيطان ـ من يستحق الشفقة ، بل والدتك ... انظر كم هي تتألم وتشقى !

وفجأة ، قامت فوقنا ضوضاء عظيمة هي مزيج من الزمجرة والانين والصراخ ، لم أرتعد منها خوفا لانني ادركت ان مصدرها ان هو الا عملية تسيير المركب البخاري . وانزلني البحار من بين ذراعيه بسرعة ، وانطلق خارجا وهو يعلن .

ـ يجب ان اذهب !

رغبت بدوري في الذهاب ، فخطوت خارج الغرفة ... كان الممر الضيق المعتم مقفرا من الناس ، يطالعني فيه ، غير بعيد من الباب ، لمعان نحاسي انه السلم . طلعت الى اعلاه ، فشاهدت بعض الناس يحملون امتعة محزومة ... كان من الواضح ان الجميع يغادرون المركب ، وهذا يعني انه ينبغي علي بدوري ان أغادره مثلهم .

وعندما بلغت السطح ، وانزلقت بين جميع اولئك المسافرين الواقفين على السلم الذي يصل المركب بالبر ، شرع القوم يصيحون في وجهي :

ـ من انت ؟ اين اهلك ؟

من اين لي ان أدري .
فراحوا يدفعونني حينا ، ويلقونني أرضا حينا اخر ، وينتهرونني دون انقطاع ...

ولكن البحار الاسود الشعر ظهر اخيرا ، وقال :

ـ انه صبي من استراخان ـ خرج من غرفته صدفة ...

وحملني ، وركض عائدا بي الى الغرفة حيث وضعني على الصناديق وخرج ، لكن بعد ان هددني قائلا ، وهو يهز اصبعه في وجهي :
ـ اياك ان تفعل هذا مرة اخرى ، والا ...

وعاد الهدوء يخيم ، شيئا فشيئا ، على المركب الذي كف عن الاهتزاز ، كما انقطع رذاذ الماء في الوقت ذاته . ولكن لهاثا من الرطوبة سد نافذة الغرفة ، فأمست مظلمة خانقة ، يخيل الي في عتمتها ان الصناديق تنتفخ وتحدق في باصرار وعناد .. ذعرت ، فرحت اتساءل :

ـ ترى ، هل تركوني وحيدا في هذا المركب البخاري الفارغ الى غير ما عـــودة ؟ . . .

مضيت الى الباب . . . كان مغلقا ، فلم استطــع ان ادير قبضتــه النحاسية ، فتناولت قنينة حليب كانت على المنضدة قربي ، وهويت بها بكل قواي على القفل . فتكسرت القنينة ، وتدفق الحليب على قدمـــي وتسرب الى حذائي .

اسفت من فشلي ، فتمددت باكيا منتحبا فوق الامتعة ، وحاولـــت ان انام . . . عندما استيقظت كان المركب يتأرجح من جديد ويهتز ، والماء يتطاير ونافذة الغرفـــة تبرق كالشمس وجدتـــني تجلس الى جانبي تسرح شعرهـــا معقودة الحاجبين ، تغمغم بينها وبين نفسهـــا باشياء عديدة . . كان لها شعر غزير يتراوح لونـــه بين الزرقـــة والسواد ، يتدلى بكثافة فـــوق كتفيهـــا ، وصدرها ، وركبتيها ، حتى يبلغ الارض . . . وكانت ترفعه باليـــد الواحدة عن الارض ، وتنثره فوق راسها ، ثم تدفع ببدها الاخـــرى مشطا خشبيا ، خشنا قليل الاسنان ، داخل جدائلها الثقيلة المتمردة . وكـــان فمها يلتوي المأ ، وعيناها السوداوان تلمعان غضبا ، ووجهها يبدو صغيرا رائعا فـــي وسط تلك الكتلة الجبارة من الشعر الكثيف .

كان مزاجها ، فيما يظهر ، سيئا ذلك النهار على غـــير اعتياد . ولكن صوتها كان ناعما ، لطيفا ، مثله دائما ، عندما اجابتنـــي وقـــد سألتها عن سبب طول شعرهـــا :

ـ أنه عقاب من الله ـ لقد قال لي : فلتمضي ايامك كلها في تسريح هذا الراس الملعون ! لقد اعجبت به في صغري ، ولعنته في شيخوختي . ولكن ، عد الى النوم ، يا صغيري . فالوقت ما زال مبكـــرا ، والشمس لم تكد تشرق بعد ، وانت في حاجة الى الراحة والسكينة .

ـ لارغبة لي في النوم بعد الان .

فاجابت ، وهي تعقص شعرهـــا وتشخص الى الاريكـــة حيث تتمدد والدتي بشكل تبدو معه وكانها السهم :

ـ حسنا ، لا تنم اذا لم يكن لك رغبة في الرقاد . كيف كسرت القنينة لبارحة ؟ تحدث بصوت خافت .

كانت تنغم كلماتها بطريقة خاصة ، فتنحفر الكلمـــات حفرا في ذاكرتي بسهولة ــ ما احيلاها كلمات زاهية معطرة كالورد ! وعندما تبتسم كانت عيناهـــا السوداوان تشعان وتشرقـــان بلمعان لا يوصـــف ، وابتسامتهـــا تفضح اسنانها البيضاء القوية ، ووجهها كله ، رغما عن التجاعيـــد الكثيرة المنتشرة في وجنتيها الجافتين ، يبدو فتيـــا رائعا فاتنـــا ... ولم يك يفسد جمال هذا المحيا الا ذلك الانف البدين الاحمـــر ، بخيشوميـــه الواسعين ، وارنبته المتأججة الحمراء . ان جدتـــي تتعشق السعوط كثيرا ، وتتناولـــه باستمرار من علبة سوداء مزينة بخيوط من الفضة . وكان كـــل ما ترتديه اسود اللون قاتما ، الا ان نورا انيسا دافئا دائم الاشعاع يطل من عينيها ، ويلقي عليها من الداخل هالة رائعة من الضياء . وكانت فارعـــة القامة . منحنية الظهر حتى تقارب الاحديداب ، وان ظلت حركتها سهلة سريعة مثل حركة قطـــة . والى جانب ذلك ، كانت تماثل القطة الاليفة لطفا ورقة ...

لقد كنت قبل قدومها ، كالغارق في النوم ، محاطـــا بنوع من الظلمة الغريبة . فاذا بها تأتي الي ، وتبعثني من رقادي ، وتقودنـــي الى النور ، ومن ثم تغزل كل ما يحيط بي في خيط واحد متصل ، وتجعل منه شبكة زاهية الالـــوان .

وسرعان ما اضحت ، الى الابد ، رفيق حياتـــي ــ الرفيـــق القريب والعزيز على قلبي ، والذي استطيع ان افهمه تماما ... وكان حبها المتجرد الحياة يثقفني ، ويهبني القدرة التي كثيرا ما احتجت اليها ، فيما بعد ، لاجابه بعزم وقوة مستقبلي المظلم الذي لم اكن لاعرف عنه شيئا .

●●●

كانت المراكب البخارية ، قبل اربعين سنة مضت ، تتحرك ببطء ظاهر ، بحيث تضينا وقتا طويلا حتى بلغنا نيجني نوفجورود . وانا لا ازال اذكر ، حتى الان ، تلك الايام الماضيات الطافحة رقة وعذوبة ، المشوبة بالغبطـــة والبهجة والفرح والسرور .

ظل الطقس بديعا ابدا ... ومنذ الصباح حتى المساء ، كنت اقتعـــد وجدتي سطح المركـــب ، عائشـــين هناك تحت قبة السماء الزرقاء اللامعة ، بـــين ضفتـــي نهر الفولجـــا المزخرفتـــين ببساط ذهبـــي يطرزه الخريـــف

ويزينه . وكان المركب الرمادي اللون الذي يجر وراءه قاربا صغيرا للانقاذ ، يتحرك ببطء وسط الماء الازرق الضارب الى الرماد ، مقاوما مجرى التيار شاقا طريقه بواسطة لطمات لطيفة خفيفة تضرب بها المجاذيف العريضة سطح النهر المتدفق ابدا ... اما القارب الصغير المجرور فكان اغبر اللون ، يشبه حشرة مائية ضخمة ... وكانت الشمس تسير بخفة فوق نهر الفولجا حتى اننا لا نحس بها ، تضيف في كل ساعة شيئا جديدا الى بهاء الطبيعة ورونقها ... وكان كل شيء يحيط بنا يتغير بين لحظة واخرى ، كما في اقاصيص الجنيات ... والهضاب الخضراء تتوج الارض الثرية ... والقرى والسهول على الجانبين تبدو ، وهي تمر بنا عن بعد ، وكأنها مصنوعة من اللون الاخضر ، واوراق الخريف الذهبية اللون تعوم فوق المياه وتسبح .

ـ انظر ، ما اروع تلك المناظر الطبيعية !

هذا ما كانت تقوله جدتي ، وهي تذرع السطح جيئة وذهابا ، يتالق وجهها نورا ويغمر الفرح عينيها .

وغالبا ما كانت تنتصب ، وتسف النظر الى هذا المشهد الهادىء ، متناسية وجودي تماما ، وقد صلبت يديها عند خصرها ، وتحدبت شفتاها بشكل ابتسامة لطيفة ، واخضلت عيناها بالدموع . وعندئذ ، كنت اتعلق مذعورا بتنورتها السوداء الموشاة بالوان عديدة زاهية .

كانت تقول حينذاك :

ـ ماذا ؟ كأنني غفوت ، وحلمت حلما لذيذا !

ـ لم تبكين ؟

فكانت تبتسم ، وتجيب :

ـ من سعادتي ، يا صغيري ! ومن ضعفي ، يا عزيزي ! لقد هرمت، بعد أن خلفت ورائي فصولا ثلاثة من عمري ...

وحينذاك ، كانت تنشق قليلا من السعوط ، وتقص علي بعض القصص الخيالية عن القديسين ، والحيوانات ، واللصوص الظرفاء ، والسحر الاسود .

كانت تروي اقاصيصها بصوت منخفض غريب الجرس ، وقد تجهم

وجهها ، وهي تثبت حدقتيها الواسعتين في عيني ، كما لو كانت تصب في قلبي تيارا من القوة تشد به من عزيمتي. كانت تغني اكثر منها تقص علي حكاية ... وكلما اطالت الحديث ، كلما سجعت اسلوبها ... وكان يسيطر علي فرح لا يوصف عندما استمع اليها ، حتى اذا انتهت من احدى القصص هتفت بها :

— تابعي ، يا جدتي ، قصة اخرى ! ارجوك ...

— ... وعندئذ حدث ان كان العفريت الصغير يجلس تحت المدفأة وقد اصيب بشظية ابرة كان يتأرجح في جلسته ويتأوه ... « اوه ، ايتها الفأرة الصغيرة ، ايتها الفأرة الصغيرة ! ساموت ، ايتها الفأرة الصغيرة ! »

ثم تمسك بقدمها وترفعها ، وتأخذ تهز راسها ، فاتحة عينيها ، الى الامام والى الخلف ، وكأنها هي التي تعاني تلك الالام .

ويتجمع حولنا البحارة — رجال طيبون لحاهم طويلة — ويغرقون بالضحك ، وهم يصيخون السمع اليها ، ثم يمتدحونها ويطلبون منها المزيد :

— تابعي ، ايتها الجدة ، وقصي علينا مزيداً من هذه الخرافات !

وعند العشاء ، كانوا يدعونها الى شرب الفودكا ، ويدعونني على البطيخ الاحمر والاصفر . كان ذلك يجري في الخفاء ، اذ كان على المركب انسان منع اكل الفواكه بسبب الاوبئة المنتشرة ، فاذا ما وقع على احدهم ياكلها اختطفها منه راسا ، ثم القى بها في مجرى النهر . وكان يرتدي ثيابا اشبه بثياب الفقراء ، وقد صف مجموعة من الازرار النحاسية على صدر معطفه بتناسق جميل . وكان ثملا دوما ، يهرب الجميع منه كلما صادفوه في طريقهم ..

كانت والدتي نادرا ما تصعد الى سطح المركب ، فاذا فعلت كانت تتجنبنا وتظل معتصمة بصمتها وهدوئها . وما زلت اذكر ، حتى اليوم ، جسدها الطويل الجميل ، ووجهها الاسود الانبس المتوج بجدائل من الشعر الاشقر ، وقامتها القوية الصلبة ، ان كل هذا ينبثق امامي الان ، من خلال ضباب ابيض او غيوم شفافة . ومن وراء السنين ، ياتيني حتى اليوم

بريق عينيها الرماديتين المتوحشتين اللتين تعادلان عيني جدتي في الاتساع .

قالت ، ذات يوم ، بجفاء :

ــ انك تجعلين من نفسك اضحوكة ، يا اماه !

فأجابتها جدتي بمرح :

ــ فليضحك الناس ان ارادوا ذلك ، فهذا يجعل حياتهم اكثــر هناء . كان اللــه معهم !

وانا اذكر ذلك الفرح الصبياني الذي استولى على جدتي عندما وقعت عيناها على نيجني نوفجورود . . . صاحت ، وهي تقبض على يدي ، وتدفعني ناحية الحاجز :

ــ انظر ، انظر ! ما اروعها ! هذه هــي نيجنى ، مدينــة الله ، حيث ستعيش ! يا لجمالها!انظر الى قبــب الكنائس ! لكأنها تحلق عاليا فــي الجــو !

واستدارت نحو أمي ، وقد غلبتها الدموع :

ــ انظري ، يا فارفارا ! لا ريب انك نسيتهــا على ما اظن . . . هيا عبي من سرور لقياهــا !

ولكن والدتي ابتسمت بحزن . . .

والقى المركب مرساه فيناحية تقابل المدينة المحبابة . توقف في منتصف النهر الذي احتشد بالزوارق الصغيرة ، يطغى عليه سيل من مئات القوارب الشراعية . وهذا قارب صغير يعج بالناس ويضيق يحاذي مركبنا ، ثم يعرج حتى السلم الذي يصل بين المركب والشاطىء ، فاذا بلغه قفزت الجموع ، منه ، وصعدت الينا حتى السطح . وكان يدب ، على راس تلك الجموع ، شيخ صغير الجسم ، نحيل القوام ، ارتدى معطفاطويلا اسود اللون . كانت له عينان صغيرتان خضراوان ، وانف اقنى ، ولحية حمراء تلتمع كالذهب .

صاحت والدتي بصوت عال ، وهي ترمي بنفسها بين ذراعيه :

ــ ابتــاه !

فراح يمسح راسها بيديه الصغيرتين الحمراو ين ، ثم اخذ يضرب بلطف على وجنتيها ، ويصيح مهتاجا :

ـــ آه ، آه ! ايتها الطائشة ! اخيرا ، ها انتذي هنا ! اه ـــ ه . . .

وشرعت جدتي تحتضن الجميع وتقبلهم ، وهـــي تدور حول نفسهـــا مثل المروحـــة . . .

صاحت ، وهي تدفعني نحو القوم

ـــ هيـــا ، اسرع ! هـــذا هو الخـــال ميخائيـــــل ، وهذا ياكـــوف ، وهذه الخالة ناتاليا ، وهذان الصبيان ابنا خاليك ، واسم كل منهما ساشا ، وهذه ابنة الخال كاترينا ، كلهم يؤلفون عشيرتنـــا ـــ انظر الى هذا العـــدد العديـــد !

وسأل جـــدي :

ـــ كيف حالك ، يا اماه ؟

وقبل كل منهما الاخر مرات ثلاثا . . .

و اختطفني الجد من بين الجميع وقال ، وقد وضع يده على راسي :

ـــ ومن تكون انـــت ؟

ـــ صبي من استراخان ـــ خرج من غرفته صدفة . . .

فسأل جدي مدهوشا ، وقد استدار جهة والدتي :

ـــ ماذا يقـــول ؟

ثم دفعني الى الامام دون ان ينتظر جوابا . قال :

ـــ لقد ورث هزال والده . فلننزل الى القارب .

ركبنا حتى الشاطىء ، ثم تسلقنا الطريق القديمة الحجريـــة بين صفين من الارصفة العالية المكسوة بالعشب الاخضر المرتجف .

سار جدي في الطليعة بصحبة والدتي ، وكان لا يكاد يبلغ كتفيها ، يخب على الارض الى جانبها بخطواته السريعة القصيرة . وهي تنظر اليه من عل تبدو وكأنها على وشك ان تطير في الهواء . . . ومشى خلفهما خالاي ، دون ان يند عنهما ادنى صوت : ميخائيـــل ، بشعـــره الاسود الاملس ، وجسده النحيف الذي يداني جفافا جسد جدي ، وياكـــوف ، بشعره الاشقر المجعـــد البراق ، ومن ثم بعض النسوة السمينات بثيابهن الزاهية الالوان ، وحوالي ستة أطفال ، وكلهم يكبرونني سنا ويفوقونني هدوءا ايضا امـــا انا فمشيت

وجدتي في مؤخرة الجميع ، تصاحبنا الخالة الصغيرة ناتاليا . كانت شاحبة اللون ، ذات عينين زرقاوين ، وبطن عبل ... وكانت تقف بين لحظة واخرى، تلتقط انفاسها وتخرخر :

ــ اوه ، لم يعد في استطاعتي السير خطوة أخرى .

فيتمتم جدي بغضب :

ــ لم اصطحبوك معهم ؟ يا لها من عشيرة غبية !

اما انا فلم يرق لي احد من هذه العشيرة ، لا الكبار ولا الصغار ... احسست كأنني غريب بين هذا الجمع الفائض . حتى جدتي نفسها ذبلت قليلا في عيني ، وازدادت بعدا . .

كرهت ، خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، اذ عرفت فيه منذ اللحظة الاولى ، عدوا لي ، استفز استقباله في فضولا حذرا جعلني أوجه اليه انتباها خاصا .

وانتهينا الى اخر ذلك المرتفع .. فانتصب امامي منزل منخفض مؤلف من طابق واحد ، ينهض مقابل الرصيف الايمن في تلك البقعة المرتفعة حيث يبدأ الطريق بالقرب منه ... كان البيت مدهونا بلون وردي وسخ ، ونوافذه منتفخة : تنتفخ تحت سقف مهدم عتيق . كان يبدو كبيرا واسعا عندما نظرت اليه من الخارج . ولكن الغرف ، في داخله ، كانت صغيرة جدا ، مظلمة ضيقة ، مليئة بجمهور مضطرب كثير الحركة والضوضاء . كان مثله مثل المركب عند تفريغ حمولته ، والاطفال يتجمهرون فيه مثل العصافير الدورية ، وجوه النظيف قد تشبع برائحة حادة غير مالوفة .

وجدتني في ساحة لا تبهج القلب مطلقا ، ازدحمت بدورها ببعض الاواني الزجاجية المملوءة ماء ملونا كريه المنظر ، مصفوفة في كل مكان دون انتظام ، وبثياب نشرت على عدة حبال بغية تجفيفها . وكان شعاع نار تبعثها اخشاب تلتهب في الموقد ، يجيء من زاوية مظلمة ، قدمة ، متآكلة ، مصحوبا بصوت غلبان وقرقرة وضجيج ... وكان شخص غير منظور يتفوه بكلمات غريبة في صوت عال :

ــ اعطوني سانتالين ــ اعطوني زاجا ــ اعطوني حامض الكبريت ! . .

٣

كان ذلك فجر حياة دائبــة الجريان ، طافحــة بالحوادث ، معقدة ، غريبة ، يستحيل وصفها تماما . وان ذكراها لتحيا في خاطري كحكاية كئيبة رواها لي جني طيب القلب ، لكنه واقعي حتى درجــة الايلام . ولكم يصعب عليَّ حتى اليوم ، اذ اعود بالذكرى الى الماضي البعيــد ، ان اصدق ان هذا الماضي كان حقا على ذلك الغرار ، فأروح أميل الى انكار كثــير من الوقائع ومعارضتها كيما اختصر مما كانت عليه الحياة في تلك « العشيرة الغبية » من ظــلام وقسـوة .

ولكن الحقيقة فوق كل نزوة شخصية . وانا لا اكتب هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الخانقة الرهيبة التي كان يعيش فيها ، وما يزال ، الروسي العــادي .

كان منزل جدي مليئا بدخان العداوة الخانق ـــ عداوة كل فرد للجميع ، هذه العداوة التى تسمم الكبار بها تمامــا ، وسرت عدواهـــا الى الاطفـــال الصغار ايضا . وقد عرفت فيما بعد من اقاصيص جدتي ان والدتي رجعت الى الدار واخواها يطالبان والدهما ـــ بالحاح زائــد ـــ ان يقسم املاكه فيمـــا بينهما . فاذا رجوع امي غير المنتظر يزيدهما جشعا واسرافــا في الالحاح ، خوفا من ان تطلب مهرها الذي سبق لجدي ان حرمها منه لاختيارها زوجها دون موافقته ورضاه . وكان خالاي يطالبـــان باقتسام ذلك المهــر ، وهما يخوضان ، دون انقطاع ، جدالا مرا حول من سيفتتح مصبغـــة في البلدة ، ومن سيغادر البيت الى كونافينو ، على الضفة الثانية لنهر اوكا .

وهكذا نشب ، ولما يمض على وصولنا زمــن طويل ، شجار عنيف في المطبخ ساعة الغداء . فقد قفز خالاى بسرعة ، وارتميا فوق المائدة ، يصيحان وينبحان في وجه جدى ، ويكشران عن اسنانهما ، وينتفضان كالكلاب . واذا الجد يهب بدوره واقفا ، يضرب بملعقته وقد اصطبغ وجهه بالحمرة ، ويصيح بصوت اجش :

ـــ سأجعلكما تستعطيان الناس في الشوارع .

فقالت جدتي ، وقد تغضن وجهها ألما :

ـــ أعطهما كل شيء ، يا أبتاه ! هيا ، اعطهما كـل شيء . وسوف تجد الراحة والسلام . اعـط !

فصاح ، وعيناه تقدحان شررا :

ـــ صمتا ، أيتها المتساهلة !

وقد بدا لي غريبا يومئذ ان يستطيع انسان بحجمه الصراخ في مثل ذلك الصوت المخوف الهائل .

ونهضت والدتي ، واتجهت ببطء نحو النافـذة ، حيث استقرت وقـد ادارت ظهرها للجميع .

وفجأة ، ضرب خالي ميخائيل اخاه ضربة جبـارة على وجهه ، فأرسل هذا عويلا عنيفا ، وتعلق به وجذبه اليه بشدة ، فتدحرج الاثنان على الارض يلهثان ، وينفخان ، ويتشاتمان . . .

وهنا اخذ الاطفال يبكون ، واطلقت خالتى الحامل ناتاليا من فيها صرخة يأس ، فضمتها والدتي بكلتا ذراعيها ، ثم دلفت واياها خارجا . أما يفجينيا ، وهي المربية الجميلة ذات الوجه الضحوك المجدور ، فأسرعت تخرج الاطفال من المطبخ . . وتحطمت بعض المقاعد في حميا المعركـة ، فأسرع الصانـع ايفان ـــ الملقب بتسيجانوك ـــ وامسك بظهـر الخال ميخائيل ، بينما راح جريجوري ايفانو فيتش ـــ وهو معلم ملتح أصلـع الرأس يحمل نظارتـين سوداوين على أنفه ـــ يوثق يديه بهدوء باحدى المناشف .

وابتدأ الخال يحك لحيته الرفيعة على الارض ، ويطلق من فيه صيحات مرعبة مبحوحة ، بينما جدي يركض حول الطاولة كالمجنون ، وهو يزعق :

ـــ اخوة ، ها ! اخوة دمويون ! تفو !. . .

كنت قد قفزت خائفا ، عند بدء ذلك النزاع ، فوق الموقـد . . . ومن هناك اخذت اراقب جدتي ، وهي تغسل الدماء عن وجـه ياكوف المدمى . وكان هذا يبكي ، ويضرب الارض بقدميه ، بينما الجدة تقول بلهجة يائسة :

ـــ افلا تعقلان ، أيها الملعونان ! يا لها من عشيرة متوحشة !

فرفع جدي قميصه الممزق الذي سقط عن كتفه ، وصاح :

— اليك الوحوش التي حبلت بها ، أنت ايتها الشمطاء اللعينة !

وعندما خرج ياكوف ، تكورت الجدة على بعضها في احدى زوايا المطبخ، وراحت تحدث الايقونات .

— يا أم الاله الطاهرة ! ارجوك ان تعيدي الى ولدي ادراكهما !

فأتاها جدي ووقف بالقرب منها ، شاخصا الى الطاولة حيث كان كل شيء قد اندلق وتكسر . قال بهدوء :

— انت يا أم ، يحسن بك ان تراقبي هذين الولدين اللذين انجبتهما ! انهما يريدان الخلاص من فارفارا ... وما نفع هذا ؟

— لا سمح الله ! لا سمح الله ! والان ، اخلع قميصك حتى ارفأه لك .

وتناولت راسه بين يديها ، وقبلته في جبهته ، فدفسق راسه — لشدة قصره بالنسبة اليها — بين كتفيها ... وقال :

— لننفصل ، فيما يبدو ، أن نتقاسم يا اماه !

— صدقت يا أبتاه ، صدقت !

وتشاورا هكذا مدة طويلة .. كان حديثهما ، في البدء ، لطيفا محببا ، ولكن سرعان ما شرع جدي ينبش الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد جدتي باصبعه .

قال شاكيا في همسة عالية :

— انني أعرفك تماما ! فأنت تعنين بهما اكثر مما تعنين بي . ولكن ميخائيلك هذا منافق كبير ، وياكوف ذاك كافر جبان ! وسيبذران كل ما أملك على سكرهما وعربدتهما — بل سيبتلعانه عن اخره !

وبحركة لا شعورية من كتفي القيت على الارض المكواة ، بحيث قعقعت متدحرجة فوق درجات الموقد ، ثم سقطت في سطل الماء الوسخ . فقفز جدي مرتاعا ، وجذبني حتى صاقبته ، وحملق في وجهي وكأنه يراني للمرة الاولى .

— من وضعك هناك ، على الموقد ؟ اهي امك ؟
— لقد تسلقت لوحدي ...
— أنت تكذب .
— لا ! انا لا أكذب . لقد كنت خائفا .
فدفعني عنه بلطف ، وقد ضربني براحة يده على جبيني :

ـــ انك مثال ابيك ! اخرج !

وكان سروري عظيما بالافلات من ذلك المطبخ ...

كنت أشعر بوضوح أن جدي لا ينقطع عن ملاحقتي بعينيه الخضراوين الحادتين ، فكنت أرهبه ... وما برحت اذكر حتى الان ذلك الخوف الغريزي الذي يدفعني دوما الى الاختباء من هاتين العينين المحرقتين . ورحت أعتقد انه وضيع النفس شرير ، فهو ينادي الجميع بلهجة تهجم واستهزاء ، ويسر باغاظة الناس واستفزازهم دوما .

ـــ تفو ! يا لهم من قوم !

كان مولعا بهذه الكلمات ، يلفظها متعمدا مطّ الفاء والـــواو ، الامر الذي كان يرسل دوما قشعريرة باردة يائسة .

كان جدي ساعة الراحة ، وقت تناول الشاي مساء ، اذ يغادر وخالاي والعمال المعمل ، ويدخلون المطبخ لاهثين متعبـــين ، وقـــد تلطخت أيديهـــم بالصباغات ، وترطبت بالحوامض المختلفة ، وعقدت شعورهم بعصابات الى الوراء ، فاصبحوا يشبهون ـــ في كل شيء ـــ تلك الايقونات المظلمة الموضوعة في احدى زوايا المطبخ ـــ خلال هذه الساعة الخطـــرة ، كان الجـــد يجلسني قبالته ، تاركا أحفاده الاخرين مغيظين ، في كثير من الغيرة ، من توجهه الي اكثر منه اليهـــم .

كان في مظهره العام شيء لائق جدا ، لطيف ، حتى لتقول انه منحوت نحتا دقيقا رائعا . وبالرغم من ان معطفه الحريري المطرز عتيق مهترىء ، وسترته القطنية مجعلكة ، وسراويله مرقعة عند الركبتـــين ، فقد كان يبدو انظف من ولديه وافضل لباسا واحسن منظرا ، بالرغم من معطفيهما الجديدين واكمامهما المنشاة ، واربطة عنقهما الحريرية .

ولقد ارغمني ، ولما يمض عدة ايام على وصولنا ، على حفظ صلواتي . كان بقية الصبيان اكبر مني سنا ، يتعلمون جميعا القراءة والكتابة عن شماس كاتدرائية اوسبينسكي ، الكنيسة التي نستطيع ان نطل على قببهـــا الذهبية الرائعة من خلال نوافذ منزلنـــا .

وقد اسند الى الخالة ناتاليا امر تعليمي هذه الصلوات ، وهـــي امرأة رزينة وجلة ، لها وجه غرير ، وعينان ساطعتان شفافتان حتى ليمكنك ، اذا ما نظرت اليهما ، ان تستشف كل ما يجول في مؤخرة راسها من افكار .

كنت أحب ان اشخص طويلا اليها دون ان يطرف لي جفن ، فيزعجهـــا هذا مني ، فتروح تضيق عينيها ، وتسبل اهدابها ، وتلوي راسهـــا لتتفادى نظراتي ، وتسأل في صوت اشبه ما يكون بالهمس اللطيف :

ــ قل معي هذا ، أرجوك : أبانا الذي ...

ــ وماذا تعني كلمة « الذي » ؟

فكانت تجيب ، وهي تسترق النظر فيما يحتف بنا :

ــ لا تسأل ! ان السؤال يزيد الامور سوءا . يكفيك ان تردد بعدي : أبانا ... هيــا !...

ولم أكن استطع أن افهم لم يزيد السؤال الامور سوءا .. ان كلمـــة « الذي » تحمل معنى خفيا ، فكنت اتعمد تشويهها :

ــ الزي ، اللاذي ....

ولكن الخالة البيضاوية الوجه التي تبدو وكأنها تذوب تدريجيا ، تصحح قولي بصبـــر :

ــ كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : أبانا الذي ...

ولكنها لم تك ، لا هي ولا كلماتها ايضا ، من البساطة في شيء بالنسبة الي . وكان ذلك يبعثني على السأم والضيق ، ويجعـــل حفظ الصلاة صعبا علـــي .

وذات يوم ، استفسر جدي عن مبلغ نشاطي فقال :

ــ حسنا ، يا الكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ اكنت تلعب ؟ اني أرى ذلك من هذه الحدبة التي تعلو جبينك . لا تكن نشيطـــا الى هذه الدرجـــة حتى تجلب على نفسك كل هذه المتاعب . ولكن ، اخبرني ، ماذا حفظت اليوم من « أبانـــا » ؟

فهمست عمتـــي :

ــ ان ذاكرته رديئة للغاية .

فضحك جدي ، ورفع حاجبيه الحمراوين :

ــ اذا كان الامر كذلك ، فيجب جلده اذن .

والتفت ناحيتي ، وسأل :

ــ ترى ، هل جلدك ابوك مرة ؟

فلم افهم ما يعني بكلامه هذا ، ولذا اعتصمت بالصمت .

واجابت امــــي :

ـــ ان مكسيم لم يضرب الطفل قط ، وكان يمنعني عن ذلك .

ـــ ولـــم ذلـــك ؟

ـــ كان يقول ان الضرب لا يعلم المرء شيئا .

فأجاب جدي ، وقد ساء خلقـــه :

ـــ لقد كان مكسيم هذا غبيا أبله ، غفر الله له .

اغاظتني كلماته ؛ فقال وقد استشعر ذلك :

ـــ فيم عبوسك ؟ ايه ، أنت ! يحسن بك ان تنتبه لنفسك ! سوف ينال ساشا جلدة صغيرة لطيفة نهار السبت بسبب ذلك الكشتبان .

قال هذا وهو يسرح باصابعه شعره الاحمر المفضض . فسألت :

ـــ كيف ستفعل ذلـــك ؟

فضحك الجميع ، بينما أجاب جـــدي :

ـــ انتظر ، وستكتشف كيف . . .

واختبأت في ركن منعزل ، وأخذت أحاول ان أتصور ذلك : ان الناس يفتقون «١» الثياب التي يريدون صبغها ، ولا ريـــب ان هذا هو ما يعنيـــه جدي . وهم يضربون الخيول ، والكـــلاب ، والقطط . وفي استراخان يضرب الجنود الفارسيين ـــ ولقد شاهدت ذلك بأم عيني ، ولكنني لم أر قط انسانا يضرب طفلا صغيرا . والحقيقة ان خالي كانا يضربان ، في كثير من الاحيان ، ولديهما على الجبين او مؤخرة الرأس ، ولم يك يبدو على الضحيتـــين أدنى اهتمام لذلك ، بل كانا يحكان نقرتيهما برهة وجيزة ثم ينسيان كل شيء .

وكنت في بعض الاحايين ، اسألهمـــا عما اذا كان ذلـــك يؤلمهما ، فكانا يجيبان بشجاعة :

ـــ انه لا يؤلم البتـــة . . .

وبلغني خبر حادث الكشتبان الشهير . فقد كان خالاي ورئيس العمال ، في الفترة الواقعة بين تناول الشاي والعشاء ، يخيطـــون سوية بعض قطع

« ١ » في الروسية يعبرون عن الجلد وفتق الثياب بكلمة واحدة .

الثياب المصبوغة ويجعلون منها قطعة واحدة ، ثم يلصقون بها رقعة معدنية للدلالة عليها . واراد الخال ميخائيل ان يداعب جريجوري الـذي كان نصف اعمى تقريبا ، فعلم ابن اخيه البالغ من العمر تسع سنوات ان يسخن كشتبان العامل على الشمعة . فحمل ساشا الكشتبان فوق اللهـب بملقط النار حتى أصبح احمر اللون ، ثم وضعه في متناول يد جريجوري واسرع يختبىء وراء الموقـد .

ولكن جدي دخل في تلك اللحظة ، وتأهب للعمـل مباشرة ، فاذا بـه يدخل اصبعه في الكشتبان الملتهب .

وانا اذكر انني سعيت راكضا الى المطبخ لاعرف منشأ الضجة ، وسبب تلك الصيحة الرهيبة التي اطلقها جدي من فمه ، فوجدته يقفز بشكل يجبر على الضحك ، ممسكا اذنه بيده المحترقة ، وهو يزعق :

ـــ من فعل ذلك ؟ اجيبوا ، ايها الوحوش !

كان ميخائيل ، في تلك الاثناء ، وقد انحنى فوق الطاولة يدعك الكشتبان عليها باصبعه ، وينفخ عليه . اما جريجوري فاستمر يخيط ثابـت الجأش ، تترجح الاخيلة على رأسه الاصلع وتتراقص ... واتانا ياكوف يركض ، ثم توارى خلف الموقد ليخفي ضحكاته ، في حين تناولت جدتي رأسا من البطاطا النيئة واسرعت تقشره .

وعلى حين فجأة ، قال الخال ميخائيل :

ـــ انها فعل ساشا ... ابن ياكوف ...

فصاح ياكوف ، وقد وثب من وراء الموقد :

ـــ ذلك كذب ! ذلك هراء !

وشرع ابنه يصيح من احدى زوايا المطبخ متباكيا :

ـــ لا تصدقه ، يا ابتاه ! فهو الذي دفعني الى ذلك .

وابتدا الخصام بين خاليّ ... وما اسرع ما استرد جدي هدوءه ، فوضع لزقة البطاطا على اصبعه ، ثم خرج وقد اصطحبنـي معـه دون ان يتفـوه بكلمـة مـا .

قر رأي الجميع ان الذنب يقع على عاتق الخال ميخائيـل . وكان من الطبيعي ان استفسر ، على مائدة الشاي ، ان كان سيضرب او يجلد ..

فتمتم جدي ، وهو يرنو الي :

يجب ان يجلد طبعـــا !

فضرب الخال ميخائيل الطاولة بيده ، وفح في

ــ اذا لم تؤدبي جروك اللعين هذا ، يا فارة جسده !

فاجابت والدتـــي :

ــ جرب اذن ان ترفع اصبعك عليـــه !...

فران الصمت على الجميع ...

كانت لها مهارة فائقة ، عندما ننطق ببعض الكلمات المختصرة ، لنهزم ايا كان وتخمده تماما . وكنت اشعر بوضوح ان الجميـــع يهابون والدتي ، حتى جدي كان يتوجه اليها بالحديث في نغمة مختلفة ــ نغمـــة اهدأ من تلك التي كان يخاطب الاخرين بها . وكان ذلك يسرني كل السرور ...

كنت اتباهى على ابني خا لـــيّ :

ــ ان والدتي تفوق الجميع قـــوة !

فلم ينكرا ذلك أبدا ...

ولكن حوادث السبت التالي زعزعت ايماني بوالدتي ...

• • •

ذلك انني تصرفت بدوري ، قبل نهـــار السبت ، بصورة تسبـــب لي المشاكـــل ...

كان الاسلوب الذي يتبعه الكبار في تبديـــل لون الثياب يدهشني ويثير اهتمامي . فهم يأخذون شيئا أصفر اللون ، ويغطسونه في ماء اسود ، فيخرج ازرق اللون يضرب الى السواد : « نيليا » . أو هم يغسلـــون شيئا أشهب اللون في ماء احمر ، فيخرج أسود اللون يضرب الى الحمـــرة : « خمريا » . كل ذلك بسيط جدا ، فيما يبدو . ولكن غير مفهوم على الاطلاق .

وقد ساورتني رغبة خفية في أن أجـــرب بنفسي ذلك العمـــل فهمست

برغبتي هذه في اذن ساشا بن ياكوف ، وهو صبي مهذب ، وقور ، يتعقب العمال دوما ليعرض عليهم خدماته ، فيشكره الجميع ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعداته .

كان العجوز يقول : وهو يتطلع باحتقار الى الصبي :

ــ تفو ! يا للمنافق الصغير !

كان ساشا يميل الى السواد ، رقيق الجسم ، ذا عينين منتفختين تماثلان عيني السرطان . وهو يتحدث بصوت هادىء سريع النبرات حتى لبزدرد نصف كلماته ، ويضرو هنا وهناك خلسة وبصورة غريبة ، فكأنه يعد حطة للهرب والاختفاء . وغالبا ما كانت حدقتاه البنيتان تجمدان فلا تأتيان بحركة البتة ، فاذا ما أغاظه شيء تبدلت حالهما ، وراحتا ترتجفان ا رتجافا، يصاحبهما في ذلك بياض العين كله .

وبالرغم من ذلك فلم أكن أحبه او أميل اليه ابدا . كنت أضمر محبة اكبر لابن ميخائيل ــ واسمه ساشا ايضا ــ رغم ما يكتنفه من غموض، وما يبدو عليه من حماقة ... كان هادىء الطبع ، له عينا والدته الحزينتان وابتسامتها الفاتنة . وكانت أسنانه بشعة كل البشاعة ــ اذ تندفع خارج فمه ، وتنحني بشكل صفين مضاعفين متراكبين في فكه الاعلى . وكان اصلاحها شغله الدائم ، فأصابعه أبدا في فمه يحاول أن يخلع بها اسنان الصف الخلفي . وكان يسمح ، متلطفا طائعا ، لاي انسان يرغب في تفحصها ان يفعل ذلك . ولكنني لم أقتنع على شيء اخر فيه يثير الاهتمام . كان يبقى على الغالب ، منعزلا في ذلك المنزل الصاخب يقبع وحيدا في احدى الزوايا المظلمة الدامسة ، أو يقضي امسياته قرب النافذة ، وكان يبهجني ان اصاحبه تدثرا بالصمت اقعد الى جانبه قرب النافذة واظل ساكنا مدة ساعة من الزمن او يزيد ، أراقب الغربان تحط وتحلق فوق كاتدرائية اوسبينسكي التي تنتصب قببها الذهبية الرائعة في بروز جميل تواجه فيه الاشعة الحمراء التي يبعثها مغيب الشمس . كانت الغربان تحلق في اغالي الجو ، ثم تندفع هابطة .. وعلى حين غرة ، تنشر اجنحتها السوداوية في السماء المريضة الحرة ، ومن ثم تختفي مخلفة وراءها فراغا هائلا ميتا ، فاذا بك تفقد كل رغبة في الكلام ، وانت تشخص الى هذه الامور تجري امام عينيك ، لان صدرك يمتلىء عندها بسرور مؤلم .

اما ساشا ، ابن الخال باكوف ، فباستطاعته ان يتحدث ما شئت عن جميع الامور مثل رجل بالغ وبصورة مثيرة حقا .. وعندما عرف رغبتي في تعلم مهنة الصباغ نصحني باللجوء ، في تجربتي الاولى ، الى غطاء المائدة الكبير الخاص بأيام الاحاد والاعياد ، فآخذه من موضعه في الخزانة ، واصبغه باللون الازرق القاتم .

قال لي القاتم

وقال لي جادا :

ـ ان الاشياء البيضاء تتقبل الالوان اكثر من اي شيء اخر ، وانا واثق من ذلك .

فاستوليت على الغطاء الثقيل الثمين ، وركضت به حتى الساحة ... ولم اكد اغطس اطرافه في حوض « النيل » حتى رمى تسيجانوك بنفسه علي ، واختطف الغطاء من بين يدي ، وعصره بيديه الكبيرتين ، وصاح بابن خالي الذي كان يراقب ذلك من المظلة :

ـ اركض وادع جدتك !

والتفت ناحيتي ، وحك رأسه العريض منذرا بالشر . قال :

ـ ستنال نصيبك من دون ريب .

واسرعت جدتي الينا ، وراحت تلهث عندما رأت فداحة ما ارتكبت ، حتى انها سكبت بعض الدموع وهي تعنفني بطريقتها المضحكة .

ـ آه منك ايها اللعين ، آه منك ومن اذنيك الشبيهتين باذني الفيل . فليرفعك الشيطان ويرميك ارضا . لا بد ان تتبد وتجلد ...

وعندها شرعت تتوسل الى تسيجانوك :

ـ لا تخبر جده بهذا ، يا فانيا ! سأخبئه ، ولعل الامور تجري خيرا .. فاجاب فانيا مغتاظا ، وهو يمسح يده الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

ـ لا تقلقي من جهتي ، فهذا ليس من شأني ! ولكن يحسن بك ان تنتبهي لما سيثرثر به ساشا .

فقالت ، وهي تنطلق بي ناحية البيت :

ــ سأعطيه بعض الدراهم ليسد بها فمه .

وفي ذلك السبت ، قبل صلاة الغروب ، صحبني أحدهم ــ ولم اعد اذكر هويته الى المطبخ .. كانت الظلمة والسكون يخيمان هناك .. واني لاذكر ان الابواب المفضية الى المشى ، وابواب الغرف الاخرى كانت جميعا مرتجة باحكام ، بحيث توارى مساء الخريف ، اشهب اللون كثير الضباب ، خلف النوافذ التي كان المطر يسامرها هامسا وهو يتساقط عليها ، وكان تسيجانوك يجلس على دكة صغيرة قبالة الموقد الاسود الكبير ، وهو اسوان على غير عادته . وقد وقف جدي قرب برميل قائم في احدى الزوايا ، يسحب من الماء عدة قضبان طويلة مقطوعة من احدى اشجار البتولا ، ومن ثم قاسها ، وجمعها في حزمة واحدة ، وضربها في الهواء ببأس كبير ... وكانت جدتي تستنشق السعوط في مكان شبه مغمور بالعتمة ، وهي تهمهم :

ــ انه مبتهج ، هذا الظالم الوحش !

وكان ساشا ، ابن الخال ياكوف ، متراكما على احد المقاعد في منتصف المطبخ ، يفرك عينيه باصابعه ، ويعول كأحد المستعطين الشيوخ :

ــ سامحني ، لاجل المسيح ...

ووقف ساشا ، ابن الخال ميخائيل ، واخته الصغيرة متلاصقين وراء الطاولة ، جامدين كتمثالين قدا من الحجر الصلد .

وأجاب جدي : وهو يمسح على كفه قضيبا طويلا مبللا :

ــ سأصفح عنك بعد ان تنال نصيبك كاملا . حسنا ، اخلع سروالك .

كان يتكلم بهدوء ، ولم تستطع نغمة صوته ، ولا حركات الصبي المتربع على الكرسي ، ولا ضربات قدم جدتي ، تدنيس حرمة الصمت المسيطر على ذلك المطبخ الظليل الجاثم تحت ذلك السقف المنخفض المطلي بالهباب .

ونهض ساشا ، وفك سرواله ، وانزله حتى ركبتيه ، وجثا معتمدا على الدكة ، وقد تقوس بكامل جسده . كان النظر اليه يحز في النفس حتى ان قدمي طفقتا ترتجفان بشدة . ولكن المشهد ازداد ايلاما عندما اضطجع بضعف ، ووجهه الى الدكة ، واخذ فانيا يقيده بمنشفة طويلة مر بها تحت الابطين وحول العنق . ثم انحنى ، وامسك به من عقبيه . . .

صاح جدي :

الكسي ! تعال هنا ! حسنا ، مع من اتكلم ؟ اقترب وانظر ما عنيته بالجلد ؟ انظر مليا ! واحد . . .

وبحركة خفيفة من ذراعه رفع القضيب واهوى به على جسد ساشا العاري . . . فأخذ الصبي يعول وينوح .

قال الجد :

ــ لا تكذب ! . . . فتلك لم تؤذك ! ولكن هذه ستفعل !

وضرب ضربة قوية رسمت على جلد الصبي ، بسرعة غريبة ، توردا ظاهرا . ثم خلفت عليه تورما احمر اللون قانيا . فانطلق من ابن خالي عويل طويل متتابع . . .

وحرك الجد ذراعه حركة موزونة من الاعلى الى الاسفل ، وسأل :

ــ اما احببتها ؟ اما وافقت مزاجك ؟ هذا ليس بكشتبان ؟

كان يهب في صدري ، كلما رفع ذراعه ، شيء مجهول يصاحب حركته، واىان ما ضرب بيده كنت كمن يتلقى تلك الضربات منه .

وشرع ساشا ينتحب بصوت عال ، حاد ، يبعث الالم في قلب السامع اليه :

ــ لن افعل ذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطاء الطاولة ؟ فانا الذي اخبر . . .

ــ وشيت ؟ ان وشايتك لن تشفع لك او تخفف ذنبك ! ان للواشي السوط الاول ، وهذه ايضا لك بسبب الغطاء !

فارتمت جدتي علي ، واحتضنتني بين ذراعيها :

ــ انني لن اعطيك الكسي ابدا ، لن أعطيك ... لن أدعك تفعل ذلك ، ايها الوحش !

وطفقت تضرب الباب ، وتصيح :

ــ فارفارا ! فارفارا !

فهجم عليها جدي ، ورماها على الارض ، واختطفني ، ثم حملني حتى الدكة ... كنت اجاهد جهاد اليائس لافلت من بين ذراعيه ، اشد له لحيته الحمراء ، واعض له اصبعه . فشرع يزأر ويشدد الضغط علي ، ثم رمى بي اخيرا على الدكة فاصطدم وجهي بعنف شديد . وما زلت أذكر جيدا صياحه الوحشي :

ــ اربطه ! ساقتله !

وكذلك اذكر وجه امي الابيض ، وعينيها الكبيرتين ... تركض وراء الدكة وامامها ، وهي تحشرج :

ــ كفى ، يا ابتاه ! اتركه ، رده الي !

وظل جدي يضربني حتى فقدت الوعي . وبقيت ، بعد ذلك ، عدة أيام اعاني المرض ، وقد مددوني على صدري في سرير دافىء عريض ، في غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة ، يضيء في أرجائها نور قنديل أحمر باهت يحترق على الدوام في زاوية الايقونات .

كانت أيام مرضي احدى المراحل الهامة الرئيسية في حياتي . وكنت خلال تلك الايام ، وكأني انمو سريعا واتحول من حال الى حال جديد ــ ومنذ ذلك اليوم ، ظهر عندي ذلك الانتباه القلق العميق نحو المخلوقات البشرية ، فكأنما الجلد قد تمزق عن قلبي ، فاصبح حساسا بصورة غير مألوفة لا تكاد تصدق حيال الامتهانات والالام الانسانية التي اعانيها انا او يعانيها سواي من البشر .

وقد فجعت ، بادىء الامر ، بذلك الشجار الذي نشب بين امي وجدتي ... كانت هذه الجدة الكبيرة السوداء ، في تلك الغرفة الصغيرة ، تنقض

على امي وتحصرها في زاوية الايقونات ، وهي تغمغم :

ــ لم لم تختطفيه بعيدا ؟ قولــي !

ــ كنت خائفــة !

ــ مخلوقة كبيرة مثلك تخاف ! يجب ان تخجلي ، يا فارفارا ! انا لــم اخف بالرغم من كبر سني ! ذلك مخجل حقــا !

ــ انك لا تحبينه ! ولا تحملين عطفا لذلك اليتيم الصغير المسكين !

ــ انني يتيمة انا الاخرى ــ لقد كنت وسأبقى يتيمة طوال حياتي !... قالت والدتي هذا بصوت مرتفع ، حزين الرنة ..

وحينئذ شرعتا تبكيان ، وقد جلستا على الصندوق بالقرب من الزاوية.

قالت والدتــي :

ــ لولا الكسي لهربت بعيدا ! الى مكان ناء حيثما كان ، فأنا لا أستطيع العيش في هذا الجحيم ! انا لا أقدر ، يا اماه ! وليس لدي الطاقة الكافية !

فهمست جدتــي :

ــ آه يا ولدي ، يا فلذة كبدي !

استنتجت من ذلــك ان امي ليســت على شيء من القــوة . فهي ، كالاخرين ، تخاف جدي وترهبه ... وانا مسؤول عــن بقائها في ذلك المنزل حيث لا تستطيع للحياة تحملا . ما اقسى ذلك ! وسرعــان ما اختفت والدتي بعد زمن . اخبروني انها مضت تزور بعض الامكنة ، ولكننــي لم أعرف قط اين ذهبــت ...

وذات يوم جاءني جدي ... حدث ذلك فجاة ، فكأنه سقط علي مــن السقف ... جلس على حافة السرير ، وراح يداعب راسي باصابعه الباردة كالثلــج ..

ــ صباح الخير ، ايها الشاب الصغير ! هيا واجب على سؤالي ــ لا

تحقد علي ــ حسنا ، كيف حالـك ؟

فأحسست رغبة في ان ارفسه . ولكن الحركـة كانت تؤلمنـي كثيرا . جلس الى جانبي ، يبدو لي شعره اكثر احمرارا منـه في اي وقـت مضى ، وهو لا يفتأ يهز راسه بشكل متعب ، في حين علقت عيناه اللامعتان بالجدران ، فكأنهما تبحثان فيها عن شيء ما . واخرج من جيبـه كعكة مـن الزنجبيل ، وقضيبين من سكر النبات ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، ووضع ذلك كله على المخدة بالقرب من انفـي :

ــ انظر ! لقد حملت اليك بعض الهدايا !

ثم انحنى وقبلني في جبيني ... وراح يتحدث وهـو يضرب بلطف على جبهتي ، من آن لآخر ، باصبعه الصغيرة الممتلئة ، الملطخة باللـون الاصفر الفاقع ، وخاصة حول الاظافر المعوجة الشبيهة بمخالب الطيور :

ــ لقد ضربتك اكثر مما تستأهل ذلك اليوم ، يا صغيري . وانا اعترف بذلك . لقد فقدت صوابي . لقد كنت مجنونا . وانت ضربتني ، وعضضتني ، و ... حسنا ، لقد ثارت ثائرتي .. ومن حسن حظك ، على اية حال ، انك نلت علاوة هذه المرة ــ وسأخصمها من حسابك في المرات القادمة . يجب ان تذكر فقط شيئا واحدا ــ ان ضربك احد من ذويك فهو لا يقصد اهانتك ، بل تربيتك ... وليكن هذا درسا مفيدا لك ! ولكـن ، اياك ان تـدع الاخرين يلمسونك بسوء ــ ذلك مجاز لاهلك فقط ــ فهم لا يحاسبون عليـه ! اتظن انني لم انل نصيبي في صغري ؟ لست تستطيع ان تتصور ، في اكثر احلامك رداءة ، كيف كانوا يضربونني ، يا البوشا ! كانوا يضربونني بوحشية لو كان الله شاهداً عليها لبكى ... وماذا كانت نتيجة ذلك ؟ انظر الي الان فقط ــ انا ، اليتيم ، ابن مستعطية عجوز ــ اراس الان معملا كاملا ، وامر الناس المحيطين بـي .

واقترب مني بجسده النحيل المحكم البنـاء ، وراح يروي لـي قصة طفولته ، وكلماته الثقيلة تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بمهارة فائقـة ودون صعوبة على الاطلاق .

كانت عيناه الخضراوان تشعان ، وشعره يلتمع كالذهــب ، وصوتـــه يزداد حدة ، وهو ينفخ في وجهـــي :

ــ لقد جئت الى هنا على ظهر مركب بخاري . فالبخـــار ، اذن ، هو الذي حملك حتى هذا المكان . ولكننـــي عندما كنت صغـــيرا ، كانت قـــواي وحدها تصارع أمواج الفولجا ، وهي تجر العوامات الخشبية . كانت العوامة تنزلق على الماء ، اما انا فاسير على الضفة ، حافي الاقـــدام ، فوق تلـــك الحجارة المدببة والاشواك المسنونة ، منذ بزوغ الفجـــر حتى هبوط الليل ، والشمس نشع لاهبة حتى لتحس براسك قدرا من الحديد يغلـــى في داخلـــه شيء ما . وانت منحن حتى يقابل راسك قدميك ، وعظامك تصرصر ، ولكنك تدب وتدب دون توقف ، ودون ان ترى الى اين ، والعرق يتصبب في عينيك ؛ وقلبك يئن ، وشفتاك ترتجفان ــ آه ، نعم ، يا اليو شا ، انك لا تستطيع ان تتذمر ، بل تظل تسير وتسير حتى تسقط من اعيـــاء ، ووجهـــك الى الارض مدفون فيها . انك لتغتبط بذلك لانه يعني على الاقل ان قوتـــك قد تلاشت جميعا عن اخرها ، وان عليـــك ان تستريـــح بعد الان او تمـــوت من شدة الاعياء ، والامران عندك سواء،هكـــذا كنا نعيش تحـــت نظر الله ورحمـــة شفيعنا السيد المسيح ... ثلاث مرات في حياتى قست طول امنـــا الفولجا بالرغم من عرضه واتساعه : من سمبيرسك حتى ريبينسك ، ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكارييف ، وهي تساوي مسافات تزيد عن الوف الفراسخ . وفى السنة الرابعة فقط رقيت الى درجة بحار ، فقد أدرك الرئيس اخيرا اننى أكثر من مجرد حيوان للجر .

كان ينمو امام عينى باستمرار ، كلما قطع في حديثـــه شوطا جديدا ، مثل سحابة تتحول من مخلوق صغير الى بطل ذي قوة خارقة ــ بطل يستطيع لوحده ان يجر عوامة شهباء اللون ضد تيار النهر العظيم .

كان يقفز ، في بعض الاحيان ، عن السرير ، يمثل لي كيف كانت العوامة تتقدم بواسطة حبالهم ، وكيف كانوا يجذفون المياه ، ثم يأخذ بانشاد اغنيات غير مألوفة بصوت عميق . ويعود فيثب ، كرة اخرى ، ويجلس على السرير ، مخلوقا مدهشا يتابع الحديث في صوت يزداد عمقا واقناعا حينا بعد حين :

ورغما عن ذلك كله ، يا الكسي ، كنا نستريح في احدى ليالي الصيف في ريجولي ، ونشعل نارا تؤرثها الاخشاب عند سفح احدى التلال الخضراء ــ

اوه ، لقد كانت تلك أياما ممتعة حقا ، يــا الكسي ! فهذا الحساء يغلــي في قدره ، وهؤلاء بعض المراكبيين يترنمون بأغنية حماسيــة يخففون بها عـــن قلوبهم بعض العناء ، فنشاركهم بها بدورنا ـــ اوه ، كــان الغناء يحفز كــل جارحة فينا ، ويدفعنا للاستزادة منه ، والعب من منهلــه . حتى يخيل اليك ان الفولجا نفسه يضاعف من شدة جريانه ، مثــل حصان غاضب يزمجــر ويهاجم بعنف عنان السماء ! وعندها كانت متاعبنــا تضمحل وتتلاشى كمــا يتلاشى الغبار امام الريح ! وكنا ننسى في غنائنا ، ذلــك الحساء حتى يفور وينصب على النار . فنلتفت الى الطاهي ، نصب علــى راسه ثورة حامية الوطيس :

« لك ان تتمتع باغنيتك ، ولكن اياك ان تنسى وظيفتك ! » .

ولقد جاءوا الى الباب يطلبون جدي عدة مرات ، فكنــت اتوسل اليه في كل مــرة :

ـــ ابق لحظة اخرى !

فيضحك ، ويلوح بذراعيه ، ويصيح :

ـــ انتظروا ! هناك ...

واستمر يسرد لي حكاياته حتى المساء . استنتجت عندما ودعني ومضى ان جدي لم يكن مخيفا ولا شريرا .

كان الالم يعصر قلبي بقسوة كلما تذكرت انــه هو الذي ضربني ذلــك اليوم بكل تلك الوحشية والقسوة ، فاجــرب ان اتناسى تلــك الحقيقة دون جــدوى .

وفتحت زيارات جدي الباب على مصراعيه لكل طارق ، فكــان أحدهم يقبع على سريري منذ الصباح الباكر حتى هبوط الليــل ، يحاول تسليتــي بطريقة ما . واني لاذكر ان تلك المحاولات لم تكن تتكلل بالنجاح دوما .

وكانت جدتي تعود اكثر مــن اي شخص اخر ، بــل كانت تقاسمنــي الفراش دائما . ولكن الشخص الذي ترك الاثر الاكبر في ذهني هو تسيجانوك

من دون ادنى ريب . جاءني ذات مساء شابا وافي القامة ، عريض المنكبين، ذا رأس كبير يفرشه شعر مجعد اسود اللون فيغطيه ، وهو يرتدي ثياب نهار الاحد المؤلفة من قميص حريري فاتح اللون ، وسروال عريض من المخمل ، وحذاء يصرصر عند كل خطوة ، ويتجعد عند العقب كآلة الاكورديون . وكان شعره يلمع ، وعيناه المنحرفتان تشعان جذلتين تحت حاجبيــه السوداوين ، واسنانه البيض تبرق من تحت الخطوط الضيقة لشاربيه الفتيــين ، وقميصه يتوهج وهو يعكس بعذوبة الضوء الاحمر الذي يبعثه قنديل الايقونة .

وسحب كم قميصه ليكشف لي عن جروح حمر صغيرة في ذراعه ، وقال:

ــ انظر يا صاحبي ، اترى مبلغ تورمه ! ولكنه كان اسوأ من قبل ، ثم اندمل شيئا فشيئا ... لقد ادركت ان الغضب افقــد جدك كل ما لديه من صواب ، فأزمع ان يضربك حتى الموت ، ولذلك وضعــت يدي اتلقى بهمــا ضربات القضيب آملا أن يتكسر ، فيضطر جدك عندها للاستعاضة عنه بآخر جديد ، معطيا بذلك لوالدتك او جدتك فرصة لاختطافــك بعيدا ... ولكن القضيب لم يتكسر ، اذ كان مبللا ومرنا للغاية . ولكني ظللــت اتلقى عنــك بعض الضربات ، وانت تستطيع ان ترى بنفسك كم كان عددها ! نعم ..

وضحك ضحكة فتانة ناعمة ... ثم اضاف ، وهو ينظر ثانية الى ذراعه المنتفــخ :

ــ لقد شعرت بالاسف من اجلك حتى انبهــرت انفاسي . وادركت ان عاقبة عمله ستكون وخيمة ، ولكنه استمر فيه وهو يؤرجح ...

ونفخ بمنخريه كالحصان ، وهز رأسه ، وراح يمثل لــي حركات جدي بطريقة صبيانية بسيطة استطاعت ان تنال ، بسرعة عجيبة ، كل عطفي ...

واخبرته انني احبه كثيرا ، فأجابني بذات تلك اللهجة البسيطة المحببة:

ــ وانا خصصتك بثمرة قلبي . ولذا تحملت ذلك الالم من اجلك ــ من اجل حبي لك . اتظن اني افعل لاي كان ؟ فليذهب باقي الناس الى الجحيم ! انا لا يهمني أمرهــم !

ثم اعطاني امثولة ، وهو يتطلع الى الباب بنظرات مسترقة . قال :

ـ عندما يجلدونك مرة اخرى فلا توتر اعضاءك ، اتسمع ؟ ان ذلك يضاعف الالم مرتين . ولكن ، اجعل جسدك يتمدد مرتاحا ، حتى يصبح طريا ناعما مثل الجلاتين . ولا تقطع نفسك ابدا . تنفس باقصى ما تستطيع من رئتيك . تذكر هذا جيدا ، ذلك افضل لك !

فسألت :

ـ وما فائدة ذلك ؟ هل سيعودون الى جلدي ؟

فاجاب نسيجانوك بهدوء :

ـ وماذا تظن ؟ بالطبع سيفعلون ! سيفعلون ذلك كثيرا .

ـ ولاي سبب ؟

ـ ان جدك سيخترع سببا لذلك ، حسنا !

ومرة اخرى راح يعلمني ، باهتمام عظيم ، ماذا يجب ان افعل :

ـ وإذا بدأك بالضرب فارتم على الارض فقط ، والزم الهدوء بحيث تستطيع ان تتمدد براحة ودون حراك . فان تابع الضرب وانت على الارض، واخذ يشد القضيب اليه حتى يسلخ عن جسدك الجلد ، فتدحرج عندئذ ناحيته ، بل ناحية القضيب ، اتسمع ؟ ان ذلك يجعل الضربات اكثر احتمالا !

وتبت في نظرة جانبية سوداء ، وقال :

وفيما يتعلق بالتعذيب فان ابي الماما يفوق الماما رجال الشرطة . اذ يمكنك أن تصنع زوجا من القفازات بما انسلخ عني من جلد .

ونظرت الى وجهه الجذلان ، فتذكرت اقاصيص جدتي عن الامير ايفان، وايكفانوشكا الاحمق ...

٣

اتضح لي ، بعد ان اخذت صحتـــي بالتحسن ، ان تسيجانوك يشغل مركزا ممتازا بين سكان منزلنا ، فجدي لا يصيح في وجهه بخشونة وكثرة كما يفعل مع ابنائه ، بل يضيق عينيه ويحك راسه عندما يتحدث عنه في غيابه :

ـــ ان ايدي ايفان مصنوعتان من الذهب ، اخذه الشيطان ! سيكبر مثل الجبل ! تذكروا ما اقول : هذا الذي يعيش بيننـــا ليس بالانسان الوضيع ، ولسوف يشق لنفسه دربا ...

كانت علاقات خاليّ مع تسيجانـــوك حسنـــة ايضا ، فهما لا يحـــاولان التلاعب عليه ابدا كما يفعلان مع المعلم جريجوري . كانا يستنبطان ، في كل مساء تقريبا ، لعبة دنيئة ضد هذا الاخير ـــ فيسخنان مقابض مقصاته ، او يثبتان في مقعده مسمارا راسه في الهواء ، او يقدمـــان اليه اقمشة مختلفـــة الالوان فيخيطها لقصر بصره ـــ ببعضهـــا في قطعـــة واحدة دون ان ينتبـــه لالوانها ، مما يؤدي الى خلاف عنيف بينه وبين جدي .

وحدث ذات مساء ، بعد العشاء ، ان مضى جريجوري وغفا على الدكة القائمة في المطبخ ، فصبغا وجهه بالقرمز . وبقي بعد ذلك فترة طويلة اشبه بالمهرجين ، يتدلى انفه الاحمر الطويل كاللسان بين قرصي نظارته الاسودين اللذين يسطعان ببلادة فوق لحيته الشهباء .

كان خالاي لا يفرغان من ابتكار امثال تلك الالاعيـــب ، وجريجـــوري يتحمل ذلك صاغرا دون ان ينبس بحرف واحد ، بل يجمجم بينه وبين نفسه، ويحترس من التقاط المقصات ، او الملاقط ، او الكشتبان ، أو أي شيء حديدي اخر ، الا بعد ان يلمسها بأصابعه المبللة بلعابـــه . وامست هذه عـــادة لا تفارقه ، حتى اضحى يبلل اصابعه باللعاب حين يجلس الى مائدة الطعام ،

وقبل ان يلمس سكينا او شوكة ، فيبعث ذلك منه سرورا لا حدود له في قلب الاطفـــال .

كانت تعلو وجهه العريض موجة من التغضن عندمـــا يؤذيه شيء ما ، ثم تتسلق بشكل غريب ، حتى تصل الى جبهته ، فترفع حاجبيـــه ، ومن ثم تختفي في احدى زوايا رأسه الاصلع .

ولست أدري رأي جدي في لهو ولديه ، اما جدتي فكانــت تهز قبضتها في وجهيهما ، وتهمهم :

ــ يا لكما من شياطين لا يخجلان ، حقاانكما لعفريتان . . .

وفي غياب تسيجانوك ، كان خالاي يتحدثان عنه بخبــث واستهزاء ، يذمان اعماله ، ويسميانه لصا وخاملا .

سألت جدتي مرة عن سبب ذلك ، فأجابت :

ــ ذلك انكلامنهمايرغب في أن يشتغل فانيا لحسابه حينما يفتتح معمله الخاص ، فيصغر في قدره امام الاخر . وكل منهما اخبث من اخيه واكذب . ولكنهما خائفان ايضا من ان بفضل فانيا البقـــاء مـــع جدك على الذهـــاب معهما ، فقد يخطر لجدك مشاريع جديدة ، ان يفتتـــح مثلا معمـــلا خاصا لفانيا . وهذا مما يسيء الى الخالين ، افهمت ؟

وضحكـــت بهـــدوء :

ــ ولكن الله نفسه يهزأ بهما . ويلاحـــظ جدك دهاءهما ، فيغيظهمـــا بقوله « سأدفع عن فانيا بدل الجندية ، وهكذا لن يأخذوه الى الجيش ، فأنا لا أستطيع الاستغناء عنــــه » ، والان ، أفـــلا يكفي هـــذا ليفقدهما مـــا في راسيهما من عقل ؟ ومع ذلك ، فهما لا يريدان هذا ، ويعز عليهما صرف المال لان البدل يتطلب كمية كبيرة منــــه .

مرة ثانية ، عدت اعيش مع جدتي ، تماما كما عشنا على ظهر المركب، فتروح تقص علي ــ كل مساء قبل أن أمضي الى النوم ــ اقاصيص الجن ، أو قصصا من حياتها الخاصة لا تقل عن تلك جمالا وروعة . فاذا تحدثت عن « قضايا العائلة العملية » ، وعن تقسيم أملاك جدي ، أو عـــن عزمه على شراء منزل جديد خاص به ، فقد كان يشوب لهجتها شيء كثير من السخرية واللامبالاة ، فكأنها مجرد جارة لا شأن لها بتلك الامور ، وليست ثانية العائلة تقدما في السن .

وقد اخبرتني أن تسيجانوك ليس الا لقيطا ... فقد وجدوه ، ذات ليلة ماطرة من مطلع الربيع ، على دكة قريبة من بوابة منزلنا .

قالت ، وقد بدت عليها علائم التفكير والغموض :

ــ كان مضطجعا هناك ، وقد لف بحزمة من القماش . يترقف من البرد حتى ليعجز عن الصياح والبكاء .

ــ لم يتخلى الناس عن اولادهم هكذا ؟

ــ وقتما تجد الام ان الحليب والطعام ينقصانها لتغذي رضيعها بهما ، تفتش عن بيت ولد فيه طفل اخر ومات من توه ، فتحمل وليدها اليه وتتركه هنـــاك .

وبعد هنيهة صمت قضتها في تمشيط شعرها تابعـــت ، وهي تتطلـــع ناحيـــة السقف :

ــ والفقر اساس ذلك كله ، يا اليوشا ! ان بعض الناس لعلى درجة من الفقر لا يمكن وصفها . ومن العار عندهم ان تضع فتاة غير متزوجة .. وقد اراد جدك ان يحمل فانيا الى الشرطة ، ولكنني منعته عن ذلك وقلت : « فلنحتفظ به ... ان الله ارسله لنا عوضا عن ابنائنا الذين توفوا ... » . لقد انجبت لهذا العالم ثماني عشرة نفسا . وكانوا لو بقـــوا على قيد الحياة يملؤون شارعا كاملا ــ ثمانية عشر منزلا ! اليس كذلك ؟ لقد زوجونـــي ولما ابلغ من العمر اربعة عشر ربيعا ، واصبحت اما قبل الخامسة عشرة . ولكن الله احب نسلي هذا ــ فصار يدعوهم اليـــه واحدا تلو الاخـــر ، ليجعلهم ملائكة له في السماء . وان ذلك ليؤلمني ويشقيني ، ولكنه يفرحني في الوقت نفســـه ...

كانت تشبه ــ اذ تجلس على حافة السرير ، وقد ارتد ت قميص النوم، يجللها شعرها الاسود ، ووجهها الضخم الاشعث ــ دبة جلبهـــا لنا ، منذ عهد قريب ، فـــلاح طويل اللحية من غابات سيرجاش .

وقهقهت ، وهي ترسم اشارة الصليب فوق صدرهـــا الابيض ، وتهتز بكليتهـــا :

ــ لقد اخذ افضلهم جميعا ، ولم يترك لي الا اشرارهم . ولـــذا كنت سعيدة لحصولي على فانيا ، ولقد احببته حبا جارفا ، فانـــا اتعشق الصغار امثالك ! اخذته وعمدته ، وها هو قد عاش ، وصار انسانا رائعا . وقديما

كنت ادعوه بالخنفساء بسبب دوبه الدائم — فقد اعتــاد ان يدب على الارض وهو يدوي كالخنافس . هلا احببته يــا الكسي ، فــان له روحــا بسيطــة ساذجــة .

كنت احب ايفان ، وتمتلكني دهشة لاعجابي به ...

وفي كل سبت ، اذ يمضي الجد لاداء صلاة المساء بعــد أن ينزل العقاب بمن اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت حياة جديدة تبدأ في المطبخ ، حياة تسعدنا بشكل لا يمكن وصفه ... كان تسيجانوك يقبض على بعض الصراصير من وراء الموقد ، ثم يسرجها بخيط صغير الى مركبة من الــورق يصنعها بمهارة وسرعة فائقتين ، ثم يسوق الصراصير الاربعة غدوا ورواحــا على الطاولة التي دهنت بلون أصفر براق .

كان يصيح متهيجا ، وهو يسوقها بعصا رفيعة :

— انها ذاهبة لاحضار الاسقف ...

ثم يلزق قطعة ثانية من الورق بمؤخرة صرصار اخــر ، ويرسله وراء العربة السابقة ، وهو يقول :

— لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله لهم .

ثم يربط اقدام صرصار اخر ، بحيث يتعثر لوحده ، وهو يجــر نفسه على راسه !

ويعلن ثانيا ، وهو يفرك يديه فرحا :

— هاكم الشماس يغادر الخمارة الى صلاة المساء !

وراح يرينا الاعيب فيرانه المدربة .. جعلها تقف وتسير على قوائمهــا الخلفية وقد تدلت اذنابها الى الخلف ، واخذت اعينها تطرف بشكل مضحك . لقد كان لطيفا جدا مع فيرانه ، يحملها في عبه ، ويطعمهــا السكر من فمه ، ويقبلها ، وهو يقول في اقتناع جازم:

— ان الفأرة جار عظيم الحكمة ، وعظيم الود . ان عفريــت كل دار مغرم بالفيران وهو يتساهل جدا مع كل من يطعمها ...

كان في استطاعة تسيجانوك ان يلعب بعض الخدعات بالورق والدراهم، وان يصيح بصوت عال لا يجاريه فيه احــد من الاطفال . وفي الحقيقــة ، كان من الصعب جدا ان تميزه عنهم . وقد غلبه الاطفال ، في احدى الامسيات،

مرات عديدة متتابعات ، فاسنشاط غيظا ، واعتصره الحزن ، وغمرته الكآبه ، فقطب ما بين حاجبيه ، ثم انسحب من اللعب .. وفيما بعد اعلن شاكيا :

ــ تلك كانت مؤامرة ضدي . وانا أعرف ذلك ! انهم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . أتسمي ذلك لعبا ؟ انني أستطيع أن اغش تماما مثلما يفعلون !

كان في التاسعة عشرة من العمر ، فهو يكبرنا جميعا ولو جمعنا اعمارنا ــ نحن الاربعة ــ الى بعضها بعضا . وان ذكرى خاصة به ما تزال حية ندية في خاطري : كان جدي يذهب ، في أمسيات الاعياد ، مصطحبا الخال ميخائيل القيام بواجب الزيارة . فيحمل الخال ياكوف ، بشعره المجعد المشعث ، قيثارته الى المطبخ ، بينما تهيء جدتي الشاي وآنيته ، والفودكا والمرطبات . كنا نجد دوما ما يفيض عنا من الطعام . وكانت الفودكا تنصب من قوارير خضر ممتزجة بزهور حمر ، وتنسكب في الاقداح باتقان عجيب . وكان تسيجانوك يدور كالبلبل في ثياب الاحد . اما جريجوري فيدلف بهدوء الى مكان الاجتماع ونظارتاه تلتمعان بمزيج من النور والظلمة . وكانت مربيتنا يفجينيا ، بوجهها ذي البثور السمينة ، الاحمر كالقدر ، وعينيها الصغيرتين الخبيثتين وصوتها العميق المخفض ، بين الحضور ابدا . وفي بعض الاحايين ، كان يقدم الينا ايضا الشماس الكثيف الشعر ، وبصحبته اشخاص اخرون وجوههم قاتمة ، وابدانهم شديدة النحول .

كان كل فرد يأكل كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ويرسل من حين لاخر تأوهات عميقة . وكان الاولاد ينالون حصتهم ايضا ، وفيها كأس من بعض المشروبات اللذيذة ... وفي كل مرة كانت بهجة غريبة متوحشة تنمو تدريجا حتى تملك الجميع وتسيطر عليهم سيطرة تامة ، وكان الخال ياكوف يبض قيثارته بهيام وشغف ، فاذا فعل ذلك قال هذه الكلمات التي لا تتغير :

ــ حسنا ، سأباشر ...

وينحني على القيثارة ، وهو يصفف تجعدات شعره ، ويمد رقبته الى الامام كطير الاوز ، ويتخذ وجهه المدور المتكاسل مظهر رجل يحلم ، وتغشى عينيه الجميلتين سحابة ناعمة ، ثم يشرع بالضرب على الاوتار برقة وعذوبة ، يلعب عليها لحنا يدفعك ابدا ، بالرغم منك ، الى الوقوف على قدميك .

كانت موسيقاه تتطلب صمتا مطبقا ، فهي تندفع كساقية صغيرة رقراقة تنساب من مكان سحيق ، فتبلل الجدران والارض ، وتوقظ في القلب عاطفة حزينة مبلولة بالاسى والقلق ، فلا تستطيع ان تسمعها دون ان تحس بالاسف على نفسك ، وعلى كل مخلوق اخر حي .. وكأن يبدو ان الكبار انقلبوا اطفالا صغارا ، فيجلسون جميعا دون ان يأتوا بحركة ما ، غارقين في بحر من السكون الكئيب .

كان ساشان بن ميخائيل خاصة يصغي بانتباه مركز ، فيميل على عمه بكل جسده ، وعيناه مثبتتان في القيثارة ، وفمه مفتوح يتحدر اللعاب من زاويته ويستغرق احيانا في ذلك حتى ينزلق عن مقعده ويظل ، في مثل هذه الاحوال ، قابعا حيث سقط على اربعته ، دون ان يزاول الشخوص عينيه .

كان الجميع يحبسون انفاسهم ، يرهفون السمع الى عذوبة الموسيقى كالمسحورين ، اللهم الا السماور الذي يظل يهمهم في هدوء دون ان يقلق راحتنا على الاطلاق .

وكانت النافذتان الصغيرتان تطلان على ظلمة ليالي الخريف الداكنة في الخارج . ونادرا ما يدق أحدهم بهدوء على زجاجها ، وعلى الطاولة يشع خيطان ضيقان من لهب اصفر تبعثهما شمعتان صغيرتان ذابلتان .

ويغرق الخال ياكوف شيئا فشيئا في سبات عميق ، فيخيل اليك انه سيغفو عما قريب ، وهو يكز على اسنانه ، اللهم الا يداه وحدهما اللتان تنبضان بحياة خاصة ، فابهام يده اليمنى المقوس اخذ بالاضطراب كطير يقف على حافة هاوية سحيقة ، بينما اصابع اليد اليسرى لا تنقطع عن الصعود والهبوط على الاوتار .

وينطلق ، بعد ان يشرب جرعة او جرعتين ، ينشد بصوته الاجش اغنية طويلة ، مزعجة لا نهاية لها :

« ... ولو كان ياكوف جروا صغيرا ،
لايقظ جيرانه بنباحه ...
ضجرت وربي ... لقد مل قلبي !

●●●

وهـا هـي راهبـة الديـر تـعدو
على الدرب خائفـة من نواحـه ...
ضجرت وربي ... لقد مـل قلبـي !

●●●

وغرد ، فـي الغـاب ، طـير حنون ،
فعكـر ياكـوف حلـو صداحـه ...
ضجرت وربـي ... لقد ملّ قلبـي !

●●●

ومر فقـيران ... يبكـي الصغـير
دما سال كالسيـل فـوق جراحـه ..
ضجرت وربي ... لقد مـل قلبـي !

فلم احتمل تلك الاغنية ، بل انخرطت في البكاء عندما بلغ خالي مقطع المستعطين منها ، وانا نهب حزن لاعزاء له .

كان تسيجانوك ، كالاخرين ، يرهف اذنيه بانتباه الى الموسيقى ، وهو يجدل باصابعه شعر راسه المجعد ، ويرنو الى احدى الزوايا بثبات ، ويتنفس بصوت مسموع . وكان ، في اغلب الاحيان ، يهتف دون ما سبب ظاهر :

ـ اواه ، لو كنت املك صوتا جميلا ! اما كنت اغني ؟

فتتنهد جدتي ، وتجيب :
ـ كفاك تمزق قلبنا ، يا ياكوف ! يكفينا ما نلناه ! هلا رقصت لنا ، يا فانيـا ؟

لم يكن طلبها يستجاب دوما . ولكن الموسيقي كان يضغط احيانا على الاوتار براحة يده ، ثم يجمع قبضته ، ويلقي بحركة وحشية شيئـا خفيا لا صوت له على الارض ، ويصيح :

ـ كفى كآبة ! هب على قدميك ، على قدميك يا فانيا !
فينهض فانيا ، ويرتب هندامه ، ويمهد قميصه الاصفر ، ثم يتبختر حتى وسط الغرفة ببطء فكأنه يسير على الزجاج ، ويطلب بأدب بالغ ، وهو خجلان

من ارتباكـــه :

ـــ أسرع اللحن ، ياكوف فاسيليفيتش ، من فضلك !

فتأخذ القيثارة بتوقيع لحن صاخب سريع ، وتشرع الاعقـــاب تصاحب النغم ، والصحون تتراقص على الرفوف والمائدة ، بينما يـــدوم تسيجانوك في وسط الغرفة منتفضا كالعصفور ، يموج يديه كالاجنحة ، ويحرك قدميـــه بسرعة عظيمـــة تـــعجز العين عن متابعتهما . ثم يجلس على وركيه وهو يهتف بصوت عال ، ليعود الى الدوران كخذروف ذهبي ، يضيء كل شيء بشعاعات سندسية تلتمع وتشع من ملابس الحرير المتموجة التي يرتديها .

ويظل تسيجانوك يرقص طويلا ، وقد سهـــا عن نفسه وعن محيطـــه تماما ؛ حتى يخيل الي انه سيتابع ذلك ـــ فيما لو فتح البـــاب له ـــ ويدلف راقصا الى الشـــارع ، وخـــلال البلدة ، وهكـــذا حتى يبلـــغ بعض الاراضي البعيدة المجهولة . . .

ويصيح الخال ياكوف ، وهو يضرب الارض بقدميه مرافقا انغام قيثارته :

ـــ عظيـــم !

ويرسل من فيه صفيرا قويا ، ويزعق بهذين البيتين بصوته الثائر :

« لو لم يكن في ذهابي اتلاف حذائي في الطريق ،

لفررت من زوجي كما افر من الحريق . . . »

وتصيب الحمى الاشخاص الجالسين الى المائدة ، فيأخذون بالصيـــاح والزعيق كأنهم يطعنون بحديد محمى . ويستمر المعلم الملتحى يرافـــق النغم بضربات متتابعة على رأسه الاصلع ، وهو يتمتم في سره بشيء ما . .

واتجه مرة ناحيتي ، حتى صاقبت لحيته الناعمة كتفـــي ، وهمس في اذني وكأنه يخاطب احد الكبار :

ـــ لو كان والدك هنا ، يا الكسي مكسيموفيتش ! لكان اضاء شعلـــة صاخبة مسلية تختلف عن هذه ! لقد كان في طراوة العمر وبسمة الصبا ، اتذكـــره ؟

ـــ كـــلا !

ـــ ها ! لقد اعتاد ان يرقص وجدتك احيانا . . . انتظر . . . انتظر لحظة وستـــرى ! . .

ونهض جريجوري على قدميه ، باسق القامة ، هزيـل الجسم ، يشبه صوره احد القديسين ، ثم انحنى على جدتي ، وقال في صـوت عميق غـير مألـوف :

ــ كوني لطيفة ، يا اكولينا ايفانوفنـا ، وارقصي لنا . اتذكريـن كيف كنت ترقصين مع مكسيم سافاتيفيتش ؟ والان ، اصنعي معنا هذا المعروف !

وضحكت جدتي وقالت ، وهي تبتعـد :

ــ يا الهي ! ماذا تقوله ، يا جريجوري ايفانوفيتش ؟ اوه ! انا ! انـا أرقص ؟ انت تريد ان يسخر الناس مني ، أليس كذلك ؟

ولكن الجميع توسلوا اليها ... فانتصبت على حين غرة كما لو كانت فتاة يافعة في رونق الشباب وميعته ، واصلحت من وضع قميصها ، وقومت عمودها الفقري . ورمت شعرها الكث الى الوراء ، ثم طفقـت تدور حول المطهى ، وهي تصيـح :

ــ فليضحكوا ما شاؤوا ! تعال هنا ، يا ياكوف ! اعزف لي !

فانطرح خالي على الارض ، ومدد ساقيه ، وراح يلعـب لحنا بطيئـا عيناه نصف مغمضتين ... ووقف تسيجانوك لحظة ، ثم قفز وشرع يثب حول جدتي ، بينا راحت هي تثب صامتة فوق الارض وكأنها تسبـح في الجو ، وهي تحرك ذراعيها بطراقة بالغة ... فيرتفع حاجباهـا ، وترنو عيناهـا السوداوان الى الافق البعيد ... وصور لي انها تبعـث على السخرية ، فانفجرت ضاحكا ... ولكن جريجوري حرك اصبعه في وجهي ، في حين رمقني جميع الكبار بنظرة تنم عن السخط والغضب .

صاح جريجوري ، وهو يضحك

ــ ابتعد ، يا ايفـان !

فذهب تسيجانوك بطاعة غريبة وقبع في احدى الزوايا قريبا من الباب . وابرزت المربية يفجينيا حلقومها ، وراحت تنشد في صوت عميق رائع :

« لقد رقصوا منذ فجر النهـار
وسرعان ما هجـم الليل عدوا
وكادوا يطـيرون عبر الفضاء
فولى نهارهـم ، وانقضى ! »

وكان يلوح ان جدتي لا ترقص ، بل تحكي روايـة ما . فهي تتحـرك

ببطء وتأن ، تخطر من ناحية لاخرى ، وترنو الينا من تحت ذراعها المرفوعة، تضطرب في حركاتها ، مترددة ، وهي تتحسس طريقها بحذر واعتناء بالغين . ثم تقف لحظة وكأن شيئا قد اثار في قلبها الذعر على حين بغتــة ، فيرتعش وجهها ويقتم لونه ، لتعود ملامحها فتضيء بعد قليل بابتسامــة لطيفة نقية طاهرة ... ومن ثم تقفز ، على غير انتظار ، تفســح الطريــق لشخص لا نراه ، وتدفعه باليد بعيدا عنها ، ومن ثم تتوقف وتصغي ، مطرقة الراس ، ووجهها يشرق رويدا رويدا بابتسامة سعيدة ، كي تتفجر رقصا من جديد ، وبصورة مفاجئة وهي تدور كالعاصفة اكثر طولا وانتصابا وتناسقا منها فى اى وقت مضى ، تشع منها جاذبية متوحشة في هذه اللحظات مــن الشباب المبعوث حتى ليستحيل على المرء ان يرفع بصره عنها او يحيد ...

وكانت المربية يفجينيا ، اثناء ذلك ، تتابع ضجيجها ، كاحد الابواق :

وتبكي عليــه مدامعهـــا !
وتطرز ، طول الليالي ، الحرير
وتبذل ضعفــا اصابعهــا ؟
الــم تر فاتنــة الدار تذوي ،

واخذت جدتي مجلسها قرب السماور ، بعد ان انتهــت من الرقص ، فشكرها الجميع وهنأوها ، ولكنها احتجت بتواضع ...

قالت ، وهي تصفف شعرها المشعث :

ـــ كفى ، كفى ! انكم لم تشاهدوا في حياتكم راقصة حقيقية . كانــت هناك فتاة ـــ حيث كنت أعيش في بالاخنا ، ولقد نسيت اسمهــا وابنة من تكون ـــ لا يستطيع المرء الا أن يبكي فرحا عندما يشاهــد رقصها . فيمتلىء قلبه بهجة لمجرد النظر اليها ، ولا يعود يرغب في شيء اخر مطلقــا ! لكم كنت اغار منها ، انا الخاطئــة !

واعلنت المربية يفجينيا بحدة ، وقد اخــذت تغني شيئا عــن « الملك داود » :

ـــ ان المغنين والراقصين هم ملح الارض ...

فالتفت الخال ياكوف صوب تسيجانوك ، ووضع يده فوق كتفه ، وقال :

ـــ يجب ان تعمل راقصا في مسرح ما ، فلا ريب انك ستبعث الغبطة في قلوب الناس .

فاجاب تسيجانسوك :
ــ افضل ان اغني ، لو يمنحني الله صوتا عذبا استمر في الغناء دون انقطاع طوال عشر سنوات . وعندئذ لا أبالي بما يحــدث لي ــ حتى ولو اصبحت راهبــا !

وشرب الجميع بعض الفودكا ، وخاصة جريجوري . . .

حذرته جدتي : وهي تملأ له الكاس تلو الاخرى :

ــ انتبه يا جريجوري ، والا غدوت أعمى دون مراء .

فاجــاب :

ــ وما اهمية هذا ؟ فلن احتاج الى عيني بعد الان ما دمت قد شاهدت كل شيء في هذا العالــم .

ولم يسكر ، بل اخذ يزداد طلاقة لسان ، وهو يحدثني طوال الوقت عن والــدي :

ــ لقد كان يملك قلبا كبيرا ! نعم ! كذلك كان صديقي العزيــز مكسيم سافاتيفيتش !

فتنهدت جدتي ، ووافقت على كلامــه :

ــ آه ، نعم ، لقد كان ابنا لله . . .

فأثار ذلك كله فيّ اهتماما عظيما ابقى بي في حال من التوتر الدائم تبعث في قلبي شيئا من كآبة هادئة ، لطيفة ، غير متعبة فالكآبة والسرور يعيشان معا في قلوب الناس ، غير منفصلين ، يخلف أحدهما الاخــر برشاقة خداعة غامضــة .

وذات مرة اخذ الخال ياكوف ، ولم يكن على شيء كثير مــن السكر ، يمزق قميصه ، ويشد شعره ، وشاربــه عديم اللــون ، وانفــه وشفتــه البــارزة .

قال ، والدموع تنهمر من عينيــه :

ــ لم ، آه ، لم ؟ يجب ان تكون الحياة على هذا الشكل ؟

ولطم بيده وجنته ، وصدره ، وهو ينشج طوال الوقت :

ــ انني شرير لا نفع في ! انني نفس ضائعة !

ودمدم جريجوري :

ــ آه ! ذلك صحيــح !

فقالت جدتي ، وقد اسكرتها الفودكا قليلا ، وهي تمسك بيدي ولدها:

ـ كفى ، يا ياكوف ! ان الله العزيز ادرى منا بحاجاتنا .

كانت نفسها تطيب كلما تجرعت مزيدا من الفودكا ... وكانت عيناها السوداوان تصبان نورا دافئا على كل فرد منا ، وهي تروح وجهها المتورد بمنديلها ، وتقول في نغمة غنائية :

ـ اوه ، يا الهي ، يا الهي ! ما احلى الاشياء ! انظروا فقط الى روعة العالم !

كانت هذه الصرخة تند عن قلبها ، وكانت شعار حياتها ابدا !...

اثارت دموع خالي وبكاؤه ، وهو اللامبالي عادة ، دهشتي الى الحد الاقصى . فسألت جدتي لم يبكي ويشتم ويضرب نفسه ، فدمدمت في شيء من النفور لم يكن ابدا من طبيعتها :

ـ يبدو عليك انك تود معرفة كل شيء ! رويدك قليلا ، لم يزل الوقت باكرا جدا لتدس بأنفك في مثل هذه الامرر !

هيج ذلك فضولي ... فدخلت المعمل ، ورحت اسأل ايفان عن ذلك. ولكنه تجنب ، هو الاخر ، الاجابة على اسئلتي . وشرع يضحك بهدوء ، وهو يرنو الى المعلم بطرف عينه ، ويدفعني خارج المعمل . قال :

ـ كفى ! اطفح عني قبل ان ارمي بك في احد هذه البراميل واصبغك باللون الاخضر اللامع .

كان المعلم يقف أمام موقد واطيء عريض ، بنيت فيه ثلاثة احواض للصباغ ، يحرك محتوى احدها بعصا طويلة سوداء ، ثم يرفع بها الملابس ويراقب الماء الملون المتساقط منها . وكانت النار المتأججة تنعكس على مئزره الجلدي المتعدد الالوان الذي يشبه ، الى حد بعيد ، ثوب الكاهن الرسمي المزركش . وكانت مياه الصباغ تغرغر في الاحواض وتكركر ، بينما تنسل سحب من الدخان الحاد من خصائص الباب ، وتمتد على طول الساحة الشتائية ...

رنا جريجوري الي من تحت نظارتيه بعينين حمراوين ، ثم التفت الى ايفان ، وقال بفظاظة :

ـ الا ترى انني احتاج الى بعض الوقود ؟

وعندما خرج تسيجانوك راكضا ، جلس جريجوري على احد الاكياس

المصنوعة من خلاصة خشب الصندل ، واشار الي ، وقال :

ــ تعــال هنــا !

اجلسني على ركبتيه ، واجرى لحيته الناعمة الدافئــة على خدي ، واطلعني على اشياء لن انساها ما حييت :

ــ لقد ضرب خالك زوجته حتى قتلها . وضميــره لا يترك له فرصــة للسلام ، اتفهم ؟ حق لك ان تعرف كل شيء ــ ابق عينيك مفتوحتين ، والا هلكت بكل تأكيد .

كان كل شيء في جريجوري بسيطــا مثله في جدتــي ، ومع ذلك فهــو يرهبني ، ويبدو انه قادر على ان يستشف كل ما يعتلج في فكر الانسان وقلبه عندما يشخص اليه من تحت نظارتيه السوداوين .

وتابع حديثه قائلا بسرعــة :

ــ وكيف ضربها حتى ماتت ؟ اليك ذلك ــ كان يصحبها الى السرير ، ثم يلفها باللحاف من راسها حتى قدميها ، ويروح بضربها بوحشية ، ليلة تلو اخرى ، حتى توفت . ولم ذلك ؟هو نفسه لا يعرف لماذا !...

ورجع ايفان يحمل شحنة من الحطــب ، وجلس القرفصاء بالقرب من النار يدفىء يديه ، لكن جريجوري تابع حديثه بصوت مؤثر ، دون ان يلقــي اليــه بــالا :

ــ لعله كان يضربها لانها افضل منه ، تثــير في نفسه الحسد منهــا ، ان آل كاشرين لا يطيقون شيئا جيدا ، يا صغيري . انهم يغارون منه ، ولما كانوا لا يستطيعون ان يحصلوا عليه لانفسهم ، فانهم يدمرونه . اسأل جدتك كيف اثقلوا على ابيك حتى حرموه الحياة ، فهي ستخبرك عــن كل شيء ــ انها لا تستطيع الكذب ولا تفهمه . انها من طينة القديسين تلك الجدة ، رغم انها تجرع بعض الخمرة من آن لاخر ، وتحب سعوطها حبا جما . انها امرأة قديسة ويحسن أن تلازمها ، يا صغيري ...

دفعني عنه ، فخرجت الى الساحة مذهولا خائفا . ولحق بي فانيا ، عندما اجتزت العتبة ، وهمس في أذني وقد وضع يده فوق رأسي :

ــ لا تخف منه انه من طينة طيبة . تطلع باستقامــة في عينيه . فهو يحب الذين يفعلون ذلــك .

كانت سائر الاشياء تثير القلق بشكل غريب . ورغم جهلي المطلق بكل اسلوب اخر للحياة ، فاني اذكر ، في كثير من الغموض ، ان امــي وابي كانا

يعيشان حياة اخرى مختلفة . كانا ينطقان بكلمات اخرى ، ويجيدان تسليات اخرى ، يقعدان ويسيران دوما جنبا الى جنب ، يلاصق كل منهما الاخر ولا يفارقه لحظة واحدة . وكانا يجلسان ، في الامسيات ، الى احدى النوافذ ينشدان بعض الاغنيات ، ويضحكان طويلا بصوت عال ، حتى يتجمع الجيران مرهفين السمع اليهما . وانا اذكر ان وجوه اولئك الجيران المرتفعة نحو النافذة كانت تذكرني بصحون مائدة الغداء الوسخة . غير ان الاية تنعكس في هذا المكان ، فالقوم لا يضحكون الا في التدري ، وان فعلوا فانت تعجز عن الالمام بالسبب الذي يدفعهم الى الضحك . كانوا يزعقون في وجه بعضهم بعضا ، ويهددون بعضهم بعضا ، ويتهامسون في الزوايا دون انقطاع . اما الصغار فيعتصمون بالصمت ويصعب تمييز احدهم عن الاخر وهم لاصقون بالارض كالغبار .. وهكذا شعرت بانني غريب في جو ذلك البيت ، والحياة التي تحيط بي تخزني بمئات الابر ، وتستفز ريبتي ، وتجبرني على مراقبة كل ما يدور حولي بانتباه زائد ...

وقد ترعرعت صداقتي لايفان كثيرا ، وجدتي مشغولة عني ، منذ الفجر حتى ساعة متاخرة من الليل ، باعمالها البيتية . وهكذا اصبحت اقضي اغلب ايامي وانا اخب في اعقاب تسيجانوك الذي استمر يحميني بذراعيه كلما جلدني جدي . ثم كان يريني اصابعه المتورمة في اليوم التالي ، وهو يقول :

— لا جدوى من ذلك ! فهو لا يساعدك مطلقا . ومع هذا ، فانظر ما يجره علي ! هذه هي المرة الاخيرة — وفي المستقبل ستنال نصيبك بنفسك ..

ولكنه كان يتحمل ، عندما تسنح الفرصة ، العقاب الذي لا يستحقه مرة اخرى ..

— لقد قلت انك لن تفعل ذلك ثانية ؟

— لم اتعمد ذلك ،لكن وجدتني أمد ذراعي ، هكذا دون ان انتبه الى ما افعل .

وقد عرفت ، بعد فترة من الزمن ، شيئا عن تسيجانوك زادني اهتماما به ، واخلاصا له .

كان تسيجانوك ، كل نهار جمعة ، يربط المهر الخصي « ساراب » الاشقر اللون « وهو حيوان خبيث نبيث ذو اسنان جميلة لدى جدتي » الى مزلجة للجليد ، ويلبس قبعة غريبة الشكل ، ويرتدي معطفا قصيرا من جلد الماعز يحزمه زنار متين اخضر اللون ، ويمضي الى السوق ليبتاع مؤونة

الاسبوع من الطعام . وكانت غيبته تطول احيانا ... وعندئـذ يفقد الجميع رباطة جأشهم ، فيأتون النافذة باستمرار وينفخون على الزجـاج المتجمـد ليلقوا نظرة على الشارع .

ـ هل عـاد ؟

ـ كلا ، لم يعد بعـد !

وكانت جدتي ، خاصة ، تبدي الكثير من القلـق ، فتقول لولديهـا وزوجهـا :

ـ يا للمصيبة ! ستسببون موت انسان طيب ، وحصان طيب . انتم في امس الحاجة الى ضمير حي ، أيتها المخلوقات المخجلة ! انكـم لا تكتفون ابدا بما كسبتموه . يا للعشيرة الغبية ، والعائلـة الطماعـة ! ان اللـه سيعاقبكم جميعا ، وسترون ...

فكان جدي يعبث ويتمتم :

ـ اوه ، حسنا ! هذه هي المرة الاخيرة !

وكان تسيجانوك ، احيانا ، لا يعود الا بعد الظهـيرة ، فيسرع جدي وخالاي حتى الساحة لملاقاته ، تلحق بهم جدتي وهي تنتشق سعوطها بغيظ ، وتهمهم كالدب ... وفي مثل هذه الاحوال كانت تبدو لي ، لسبب ما اجهله ، على كثير من السماجة والثقل . وينطلق الاطفال ركضـا الى الساحـة ، ويشرعون ، في بهجة عظيمة ، بتفريغ العربة مما فيها مـن لحوم طازجـة ، وطيور ، وسمك ، ومآكل من مختلف الانواع .

ويسأل جدي ، وهو يلتهم العربة بعينيه الحادتين الصغيرتين :

ـ أجلبت كل ما اوصيناك بـه ؟

فيجيب ايفان منشرح الصدر ، وهو يثب فوق الارض طلبـا للدفء ، ويضرب يديه المتصلبتين ببعضهما ليبعث فيهما بعض الحرارة :

فيصيح جدي بغضب :

ـ مهلا ، يا صاح !... ان لقفازيك ثمنا . هل تبقى معـك شيء من المـال ؟

ـ كـلا !

ويسير جدي ببطء حول العربة ، ويتمتم وهو يعود أدراجه :

ـ يخيل الي انك جلبت كمية كبيرة من السعـوط مرة ثانية . ومـن

المؤكد انك لم تحصل عليها بدون ثمن ! حذار من ارتكاب الفعل نفسه في منزلي أيضا . أسامع انت ؟

ثم يمضي بعيدا ، وقد قطب وجهه ...

وعندها كان خالاي يندفعان ناحية المزلجة ، ويروحان يقدران وزن الدجاج ، والسمك ، والطيور ، وافخاذ لحم العجل ، وكتل اللحم ...

كانا يقولان ، وهما يصفران ويصيحان معبرين عن رضاهما :

— لقد اجدت الاختيار ، هذا رائع !

كان ابتهاج خالي ميخائيل يفوق حدود التصور . فهو يقفز حول العربة وكأنه يقف على عدة نوابض ، يستنشق بأنفه اشبه بمنقار طير « نقار الخشب » ويتلمظ بشفتيه ، ويضيق عينيه الهادئتين مغتبطا .

كان بخيلا كجدي ، يشبه غجريا متشردا . وكان يخفي يديه المتجمدتين في جيبيه ، ويسأل :

— كم تناولت من ذلك الشيخ ؟

— خمسة روبلات .

— ولقد كلف هذا ما يقارب الخمسة عشر روبلا على الاقل . كم صرفت من المبلغ ؟

— اربعة روبلات وعشرة كوبيكات .

— وهكذا يتبقى في جيبك تسعون كوبيكا . ما ؟ اتسمع هذا ، يا ياكوف؟ هذه طريقة فريدة في الربح !

ويضحك ياكوف بلطف ، وهو يقف في ذلك الجو البارد بقميصه قصير الاكمام ، يطرف بعينيه الى السماء الزرقاء المتجلدة . كان يسأل ببطء :

— ما قولك في ان نتقاسم المال ، يا فانيا ؟

وتخلع جدتي عن الحصان اغطيته ، وتقول وهي تشتعل غيظا :
— ماذا ؟ يا حبيبي ، ماذا ، يا قطتي الصغيرة ؟ اترغب في اللعب ؟

امض ، امض سريعا ! ان الله لا يمانع في قليل من التسلية ...

ويهز سارات الضخم ناصيته ، ويحك كتفها باسنانه البيض ، ثم ينتش وشاحها الحريري . ويرنو الى وجهها بعينين جذلتين ، ويصهل بعذوبة وهو يزعزع الجليد بضرباته .. وتسأله جدتي ، وهي تدفـع بقطعة من الخبـز الملح بين اسنانه ، وقد رفعتمئزرها تحت فمه تراقبة وهو يمضغ :

ـ اتريد قطعة من الخبـز ؟

فيقول تسيجانوك ضاحكا :

ـ انه جميل ، هذا الخصي العجوز ! وهو سريع سبوح ، وذكي ايضا !

فتضرب جدتي الارض بقدمها ، وتصيح :

ـ اليك عني ! كفاك تدور حولي وتهز ذيلك . انت تعرف انني لا احبك في هذه الاوقات !

وشرحت لي ان تسيجانوك ، حين يمضي الى السوق ، يسرق اكثر مما يشتري من البضائع . قالت بصوت كئيب :

ـ يعطيه جدك ورقة من فئة الخمسة روبلات ، فيصرف ثلاثة منها ـ ويسرق ما قيمته عشرة روبلات . فهو يحب السرقة ، هذا الوغد ! وقد جربها مرة ، فنجحت ، فضحك جميع من في المنزل وامتدحوه . ولذلك اتخذها عادة . وقد عرف جدك الفقر والبؤس في ايام فتوته ، فجعله ذلك مقترا نوعا ما في شيخوخته . والمال عنده اعز عليه من اولاده . ويروق له كثيـرا ان يحصل على شيء من لا شيء . أما ميخائيل وياكوف ...

وعبرت عن سخطها بحركة من يدها ، ثم صمتت لحظة ... وتابعت ، وهي تنظر الى داخل علبة سعوطهـا :

ـ ذلك شيء معقد ، يا اليوشا ، صنعته حيزبون عمياء عجوز فخرج من بين يديها مسحورا ؛ فلا عجب اذا لم نستطع ، انا وانـت ، ان نميز له رأسا من ذنب ... ولكنهم اذا ما قبضوا على فانيا مرة بجريمـة السرقة ، فسيضربونه حتى الموت ...

وجنحت الى الصمت ثانية ، برهة وجيزة ، وعندما تابعــت الكلام كان صوتها ناعما للغايـــة :

ــ ايه ! لدينا قوانين كثيرة ، لكن دون حقيقة تقوم عليها هذه القوانين، أو عدالة تتضمنهـــا .

وفي اليوم التالي توسلت الى تسيجانوك ان يكف عن السرقة :

ــ سيضربونك حتى الموت !

فأطلق ضحكة سرعان ما كسفتها تقطيبة علت وجهه ، ونبر :

ــ ولكنهم لن يقبضوا علي ، سأهرب ! وانا خبيث ماهــر ، وجوادي من الخيل السريعة . اوه ، انا اعرف ان السرقة جرم وامر خطر . وانا الجأ اليها لمجرد التسلية طالما اني لا ادخر شيئا من المال فخالاك يأخذانه مني في بحر الاسبوع . ولكنني لا أعني بذلك ــ فليأخــذاه ، ما دمــت احصل على كفايتى من الطعام .

ورفعني فجأة عن الارض ، وهزني بلطف :

ــ انت هزيل ضعيف ، لكن عظامك قوية . وستصبــح شابا هرقلا . أصغ ، تعلم العزف على القيثارة ، واسأل خالك ياكوف ان يعلمــك ذلك . انا لا امزح ! فانت صغير بعد ، وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، ولكنك لطيف! واظن انك لا تحب جدك ، اليس كذلك ؟

ــ لست ادري .

ــ حسنا ، اما انا فلا احب احدا من آل كاشرين ، اللهم الا جدتك .. الشيطان وحده يستطيع ان يحبهم !

ــ وانـــا ؟

ــ انت لست من كاشرين ، انت من بشكوف ، وهذا دم اخر ، وعشيرة مختلفـــة .

وضمني اليه بلطف ، وقال وهو يئن :

ــ يا الله لو استطيع أن أغني فقط ! اذن لاوجعت القلوب بغنائي .

والان ، اليك عني ، يا أخي ... يجب ان أشرع في عملي .

أعادني الى الارض ، وزق قبضة من المسامير في فمـــه ، وراح يسمر قطعا سودا مبتلة في لوح مربع كبير من الخشب ...

ولم يمض طويل وقت على هذا حتى مات ...

واليكم كيف حدث ذلـــك :

كان صليب هائل من خشب البلوط ينتهي بقاعدة كثيفـــة من الجذور يستند الى السور في ساحتنا ، قرب البوابة ، منذ زمن طويل ، حتى لاذكر انه لفت انتباهي يوم جئت استوطن ذلك البيت للمرة الاولى . كـــان يومئذ جديدا اصفر اللون ، اما الان فاصبح اسود لكثرة ما تساقط عليه من امطار الخريف ، وفارقته الرائحة الحادة لاخشاب البلوط المنقوعة ، فهو يبدو شيئا زائدا عديم النفع في ساحة دارنا الصغيرة المفروشة بالاوساخ .

ولقد اشتراه الخال ياكوف ليرفعـــه على قبر زوجتـــه ، واقسم ان يحمله الى المقبرة على كتفيه في الذكـــرى الاولى لوفاتهـــا ... وصادفـــت الذكرى نهار السبت ، في الايام الاولى من فصل الشتـــاء . كانـــت الريـــح القارسة تناثر الثلج علينا من فـــوق الاسطحة حـــين مضى جدي وجدتـــي والاحفاد الثلاثة الاخرون الى المقبره لحضور الجناز ، بينمـــا خرج الباقون جميعا الى الساحة وخلفوني وحدي في الدار عقابا لي على ذنـــب سبق ان ارتكبتـــه .

وارتدى خالاي معطفـــين سوداوين متماثلين ، ورفعـــا الصليـــب عن الارض ، ووضعا ذراعه الواحدة على كتف احدهمـــا ، والثانية على كتـــف الآخر . ورفع جريجوري ورجل غريب اخر ، بصعوبة جمة ، قاعدة الصليب الثقيلة والقيا بها على كتف تسيجانوك العريض ، فترنـــح من ثقل الحمـــل وباعد ما بين قدميه اتقاء للسقوط .

سال جريجوري :

ــ الا تستطيع حملـــه !

ــ لست ادري . يظهر انه ثقيل جدا !

وزمجر الخال ميخائيـــل :

ـــ افتح البوابة ، ايها الشيطان الاعمى !

وقال ياكـــوف :

ـــ الا تخجل من نفسك ، يا فانيا ؟ فكلانا اضعف منك بنية .. ولكـــن جريجوري استدار الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، ونبهه بحدة :

ـــ احذر من ان تجهد نفسك ! حسنا ، كان الله في عونك !

فصاح الخال ميخائيل من الشارع :

ـــ يا لك من احمق جربان !

فضحك كل من في الساحة ، وشرعوا يتحدثون بأصوات عالية ، فكأن نقل ذلك الصليب قد ابهجهم جميعا وصب السرور في قلوبهم .

وامسك جريجوري بيدى وقادنى الى المعمل . قال :

ـــ لربما لم يجلدك جدك اليوم . يبدو انه حسن المزاج ...

اجلسني على قمة من الصوف مهيئة للصباغ ، واحاطنـــي به بلطف ، وراح يحدثني بتأمل وهو ينفخ البخار المتصاعد من الاحواض :

ـــ عرفت جدك منذ سبعة وثلاثين عاما ، يا صغيري . ولقـــد شاهدت بداية هذه الاعمال ، وهانذا الان اشهد نهايتها . لقد كنا قبلا صديقين طيبين ـــ شرعنا في العمل معا ، وهيأناه معا . ان جدك هذا لانسان حاذق ! انظر ، فهو يجعل نفسه القائد هنا ـــ اما انا فلم اكن كفؤا لذلك . ولكن الرب أذكانا جميعا . يكفي ان يبتسم حتى يروح أحكم الناس يفرك عينيه كالاحمق . أنت لا تعرف بعد شيئا عن لماذا وكيف . ولكن من الضروري ان تعرف كل شيء ، فحياة اليتيم شاقة . وقد كان أبوك مكسيم ساماتيفيتش الورقـــة الرابحـــة دوما ، فهو يفهم كل شيء . ولذا لم يحبه جدك ، ولم يتعرف عليه ....

كنت ابتهج بالجلوس والاصغاء الى مثل هذه الكلمات ، وانـــا اراقب النار الجامحة المتأججة الذهبية تتراقص في الموقد ، ودفقات البخـــار الابيض تنطلق من الاحواض ثم تتجمد على الواح الاسطحة المائلة . وشاهدت ، من خلال احد الشقوق المبثوثة في هذه الاخشاب ، شريطا ازرق من السماء يزهر

في خيلاء . وقد خمدت الريح الان ، واشرقت الشمس ، وبدت الساحة كما لو كانت مرشوشة بتراب من الزجاج الناعم . وكانت قرقعة انزلاق مركبات الجليد تدف من الشارع ، بينما يتموج دخان ازرق يتصاعد من مداخن البيوت ، وندب اخيلة منورة على الثلج وكانها ، هي الاخرى ، تروي اقاصيصها وحكاياتها .

وبدا لي جريجوري الطويل ، المتعظم ، ذو اللحية الطويلة ، والاذنين العريضتين ، ساحرا لطيفا ، وهو يقف امامي حاسر الرأس ، يحرك الصباغ الذي يغلي ، ويزودني بارشاداته :

ــ تطلع في عيون الناس باستقامة دائما ، فاذا فعلت ذلك اضطر حتى الكلب المقتفى أثرك أن يقف في مكانه جامدا . . .

كانت نظارته الثقيلة تضغط على حافتي انفه ، مما جعل نهاية ذلك الانف تزرق ، فتشبه في ذلك أنف جدتي . . .

ــ ما هذا ؟

قال ، وقد نهض فجأة ، ثم اصغى برهة ، واغلق باب الموقد بقدمه ، وانطلق نحو الساحة وانا اقفز في اثره .

كان تسيجانوك يضطجع على ظهره في وسط المطبخ ، وشريطان عريضان من النور يمرقان من خلال النافذة فيقع أحدهما على راسه وصدره ، ويترامى الثاني على قدميه . وكان نور غريب يلمع على جبهته ، وقد ارتفع حاجباه ، ورنت عيناه المنحرفتان الى السقف المملوء بالهباب ، وراحت شفتاه السوداوان ترتجفان وتبعثان بزبد وردي اللون ، وخطان رفيعان من الدماء ينزان من زاوية فمه ويجريان على وجهه ورقبته ، ثم على الارض . والدم يتدفق بحرية من تحته . وكانت ساقاه تضطجعان بترهل ، وسرواله العريض يلتصق بالارض ، يبدو بوضوح وجلاء انه مبلول . وكانت الارض مفروشة بالرمل مما جعلها تلتمع كالشمس ، ونهيرات من الدماء تتسابق ناحية الباب ، تتضوا ببهاء عندما تتصلب مع خطوط شعاعات الشمس المسترسلة .

كان تسيجانوك مضطجعا دون حراك ، ممدود الذراعين ، ينقر باصبعه

على الارض ، واظافره الملوءة بالونة الصباغ تشرق في الشمس البراقة

وجثت المربية يفجينيا الى جانب ايفان تحاول ان تضع شمعة في يده ، ولكنه لم يستطع الامساك بها ، فسقطت وانطفأت شعلتها في الدماء . وعادت المربية فالتقطتها ثانية ، ومسحتها بطرف مئزرها ، ثم حاولت مرة اخرى ان تضعها بين اصابعه المتحركة بدون هدوء . وكان المطبخ يغلي بهياج شديد دفع بي كالريح عن العتبة ، وكاد يرمي بي لو لم اتمسك بقبضة الباب .

قال الخال ياكوف في صوت لا رنة فيه وهو يهز راسه ، وقد بدا — هو الاخر — ضعيف البنية ، متكرش الوجه ، تطرف عيناه المتكاسلتان باستمرار :

— لقد تعثر !... لقد سقط ، فسحقه ... ضربه على ظهره . وكاد يحطمنا نحن الاخرين ، لو لم نفلت في الوقت المناسب .

فقال جريجوري بصوت مبحوح :

— اذن ، فانتما اللذان سحقتماه !...

—ولكن ، ماذا تظن اننا ؟

— انتما !..

ظلت الدماء تتدفق بحرية حتى شكلت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودت ولاحت انها ترتفع كالماء حينما يصطدم بسد منيع ، وتسيجانوك ملقى هناك يبعث بتلك الضوضاء التي يحدثها في نومه ، والزبد الوردي اللون يتابع جريانه من فمه ، وجسده يضمحل ويزداد تسطحا ، وينبسط على الارض كما لو كان يغوص فيها .

همس الخال ياكوف :

— لقد امتطى ميخائيل حصانا ومضى الى الكنيسة يخبر والدنا ! اما انا فقلبته على عربة واسرعت الى هنا .. حسنا فعلت اذ لم احمل القاعدة بنفسي ، والا فالام كنت ساصير ؟...

وثبتت المربية ، مرة ثانية ، الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي تساقط

الشمع والدموع على راحته ، فصاح بها جريجوري في خشونة :

ـــ ضعي الشمعة على الارض قرب راسه ، ايتها الخرقاء !

ـــ هذا صحيـــح !

ـــ انزعوا عنه قبعته !

نزعت المربية القبعة ، فضرب راس ايفان الارض محدثا صوتا اصم . واستدار راسه اثر ذلك ، فازداد تدفق الدم من فمه ، لكـــن من جهة واحدة فحسب . واستمرت الحال هكذا زمنا طويلا مرعبا . ولم ادرك تمامـــا ماذا حدث . . . توقعت ، بادىء ذي بدء ، ان تسيجانوك يأخذ قسطا من الراحة، وانه لن يلبث وينهض ويبصق كراهية ، ويقول بنغمته المعتـــادة . تفو ! يا الحرارة ! كما اعتاد ان يقول دوما ، بعد ان يصحو من غفـــوة الظهيرة ايام الاحاد . ولكنه لم ينهض ، بل ظل مضطجعـــا هناك يـــذوي ويـــذوب شيئا فشيئا . . .

وانسحبت الشمس ، فقصرت شعاعاتها بحيث لم تبلغ ابعد من حفاف النافذة . واصبح لوجه ايفان ويديه لون قاتم ، وخمدت اصابعه عن الحركة، وتوقف الزبد عن الانصباب من فمه ، بينما كانت ثلاث شمعات تشتعل حول راسه تضيء شعاعاتها الذهبية كتل شعـــره الازرق المسود ، وقمة انفـــه الضيقة ، واسنانه المصبوغة بالدماء ، ثم ترمي بومضات متماوجة من انوارها فوق خديه الاسمرين .

واستمرت المربية تبكي الى جانبه وهي جاثية على قدميها ، وتهمس :

ـــ آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاء حقيقيا !

كان الجو باردا مرعبا قارسا ، فتسللت واختبأت تحت الطاولة وساعتئذ دخل جدي المطبخ متثاقلا في فروته السوداء تتبعه جدتـــي في معطفها السميك المطرزة ياقته باذناب صغيرة ، ودخل معهما الخال ميخائيـــل ، والاطفال ، وعدة غرباء . . . ورمى جدي فروته على الارض ، وصاح :

ـــ يا لاولئك الاوغاد ! يصنعـــون هكذا بمثـــل هذا الفتـــى ! خمس سنوات اخرى ويصبح يساوي ثقله ذهبـــا !

: وآخفت الثياب الملقاة على الارض ايفان عن ناظري . فوقفت ، وانـــا اسعى للحصول على موضع آخر ممتاز ، بين قدمي جدي ، فركلنـــي جانبا وهو يهز قبضته الحمراء الصغيرة في وجه خالي :

ــ ايها الذئبـــان !

ثم ارتمى على الدكة واطبق باصابعه عليهـــا في عنف ، وهو يغمغـــم ويجمجم في صوت اجش :

ــ اوه ، انا اعرف ــ لقد كان شوكة في حلقيكما ! آه ، يا ثمانيا ، ايها الولد الفتي ! ماذا نستطيع ان نعمل الان ؟ انـــا اسالك مـــاذا نستطيع ان نعمل ! ان الخيل غريبة ، واللجام مهتريء عتيق . . . انظري ، يا اماه ، فكأن الرب لم يعد يحبنا في هذه السنوات القليلة الاخيرة ! اليس كذلك ، يا ام ؟

فانطرحت جدتـــي على الارض بالقرب مـــن ايفان تتحسس وجهـــه ، وراسه ، وصدره ، وتنفخ في عينيه ، وتمسك يديه وتفركهما . . . فاطاحت في اثناء ذلك بالشمعات كلها . ونهضت اخيرا على قدميها تشبه صورة سوداء قاتمة ، وثوبها الاسود يلمع ، وعيناها السوداوان تقذفان شررا هائلا مخيفا، وهي تقول في صوت خفيض :

ــ اخرجوا من هنا ، يا ملاعين

فاختفى الجميع عدا جدي . . .

وثوى تسيجانوك ببساطة ، دون ان يسترعي ادنى انتباه . . .

٤

كنت اضطجع في سرير عريض ، ملتفا بلحاف ثقيـــل يحيط بي من كل جانب ، اصغي الى جدتي تصلي . . . كانت تجثو على ركبتيهـــا ، وتضغط صدرها باحدى يديها ، وترسم بالثانية ــ من وقت لاخر وبدون اي اسراع ــ اشارة الصليـــب .

وكانت فرقعة تكسر اللبد وراء النافذة تبلغ سمعـــي ، ونور القمـــر

المخضر يرنو من خلال السجف المزركشة التي تغطي زجاج النافذة ، فيضيء بأنواره الفسفورية ذلك الوجه اللطيف بأنفه البارز ، وعينيه السوداوين . وكان غطاء الراس الحريري الذي يخفي شعر جدتي بشع كالمعدن ، وثوبها الاسود يتدلى عن كتفيها بثنيات متبدلة تكومت على الارض تحف بها من كل جانـــب .

وحين كانت تنتهي مـــن تـــلاوة الصلاة ، تنضو عنها ثيابها في صمـــت وتضعها بعناية على صندوق الملابس القائم في زاوية الغرفة ، ثم تقترب من السرير ، فأتظاهر بالنوم .. وتقول بهدوء :

ــ كفاك تصنعا ، ايها المخبيث الصغير ! انت لست بنائم ! ليس الان، اليس كذلك أيها الطير الصغير ؟ هيا ، دعنا نصيب شيئا من هذا اللحاف .

كنت ادرك ما سيتبع ذلك ، ولذا لا استطيع الامتناع عن الابتسام ..

وتصيـــح :

ــ آه ، انك تود ان تعمل من جدتك ملهاة ، اليس كذلك ؟

وتمسك بحافة اللحاف وتشده اليها بقوة ومهارة عظيمتين بحيث ارتفع كالصاروخ في الهواء ، وانا ادور حول نفسي . ثـــم أعود ثانية الى السريـــر الريشي ، في حين تنفجر هي في عاصفة من الضحك :

ــ خذها ، أيها الجني الصغير ! انك تستحقهـــا !

كانت تصلي طويلا في بعض الاحيان ، فأنام دون ان انتبه اليهـــا عندما ترد السريـــر ...

كانت أيام المتاعب والشجار والقتال تنتهي دوما في مثل هذه الصلوات الطيبة ، فكنت أصغي بانتباه واهتمام الى جدتي تحدث الرب بكـــل تفاصيل حوادث النهار . كانت تجثو كالهرم ، وتبدأ صلاتها بهس سريع مبهم ، بعلو شيئا فشيئا حتى يصبح دمدمة عميقة :

ــ انت تعرف ، يا الله ، ان كل انسان يسعى وراء مصلحته الخاصة، وذلك أمر طبيعي جدا . ان ميخائيل الان هو ولدي البكـــر ، فعليه يقع اذن

واجب البقاء في البلدة هنا — وانها لاساءة اليه أن يبعث بــه عبر النهر الى مكان جديد لم يختبره أحد من قبل ، وليس من يدري كيف يمكــن ان يخرج منه . ولكن الاب يفضل ياكوف عليه . أمن العدل ان يحب الاب اولاده بصورة غير متساوية ؟ انه خلوق عنيد ، ذلك العجوز ! وانك لتعمــل خيرا ان وهبته بعض العقل ، يا الهــي !

كانت تشخص الى الايقونات المظلمــة الدامسة بعينيها الواسعتــين البراقتين ، وهي تتابع تقديم نصائحها لالاهها الذي تعبده .

— هلا جعلته يحلم حلما طيبا ، يا الهي ، فتعلمه كيف يقسم حبه بين ولديه بصورة متساوية عادلة !

وكانت ترسم اشارة الصليب ، ثم تنحني حتى تمس جبهتهــا العريضة السجادة ، ومن ثم تعاود كلامها باقتناع ، وهي تنهض :

— ولم لا ترسل من لدنك لفارفارا قليلا من الفرح ؟ مــاذا فعلت حتى تغضب عليها ، يا الهي ؟ اهي اسوا من الاخرين ؟ ومن سمع عن امراة صبية قوية تعيش في مثل هذا البؤس ؟ وثم جريجوري يا الهي — احفــظ له عينيه اللتين تسوءان يوما بعد يوم . فان هو امسى فاقد النظر ، فمــاذا يتبقى له سوى التسول في الطرقات ؟ وهل يكونذلك من العــدل في شيء ؟ هو الذي يفني قوته كلها في اعمال ذلك الجد ... ولكن ، هــل يساعده الجد ان فقد النظــر ؟.. آه يا الهي ، يا الهي العزيز !

ثم تظل صامتة برهة طويلة ، وقد احنت رأسهــا ، وارخت ذراعيهــا وكأنها غرقت في النوم ، او تصلبت اطرافها وتجمدت ... وتقــول اخيرا ، وهي ترف بجفنيهــا :

— وماذا ايضا ؟ كن رحوما بكل الاتقياء ! وسامحنــي ، انــا الحمقــاء الملعونة ! انت تعرف جيدا انني اذا ارتكبت الخطيئة فعن حماقة ، وليس عن خبث وتعمد للشر .

ثم تند عنها تنهدة عميقة ، وتقول بقناعة لطيفة :

ـــ ولكن ، ليس هناك شيء يخفي عليك ، يا الهي العزيز ! فانت تعرف كل شيء ، ايها الاب المجـــد !

كنت مولعا جدا باله جدتي ، هذا الذي يبدو قريبا وعزيـــزا لديها . . . وكنت اقو للهـــا :

ـــ حدثيني عن اللـــه . . .

كانت لها طريقة خاصة في التحدث عنه ، فتجلس ، وتغلق عينيهـــا ، وتتحدث بصوت مخفوض ، وهي تتفوه بكلماتها بغرابة فائقـــة . وما زلت اذكر ، حتى الان ، كيف كانت تستعد لذلك ، فتقتعد السرير ، وترمي بمنديل على راسها ، وتأخذ بنسج قصتها الخيالية حتى ابخبخ في النوم :

ـــ ان الله يجلس هناك فوق هضبة عالية ، محوطا بجنان الفردوس . . انه يقعد على عرش من الياقوت تحت اشجار الصنصاف الفضية ، أشجار تظل مزهرة طوال السنة ، لانه ليس في الفردوس شتـــاء ، ولا خريف ، بل تبقى الورود مبرعمة دوما على مر السنين ، تجلب الغبطة لاتقياء السماء . وحول الرب يطير حشد من الملائكة ـــ يحومون كقطع كثيفة مـــن الثلج ، أو كجماعات من النحل ـــ بل قل انهـــا أسراب من الحمـــام الابيض تطـــير من السماء الى الارض ، ثم تعود من الارض الى السماء لتحدث الله عنا ، نحن المخلوقات التي تعيش في العالم الاسفل . . ان لكل منا ملاكه الخاص ـــ فلك ملاكك ، ولي ملاكي ، ولجدك ملاكه ـــ لان اللـــه سواء بالنسبة الى جميـــع مخلوقاته . . . يأتي ملاكك مثلا الى الرب ، ويقول لـــه :

« ان الكسي أخرج لسانه لجده .

« وعندئذ يصدر الرب أوامره :

« ـــ فليجلده الرجل الشيخ اذن !

« وهذا ما يحصل لكل فرد ولكل شيء دون تفريق . . كل ينال حسب ما يستحق ـــ التعاسة للبعض ، والفرح للاخرين . وكل هـــذا يحدث بشكل رائع بحيث تأخذ الملائكة تصفق باجنحتها بسرور ، وهي ترتل دوما :

« المجد لك يا الله ، المجد لك في العـــلا !

« بينما يتطلع الله حوله ، وهو يبتسم ، وكأنه يقول :

« ـــ حسنا ، تابعي انشادك أيتها الملائكة الجميلة ما دام ذلك يسرك! » .

وتبتسم جدتي ، وهي تهز راسها ...

ــ ارايت هذا كلــه ؟

فتجيب مؤكدة :

ــ كلا ، انا لم اره . ولكنني اعرفه ...

كانت ، كلما تحدثت عن الله والفردوس والملائكة ، تغدو صغيرة انيسة، يفقد وجهها آثار الشيخوخة ، وتلتمع عيناها النديتان بنــور دافىء خاص ، فاتناول ضفائرها الثقيلة والف بها عنقي ، وانــا أجلس دون حراك ، يرقص قلبي طربا لتلك الاقاصيص التي لا اشبع منها ابدا .

ــ لقد حرم على الفانين رؤية وجه الله ــ كيلا يصابوا بالعمى ... والقديسون وحدهم يستطيعون ان يروا اليه بعيون مفتوحة . ولكنني رأيت الملائكة ، فهم يظهرون للانسان الطاهر القلب . لقد كنت في الكنيسة احضر خدمة الصباح ، فرايت اثنين من الملائكة في الهيكل ــ كانا يشبهان الضباب ــ تستطيع ان ترى كل شيء من خلالهما ، يلمعان كالبرق ، واجنحتهما تبلــغ الارض ، كلها دنتلة وحرير . وراحا يــدوران حول المذبــح يساعدان الاب العجوز ايليا ، فاذا اراد رفع ساعديه المتعبين للصلاةاسرعا لمعونته وسندا مرفقيه . كان شيخا ضريرا ، حتى ليتعثر بكل شيء ، ثم مات بعد ذلك بزمن قصير . ولقد اغتبطت كثيرا برؤيتي لهما حتى صعقت مــن الفرح ، وآلمني قلبي كثيرا ، وتخلصت عيناي بالدموع ... آه ، كم كان ذلك رائعا ! لكم هو جميل أيضا كل شيء هنا على الارض !

ــ حتى هنا ، في بيتنا هذا ؟

فأجابت جدتي ، وهي ترسم اشارة الصليب :

ــ نعم ، في كل مكان ! المجد للعذراء البتول !

حيرني ذلك الجواب ، وادهشني ، وصعب علــي جدا أن افهم كيــف يسير كل شيء على ما يرام في بيتنا ، حيث تزداد العلاقــات سوءا وتوترا يوما بعد يــوم .

وانا اذكر انني مررت بالقرب من باب غرفــة خالي ميخائيل ، وكــان مفتوحا ، فرايت الخالة ناتاليا ، مجللة بالبياض ، تدور في الغرفة وقد ضمت

يديها بقوة الى صدرها ، وهي تهتف بصوت مخفوض يبعث على الخوف والرهبة :

أواه يا الهي خلصني من هنا خذني اليـك

ولقد فهمت ما تريد بصلاتها ، كما افهم جريجوري عندما يغمغم :

ـ سأمضي واتسول عندما أصبح اعمى . وساكون عندئذ افضل مني هنـا !

كنت اود ان يصبح اعمى في اقرب وقت حتى اضحي دليله ، فنذهب معا لنجوب العالم ، نتسول لنعيش ونحيا . ولقد افضيت له ذات يوم بأمنيتـي هذه ، فضحك في لحيته وقـال :

ـ حسنا ، سنذهب معا . وسأصرخ في الشوارع بحيث يسمعني جميع الناس : هذا هو حفيد فاسيلي كاشرين ، صاحب معامل الصباغ ! وسيكون ذلك مضحكا ، ايـه ؟

وكثيرا ما لاحظت تورما في شفتي العمة ناتاليا ، وعلامة سوداء وزرقاء تعلو وجهها الاصفر اللون . فسألت جدتي مـرة :

ـ ترى أيضربها خالـي ؟

فاجابت ، وهـي تتنهـد :

ـ انه يفعل ذلك خفية ، لعنة الله عليه ! لقد منعه جدك عن ذلك ، ولذا فهو يضربها ليلا . انه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع الحديث ، متحمسة لقصتها :

ـ ولكنهم لا يضربون في هذه الايام كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي . لقد غدا الناس اليوم اقل منهم وحشية بالامس ! نعم ، انهم يضربون في بعض الاحيان على الاسنان ، او الاذان ، او الراس ، مـدة دقيقة او دقيقتـين ، وهذا كل شيء . . . ولكنهم كانوا قليلا يعذبون ضحيتهـم طوال ساعـات كاملة ! لقد ضربني جدك مرة ، في اليوم الاول من الفصح ، منذ صلاة الصباح الباكرة حتى غروب الشمس ـ كان يضربني ، ويأخذ قسطا من الراحة ، ثم يعود الى الضرب ثانية . . وكان يضربني بلجام الفرس ، او بالحبال ، او بأي شيء اخر يقع في متناول يده .

ـــ ولـــم ذلـــك ؟

ـــ لا استطيع ان اتذكر الان . لقد ضربني مرة حتى امسيت نصف ميتة، ثم حرمني من الطعام خمسة ايام ـــ وباعجوبة نجوت من الموت في تلك المرة. ومرة اخـــرى . . .

اذهلتني هذه الوقائع ، فان جدتي تكبر زوجهـــا مرتين حجما ، ولـــم استطع ان أتصور كيف يتغلب عليها . . . سالت :

ـــ اهو اقوى منك كثيرا ؟

ـــ كلا ، ليس اقوى ! بل اكبر سنا ! والى جانب ذلك فهو زوجـــي ! وقد اراده الله ان يتكفل بي ، وارادني على تحمل ذلك .

كنت احب ان اراقبها تمسح الغبـــار عن الايقونات وتنظـــف ثناياها . كانت أيقوناتنا متقنة الصنع ، غالية ، مزخرفة باللالىء والاحجار الكريمة ، ومرصعة بالفضة . وكانت جدتي تقبض عليها بأصابع ماهرة ، وتغمغم وهي ترسم اشارة الصليب وتقبل الصور :

ـــ يا لها من وجوه حلوة ! كيف يمكن للغبار والاتربة ان تغطيها ؟ يا أم الاله الكثيرة الحنان ، الفائقة البركات المجيدة ، يا منبع الغبطة التي لا توصف! انظر هنا فقط ، لكم هو جميل هذا الرسم ، يا اليوشـا ، يا حمامتي الحبيبة ! انها وجوه لطيفة ، ولكل ميزاته الخاصة . . . فهذا يدعى « العـــيد الاثني عشرى » ، وهذه « فيودورفسكيا » تقف في الوسـط ـــ انها سيـــدة لطيفة وهذه « لا تبكي يا اماه بالقرب من قبري ! » .

كان يخيل الي ، في كثير من الاحايين ، انها تلعـــب بالايقونـــات بجـــد وسذاجة ، تماما كما كانت تفعـــل ابنة خالـــي الصغيرة كاترينـــا بدمياتهـــا الناعمـــة . .

وكثيرا ما كانت ترى بعض الشياطين ، أن افرادا أو جماعات . . .

ـــ حدث ذلك في احدى الامسيات اثناء الصيـــام الكبير ، وانا اقطـــع الدرب قرب منزل آل رودولف ـــ كان كل شيء يلمع في ضوء القمر . . وعلى

حين غرة ، بصرت بشيطان يتسلق السطح بالقرب من المدخنة . كان كبيرا خشنا ، وقد دلى قرنيه داخل المدخنة ، وهو يتنشق وينفخ بمنخريه ، ويضرب بذيله على السطح ، ويحاول ان يخفي أذنيه الكبيرتين ، فرسمت اشارة الصليب ، وقلت : « سينهض المسيح ثانية ليميت أعداءه جميعا ! » فصرخ فجأة بصوت عال ، ثم تدحرج حتى الساحة ، لقدقتله ذكر المسيح ! ومما لا ريب فيه ان عائلة رودولف لم تلتزم الصيام ذلك النهار ، فكان الشيطان يستنشق رائحة الطعام المطبوخ مغتبطا ...

راقت لي صورة الشيطان يتشقلب حتى الساحة فانفجرت ضاحكا ... وضحكت جدتي بدورها ، وتابعت :

— وانهم ليحبون ، مع ذلك ، اللهو واللعب ، فهم اشبه بالاطفال الصغار تماما ، خبثا ، يتعشقون المداعبة . وقد حدث ذات ليلة ، وانا اغسل في حمام المنزل ، والساعة تقارب منتصف الليل ، أن فتح باب الموقد بغتة وخرجت الشياطين منه — صغارا أقزاما — بعضهم أحمر اللون ، وبعضهم خضر ، وبعضهم اسود كالصراصير ... فركضت ابغي الباب ، ولكنهم لم يتركوني اجتازه ، فقد سدوا الطريق علي ! وهكذا أصبحت حبيسة مع اولئك الشياطين ، وكانوا يعدون بالملايين ، يملأون غرفة الحمام — متراكمين تحت قدمي ، وفوق ساقي ، يقرصونني ، يعضونني ، ويلدغونني ، حتى لم اعد استطيع ان ارسم اشارة الصليب لارغمهم على الهرب . لقد كانوا ناعمين دافئين ، يغطيهم وبر طويل ، يشبهون في ذلك القطط الصغيرة ، يقفزون دوما على ارجلهم الخلفية ، يدورون ويتقلبون على الارض ، ويكشرون عن اسنانهم الشبيهة بأسنان الفيران ، تومض اعينهم الصغيرة الخضر ، وهم يموجون رؤوسهم حيث برزت قرونهم ، ويهزون أذنابهم الصغيرة الشبيهة بأذناب الخنازير ... يا الهي ، اية ساعة قضيتها يومذاك ! لقد فقدت نعم فقدت شعوري ! وعندما استعدت صوابي كانت الشمعة قد احترقت كلها تقريبا ، والمياه قد بردت ، والثياب المغسولة ملقاة على الارض . فقلت في نفسي : « تفو !.. اخذك الطاعون ، أيتها الشياطين اللعينة ! » .

واغمضت عيني ، فاستطعت ان ارى الى باب الموقد ذي الحجارة

الرمادية اللون يفتح ، ويتدحرج منه سيل من الشياطين يتقلبون على الارض ويملأون غرفة الحمام ، ينفخون على الشمعــة ، ويمــدون السنتهم الحمراء الوسخة . كان ذلك مسليا ومرعبا في وقت واحد .

حكت جدتي راسها ، وظلت صامتة برهة ، حتى استولــت عيلها حمى جديدة من الخيال :

ــ ولقد شاهدت ايضا بعض الذين حلت عليهم اللعنة . كان ذلك في ليلة شتائية شديدة الاعصار ، وانا اجتاز خندق عائلة دوكوف ، حيث أراد خالاك ميخائيل وياكوف ، كما اخبرتك مرة ، ان يرميا والدك الى الماء من فوهة في الجليد ، كنت ، اذن ، ذاهبة الى هناك ، وانا اقطع الممر المفضي الى قاع الخندق ، فاذا بى اسمع فجأة صوت صفير وصراخ حاد ! فتطلعــت ، فلقيت عربة صغيرة تجرها عدة جيــاد سوداء تعــدو في اتجاهي ، وقــف سائقها ــ وهو شيطان صغير مدور الجسم يلبس قبعة حمراء ــ على كرسيه مادا ذراعيه ، وراح يسوق الخيول التي يربط لجامها بعــدة سلاسل صغيرة بدلا من العنان . ولما لم تستطع الخيول ان تمر عبر الخندق ، اخــذت طريق البحيرة مثيرة سحابة من الثلج وراءهــا ... وكــان ركاب العربــة مــن الشياطين ايضا ، يصفرون ، ويصيحون ، ويلوحون بقبعاتهم .. وقد مرت بالقرب مني سبع عربات تسرع كالقطار ، وخيولها سوداءَ فاحمة كالليل ، وجميع الذين تحملهم قوم ملعونون من ابائهم وامهاتهــم ! ان هؤلاء القــوم غنيمة باردة للشيطان ، فتش عنهم ، واركبهم تلك العربــات ، وسار بهــم اثناء الليل ليشركهم في احتفالاته ... اظن اني شاهدت عرسا للشياطين في ذلك المساء ...

كانت جدتي تتحدث ببساطة واقتناع بحيث يستحيل عدم تصديقها ... ولكنها كانت تتجلى خاصة في القصائد التي تحفظها عن العذراء الطاهرة ، والتي تروي كيف سارت ام الاله فوق الطريق الشائكة في هذا العالم لتحذر « الاميرة اللصة » ، نيجاليشفا وتردعها عن السرقة وقتل الروسيين . وكانت تنشد ايضا شعرا عن « الكسي رجل الله » وعن « ايفان المحارب » ، وتروي قصصا عن « الحكيمة فاسيليا » ، وعن « الكاهــن تيس الماعز » ، وعــن « ربيب الله » ، وخرافات مخوفة عــن « مارفا بوسادنيتــري » ، وعــن

« بابا اسطه » زعيم اللصوص ، وعن « مريم » الخاطئة المصريـــة ، وعن حزن والدة اللص » ! . لقد كانت مؤونتها من القصص والخرافات والشعر لا تنضب البتة ولا ينقطع لها اوار ...

لم تكن تخاف من الناس ، بما فيهم جدي ، او الشياطين ، او اي سحر اسود آخر ... لكنها كانت تخاف الصراصير الى حد غريب ، تتجنب وجودها حتى عن بعد بعيد .. وكانت تبعثني من النوم ، في اغلب الاحيان ، في منتصف الليل ، وتهمس في اذني :

ــ يا عزيزي اليوشا ،هناكصرصاريسرح ! اقتله ، حبا بالمسيح !

فكنت اشعل الشمعة ، وانا نصف مستيقظ ، وادب على الارض ، على اربع ، افتش عن ذلك العدو اللدود . ولكن محاولاتي لم تكن تنجح دوما ، فاقول لهــا :

ــ لم اجد شيئــا !

فتروح تلك حيث تضطجع دون حراك ، ثم تغمر راسها باللحاف :

ــ اوه ، نعم انه موجود ! تابع صيدك ، ارجوك ! انه هناك ، انــا اعرف ذلــك !...

كانت على حق دائما ، اذ اقع على احد الصراصــير تجول بعبدا عن السريــر :

ــ اقتله ! اقتله ؟ آه ، شكرا لله !،وشكرا لك ، يا غرامي !

كانت تقول ذلك ، وترمي اللحاف عن رأسها ، وهــي تبتسم ابتسامة السعادة والغبطة . اما اذا اخفقت في العثور على الصرصار ، فهي لا تذوق اذن طعما للنوم على الاطلاق .

كنت احس جسدها يرتعش بوضوح في سكون الليل وهدائه ، واسمع الى همسها وهي تتنفس بضعف ووهن :

ــ انه هنالك ، قرب الباب ... هو الان تحت الصندوق ...

ــ لم تخافين من الصراصير ؟

فتقول ، في جوابها ما يكفي من الاقتناع :

ــ واية فائدة لها ؟ انها تهيم هنا وهناك في الغرفة . هــذه الشياطين السّود ، وهذا كل شيء ! لقد اعطى الله ، حتى لادنى مخلوقاته ، هدفا في الحياة . فالخنفساء تدل على أن في البيت رطوبة ، والبق يبرهن على وساخة الجدران ، واذا ما عثرت على قملة فيطيات ثيابك فهذا يعنـي انك ستقع مريضا . كل هذا واضح ، اما هي ــ فمن يستطيع ان يخبرني ما هي فائدتها، واي حق لها في الحياة ؟

• • •

حدث ذات ليلة ، بينما جدتي جاثية على ركبتيها ، مشتركة مع الله في حديث حماسي ، ان دفع جدي الباب علىمصراعيه ، وصاح بصوت اجش :

ــ هيا يا اماه ، انه افتقاد من الله ! هيا ! ... اننا نحترق !!

فصاحت ، وهي تناضل للوقوف على قدميهـــا :

ــ مـــاذا ؟

وأندفعت وجدي يصخبان في ظلمة الرواق الفسيح ...

شرعت تصدر اوامرها بصوت عال رزين :

ــ انزلي الايقونات ، يا يفجينيا ! وانت يا ناتاليـــا ، البسي الاطفـــال ثيابهـــم !

وبكى جدي ، وطفق ينوح :

ــ آه ــ ه ــ ه ! ...

فركضت حتى المطبخ ... كانت النوافذ المطلة علـــى الساحة تلتمـــع كالذهب ، وبقع صفر تتدحرج على الارض وتسيل ، والخـــال ياكوف يدفـــع بقدميه الحافيتين في حذائه ، ويقفز عاليا كأن تلك البقع تحرق نعليه .. صاح:

ـــ آه ، وان ميخائيل قد اضرم النار . لقد شغلنا بها وهرب ...
فدفعته جدتي خارج الباب حتى كاد يسقط على الارض ، وقالت :
ـــ صه ، ايها الوغـــد ؟

كنت استطيع ان ارى ، من خلال الجليد الذي يغطي زجاج النوافذ ، الى المعمل وهو يحترق ، والى السنة النيران تنطلق من خلال الباب المفتوح على المصراعين . وهذه شهب حمر من النار تلتمع ، وهـــي تبعث دخانهـــا الاسود في ذلك الليل الساكن فيتجمع غيوما تعلو وتعلو في الفضاء ، دون ان تعكر آثار « درب التبان » الفضي . وهذا الثلج يتورد بانعكاس الشعاعات الارجوانية عليه ، وجدران المنزل تهتز وتترنح فكأنها تسعى مبتهجة الى زاوية الساحة حيث تلعب النار ، فتضيء بالحمرة الشقـــوق العريضة القائمة في جدران المعمل ، وتدفع بالسنتها اللامعة الملتوية من خلالها . وهـــذه شرائط حمر ذهبية تنزلق بسرعة فوق اخشاب السقف الجافة ، تضيع بينها المدخنة الضيقة المصنوعة من الصلصال وهي تصب في الجو ينبوعا رفيعا من الدخان، وطقطقة ناعمة لطفة ، اشبه باحتكاك الحرير ، تند عن زجاج النافذة . وقد شرعت النار تشتد ، وراح رونقها يضيف على المعمـــل جمالا يجعلـــه اشبه بالايقونسطاس في الكنائس ، فيجذبني اليه بقوة لم استطع مقاومة لاغرائها وفتونهـــا .

رميت معطفا سميكا من جلد الماعز فـــوق راسي ، ولبست اول حـــذاء وقعت عليه ، ثم اسرعت في الممر حتى عتبة الباب حيث وقفـــت مذهولا ـــ وقد غشى بصري لهيب النيران ، وصم سمعي صوت تأججهـــا ، وصيحات جدي ، وخالي ، وجريجوري ... وارتعت من تصرف جدتي ، اذ القت بكيس فارغ على راسها ، ولفت نفسها بحـــرام سميك نكسو بـــه الخيـــل عادة ، واندفعت داخل المعمل المتأرث وهي تصيح وتزعق :

ـــ حامض الكبريت ، ايها الحمقى ! ان حامض الكبريت سيلتهب !

وصاح جـــدي :

ـــ اوقفها ، يا جريجوري ! اوه ، لقد قضي عليها !..

ولكن جدتي رجعت سريعا ، والدخان ينعقد فوق راسهـــا ، وقد انحنت تحت ثقل اناء حامض الكبريت الكبير . وصاحت بصوت اجش ، وهي تسعل:

ـــ اخرجوا الحصان ، يا ابتاه ! واسحبوا هذا الشيء عنـــي ـــ الا ترون انني احترق ؟

فانتزع جريجوري حرام الحصان المحترق عن كتفيها ، ثم اختطف معولا وانحنى يهشم الكمية الضخمة من الجليد المتراكمة على باب المعمل ، ويلقي بها في جوف النار ، وخالي يقفز حواليه وفي يديه فأس كبيرة . وانطلق جدي في اعقاب جدتي يرميها بالثلج ، وهي تدفن اناء حامض الكبريت في كومة من الجليد . وعندما انتهت ، اسرعت تفتح بوابة الساحة ... وصاحت هناك ، وهي تنحني للناس الذين قدموا اليها يركضون :

— انقذوا مخزن الغلال ، ايها الجيرة ! ان النار ستمتد حتى مخزن الغلال ومخزن العشب المجفف — ان ما بنيناه سيحترق عن آخره . وسيجيء دوركم بعدنا . انزعوا السقف وارموا الاعشاب داخل الحديقة ! وانت يا جريجوري ، انثر الثلج عاليا — فاي نفع فيه على الارض ؟ وانت يا ياكوف ، كفاك ركضا ، اعط القوم معاول وفؤوسا ! ايها القوم الطيبون ، ساعدونا ، وليكن الله معكم !

كانت جدتي وقد اضاءتها شعلات اللهب التي تلوح امامها ، تتجول كخيال اسود في الساحة ، فهي في كل مكان في تلاحظ كل شيء وتصدر اوامرها للجميع على حد سواء .

وركض نساراب داخل الساحة ، ثم شب على قائمتيه الخلفيتين ، فطرح جدي بقدميه على الارض ، كانت عيناه المدورتان تشعان حمرة بانعكاس لهيب النيران فيهما . وراح يقفز ، وهو ينفخ بمنخريه ، ويحرن ، ويشب في عنف حتى افلت له جدي اللجام وابتعد عنه هاربا ، وهو يصيح :

— امسكيه ، يا امـاه !

فرمت جدتي بنفسها تحت قوائم ذلك الحصان الجامح ووقف دون حراك ، وقد فتحت له ذراعيها . فصهل الحصان متألما وهدأ ، وهو يرنو بنظرات مسترقة الى النار الداخنة . قالت جدتي في صوت عميق ، وهي تربت على رقبته وتأخذ اللجام بكلتا يديها :

— لا تخف ! اتتخلى عنك في مثل هذه اللحظة الرهيبة ؟ انت ، ايها الفأر الصغير الطائش ؟

فراح ذلك الفأر الذي يكبرها بثلاث مرات يتبعها بلطف وخنوع حتى

البوابة ، وهو يصهل كلما تطلع الى وجهها المتورد .

وخرجت المربية يفجينيا مع الاطفال من المنزل ... كانـوا ، جميعا ، مدثرين بالاحرمة يدمدمون باشياء غير مفهومة ... صاحت :

ــ اني لم استطع العثور على الكسي ، يا فاسيلي فاسيليفيتش !

فاختبأت تحت درجات الباب حتى لا تحملني بعيدا مع الاخرين ، في حين صاح جدي بهـا :

ــ دعينا ، دعينـا !

وانهار سقف المعمل مخلفا مكانه عاصفة من الدخـان استمـرت زمنا طويلا تنطلق باستقامة نحو السماء . وجاءنا من داخل البناء انفجار من النار احمر اللون ، تبعه آخر اخضر ، وثمة اخر ازرق ، اندلعـت جميعا مـن الساحة في اتجاه جمهرة القوم الذين يحاولون اطفاء ذلك اللهب الهائل بنثرهم الثلج عليه . وشرعت الاحواض تغلي ثائرة وتفور ، وهي تبعث بسحب من الدخان والابخرة فتملأ الساحة برائحة غريبة ، وتجعل الدموع تترقرق في العيـون .

خرجت من حيث اختبأت وارتميت بالقرب من قدمي جدتي ، فصاحت :

ــ امض من هنا ! والا دهسوك ! ابتعـد ...

ودلف الى الساحة خيال يلبس خوذة معدنية واسعة ، يعلو الزبد فم حصانه الاشقر ، وطفق بلوح بسوطه ويزعق متوعدا :

ــ افسحوا الطريـق !

وارتفع رنين اجراس صغيرة عديدة تدق مبتهجة ... كـان كل شيء جميلا ومسليا كما في ايام الاعياد والافراح ... ودفعتنـي جدتي من قـرب الباب ، قائلـة :

ــ الم تسمعني ؟ قلت لك امض من هنا !

كان يستحيل ان اعصيها في مثل تلك اللحظة . رجعـت الى المطبخ ، وجلست الى النافذة مرة ثانية . ولكن تلك الجموع السود من الناس كانت تختفي احيانا ، واحيانا تخفي على مسرح النار فلا استطيع ان ارى الا لمعان الخوذ المعدنية وهي تنتقل بين تلك القبعات الشتائية السوداء .

اخمدت النيران سريعا بحصرها في منطقة واحدة وصب الماء عليها .

وفرقت الشرطة الجماهير المزدحمة . وعندما انتهى كل شيء رجعت جدتي ادراجها الى المطبخ ...

— من هناك ؟ انت ؟ الم تنم ؟ هل انت خائف ؟ لا تخف ! لقد انتهى كل شيء الان !

جلست بجانبي تتأرجح الى الامام والخلف دون ان تنطق بحرف واحد .

كنت سعيدا بان يستعيد الليل هدوءه وظلمته . ولكنني كنت ، في ذات الوقت، آسف على خسارتي مشهد النار ..

وظهر جدي على العتبة :

— اماه ؟

— ماذا ؟

— هل احترقت ؟

—لاشيء يذكر ...

اشعل عود كبريت ، فاضاء لهبه الازرق وجهه السنجابي الملطخ بالدخان . واشعل الشمعة الموضوعة على الطاولة ، ثم قبع بالقرب من جدتي . قالت :

— يجب ان تغتسل !

كانت مغطاة هي الاخرى بطبقة كثيفة من الهباب ..

وتنهد جدي :

— ما اعظم رحمة الله اذ وهبك كل هذا الذكاء !

ضربها بلطف على كتفها ، واضاف وقد انفرجت اسارير وجهه :

— اعني انه يهبك اياه للحظات قصيرة ، وفي نوبات متباعدة . ولكنه يرسله على اية حال ! ...

مضحكت جدتي بدورها وارادت ان تقول شيئا لكن جدي قطب وجهه ، وتابع :

ــ يجب ان نتخلص من جريجوري ، فكل ما حدث كان بسبب اهماله . ان هذا الموجيك لم يعد يصلح لشيء . اليك ياكوف الذي يبكي عند العتبة . يا له من احمق ! يحسن جدا ان تخرجي اليه ...

فنهضت وخرجت ... وقد رفعت يديها تنفخ على اصابعها !...

سال جدي ، دون ان يتكلف التطلع الي :

ــ أرايت الحريق منذ بدايته ؟ حسنا ، ما رايك بجدتك هذه ؟ لا تنس انها أمراة عجوز ... محطمة ... منهارة ...ان في هذا لدرسا لك ، وللجميع ايضا ــ تفــو !

وانطوى على نفسه ، وظل صامتا بعض الوقــت . ثم نهض واقفا ، واطفأ لهيب الشمعة باصابعه ، وهو يسال :

ــ اخفــت ؟

ــ كــلا !

ــ حسنا ، فلم يكن هناك ما يستوجب الخوف .

ونزع عنه قميصه بحركة ساخطة ، ومضى الى المغسلة الموضوعة في زاوية المطبخ ، وضرب الارض بقدميه وصاح :

ــ الحريق ! تلك حماقة كبرى وربي ! والذي يحــدث حريق في بيتــه يجب ان يجلد في الساحة العامة كمجنون او لص ! هذا ما يجب ان يفعلوه مع مثل هؤلاء الناس ، وحينئذ يمتنع الحريق تماما ! ... عد الى سريرك ، فما بقاؤك هنــا ؟

اطعت امره ، ولكن النوم هرب عن جفني في تلك الليلة . ولم اكد ازحف الى السرير حتى رددت الي الحياة بصراخ لا انساني . فركضت، مرة ثانية، عائدا الى المطبخ ، حيث وجدته واقفا في وسطه وقد خلع قميصه ، وحمــل شمعة مرتجفة الشعلة ، وهو ينقل قدميه دون ان يتحرك من مكانه قيد انملة .

قــال لاهثــا :

ــ اماه . ياكوف ، ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

فقفزت فوق الموقد ، وتكورت في زاويته . ومرة ثانية عاد كل شيء الى ما كان عليه من بلبلة واضطراب اثناء اشتعال النار . وكان العويل يصطدم

بامواج منتظمة على الجدران والسقف ، وهو يزداد ارتفاعا ولجاجة ... وراح جدي وخالي يركضان هنا وهناك كالمجانين ، وجدتي تطردهما خارج المطبخ وجزيجوري يحدث ضجة صاخبة بالاخشاب التي يلقيها في الموقد . ثم راح يملأ بعض الغلايات بالماء وهو يهز راسه كاحد جمال استراخان .

امرت جدتي :

— اشعل النار اولا !

فتسلق جريجوري الموقد بلطف ، فوقع بصره على قدمي ، فاذا به يصيح مرتاعا :

— من هناك ؟ تفو ، لقد ملأتني رعبا ! انت تنطرح دائما حيث لا حاجة اليك على الاطلاق .

— ماذا هناك ؟

فاجاب بهدوء ، وهو يرجع الى الارض :

— ان الخالة ناتاليا تلد !

فتذكرت ان والدتي لم تصرخ هكذا يوم وضعت . وحين رفع جريجوري الغلايات على الموقد ، تسلقه حتى صاقبني ، ثم اخرج من جيبه غلبونا من الخزف . قال ، وهو يريني الغليون :

— لقد بدات ادخن لان في ذلك شفاء لعيني ، وجدتك تنصحني ان استعمل السعوط ، ولكني اعتقد ان التدخين احسن وافضل ...

جلس ، وقدماه مدليتان فوق حافة الموقد ، يشخص الى ضوء الشمعة الخافت ، وقد تلوثت اذناه وخداه بالدخان الاسود ، وتمزق قميصه ، بحيث رايت الى اضلاعه وهي تبرز وتغور ، وتشققت احدى زجاجتي نظارته السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فتركت فرجة يستطيع المرء ان يرى منها الى عينه الحمراء التي تبدو كجرح مفتوح يدمي .

وملأ غليونه بورق التبغ ، وراح يستمع الى انين تلك المراة الماخض ، وهو يتمتم لنفسه كما لو كان ثملا :

— يبدو ان النار نالت جدتك على اية حال . ترى ، كيف ستدبر امر توليد خالتك ؟ قل لي ، هل سمعت كيف قضت خالتك نهارها ؟ لقد نسوها

تماما لقد شرعت في الانين منذ بدء الحريق ، وقد اوجعها الخـوف كثيرا ... انظر فقط كم يصعب حمل مخلوق جديد الى هذا العالم ! ومـعذلك ، فان احدا لم يلق بالا الى تلك المراة . ان المراة يجب ان تحترم ، فهي أم ، وهذه هي الحقيقة ، فلا تنسها أبدا .

غفوت برهة من الزمن ايقظني بعدها صرير الباب ، وصيحـات الخال ميخائيل السكران الملتخ ، ثم صوت جلبة عامة شاملة ... وتناهـت الى سمعي كلمات غريبة منهـا :

ـــ يجب ان تفتح الابواب الملوكية في الكنيسة ...

ـــ اعطها بعض زيت الايقونة والروم ، واخلطهما بالهباب : نصف قدح من الزيت ، ونصف قدح من الروم ، وملعقة من الهباب ...

وتابع الخال ميخائيل صيحاتـه :

ـــ اريد ان القي عليها نظـرة ...

كان جالسا على الارض ببصق امامه وقد مد رجليه المنفرجتين ، وراح يضربهما بكلتا يديه . واصبحت الحرارة لا تطاق على الموقـد ، فأسرعـت بالهبوط عنه . ولكنى لم اكد اقترب من خالي حتى لبطني بقدمـه فأوقعنى على الارض ، واصطدم راسي بها ... صرخت :

ـــ احمـق !

فوثب على قدميه ، واختطفنى ، ثم أرجعني في الهواء وهو يغمغم :

ـــ ساحطمك على الموقد !

وعندما استعدت صوابى كنت مضطجعا على ركبتى جدي في الصالون الكبير . كان قابعا في زاوية الايقونات ، يهدهدنى الى الامام والخلف ، وعيناه مثبتتان في السقف ، وهو يجمجم :

ـــ لن ينال أحدا منا المغفرة ، ولا واحدا ابدا ...

كان لهيب الايقونات يحترق بقوة فوق راسه ، وفي وسط الغرفة ، على الطاولة ، شمعة مضاءة .. وهناك صباح شتائـي مكفهـر يطل علينا من النافـذة .

سألني جدي ، وهو يحنو علي :

ـ ماذا يؤلمك ؟

كان كل شيء في يؤلمني ، فراسي مبلول ، وجسدي يشبه الرصاص وزنا . ولكنى لم ارغب في التحدث عن ذلك . كان كل ما يحيط بي غريبا غير معهود . فهناك جمهور من الناس غير المالوفين لدي يشغلون عدة مقاعد في الغرفة ــ وهذا كاهن في حلة ارجوانية اللون ، وهناك شيخ اشهب الشعر يضع نظارة ويلبس بزة عسكرية ، وهناك عدة اشخاص اخرين يجلسون بدون حراك ، وقد جمدهم البرد ، فهم اشبه بتماثيل من الخشب ، يسمعون في سكون الى غليان الماء في مكان ما عن قرب ... وكان خالي ياكوف يقف منتصبا قرب الباب ، وقد وضع يديه خلف ظهره .

قال جدي :

ـ تعال احمله الى سريره ، يا ياكوف .

فأومأ خالي الي ، فمضينا على رؤوس اصابعنا حتى وصلنا غرفة جدتي .. همس الخال في اذني ، عندما تكورت على السرير :

ـ لقد توفيت خالتك ناتاليا ...

فلم يدهشني ذلك ــ لانها ظلت مدة طويلة لا تظهر في ارجاء البيت ــ ولا تدخل المطبخ ، بل لا تقترب الطاولة لتناول الطعام .

ـ أين هي جدتى ؟

فأجاب ، وهو يحرك يده :

ـ هناك ، تحت !

ثم رجع مثلما جاء ، يسير على رؤوس أصابعه الحافية ...

اضطجعت على السرير اتطلع حولي قلقا . وراحت تتراءى لي ، على زجاج النافذة ، عدة وجوه شائبة الشعر . كان ثوب جدتي معلقا في الزاوية فوق الصندوق ــ كنت أعرف هذا ، ولكن الثوب بدا لي وكأنه مخلوق حى يتربص هناك بين الظلال ، فخبأت راسي تحت المخدة ، واحتفظت باحدى عيني مثبتة في الباب . كنت اود أن اقفز من السرير واهرب ... كانت الغرفة حارة ، وقد عج المنزل برائحة غريبة تذكرني كيف لاقى تسبجانوك

حتفه ، والدم يتدفق منه على أرض المطبخ . وخيل الي ان راسي ، بل قلبي، ينتفخ ... وأن كل شيء اشاهده في ذلك البيـت يمـرق في جسدي مثـل مركبة جلدية تسرع في درب ثلجي ، وهي تشدد الخنـاق علي ، ثم تمحوني من الوجود تمامـا .

وسمعت الباب ينفتح ببطء ، ومنه دلفت جدتي ... ثم دفعـت الباب بكتفيها ، فأغلقته ، وظلت مستندة اليه وقـد مدت ذراعيها ناحية اللهـب الازرق الذي يبعثه قنديل الايقونات .

وهمست في نغمة صبيانية شاكية :
يا ليدي المسكينتين !.. كيف احترقتـا !..

★ ★

٥

حصل تقسيم الاملاك في مطلع الربيع ، فتخلف ياكوف في المدينة ، اما ميخائيل فعبر النهر الى كونافينو . واقتنى جدي لنفسه منـــزلا جديدا رائعا حجري البناء في شارع بوليفوي ، في الطابق الارضي منـــه خمارة واسعة ، وعلى السطح غرفة انيقة صغيرة ، ويلحق بهذا المنزل حديقة تشرف على واد يعج بأشجار الصفصاف المعراة .

غمزني جدي بعينه مبتهجا ، وقال يخاطبني ونحـــن نطوي الممـــرات الطرية الناعمة نجوب ارجاء الحديقة ونتفحصهـــا :

ــ ما اكثر القضبان ههنا ! في وقت قريـــب سابدأ بتعليمـــك القـــراءة والكتابة ، وعندئذ ساكون في امس الحاجة الى هذه القضبان !

كان المنزل يفيض بالمستأجرين ، فاختص جدي نفسه بغرفة واسعة في الطابق العلوي اعدوها لاستقبال الضيوف ايضا . وكان نصيبنـــا ، جدتي وانا ، غرفة السطح التي تطل نوافذها على الطريق ، فاذا ما جلست اليها استطعت ان اشاهد السكارى الخارجين من الخمـــارة في الامسيات وايـــام الاعياد ، يترنحون وهم يعبرون الشارع ، يستنـــدون الى مزاريـــب الميـــاه ويزمجرون . . . وغالبا ما كانوا يرمون من الخمارة وكانهم اكياس فارغة من الطحين ، فيعودون الى الباب يدفعونه، ويهاجمونه بأيديهم ، او يضربون عليه بدقاقته المتعفنة ، وهم يسبون ويشتمون . وكان الباب يخضع لهم احيانا ، فتنشب عندئذ معركة لا ادري نتائجها . . . كان ذلك كله في الحقيقـــة مثيرا للاهتمام حتى الدرجة القصوى . وكان جـــدي يمضي كل صباح الى معملـــي ولديه ليساعدهما في تنظيم أمورهما . ثم يعود مساء غاضبا ، متعب الجسم، كئيب القلب ، حاد الطبـــاع .

اما جدتي فكانت تقوم بتدبير المنزل ، وتهيء الطعام ، وتنبش الحديقة، وهي تكردح هنا وهناك النهار بطوله كخذروف كبير ، وكانما يسيرها سوط خفي غير منظور . وكانت تستنشق سعوطها ، ثم تعطس باشتهاء ، وهي تراقب كل شيء وتجنف وجهها المتصبب عرقا :

ــ شكرا للقديسين والملائكة حتى اخر الدهور ! لقد انتقلنا اخيرا الى حياة هادئة ، يا اليوشا ، يا طيري العزيز ! ان كل شيء جميل ورائع بالنسبة الينا ، فشكرا للعذراء الطاهرة !

ولكنني لم اجد شيئا من الهدوء في حياتنا ... فقد كان المستأجرون يخبون منذ الصباح حتى المساء في الساحة وداخل المنزل ، والجيران يأتوننا وهم في عجلة من امرهم دوما ، ودوما متاخرون يسعون وراء شيء ما ، ودوما يتاهبون لعمل ما من الاعمال . وكانوا ينادون جدتي :

ــ اكولينا ايفانوفنا !

فتوزع اكولينا ايفانوفنا ابتساماتها العذبة عليهم بلطف جم على عادتها، وتصغي اليهم بانتباه زائد ، وهى تدفع السعوط داخل منخريها ، ثم تمسح انفها واصبعها باتقان في منديل احمر اللون .

كانت تقول :

ــ تريدون ان تتخلصوا من القمل ؟ يجب عليكم اذن ، يا اعزائي ، حين تريدون التخلص من القمل ان تغتسلوا في الحمام في فترات متتالية ، وافضل على ذلك ان تعرضوا انفسكم لابخرة زيت النعناع . ولكن ! اذا كان القمل تحت الجلد فيجب ان تتناولوا ملعقة من شحم الوز ، من انقى انواعه ، وملعقة قهوة من السليماني وثلاث قطرات من الزئبق ، وامزجوها جميعا سبع مرات في هاون صيني ، ثم ادلكوا جسدكم بها . اياكم ابدا واستعمال ملاعق الخشب والعاج والا فسد الزئبق ، واياكم ومسه بالنحاس او الفضة لان ذلك يكون عظيم الضرر اذن .

وكانت تشير احيانا ، بعد تبصر وامعان دقيقين :

ــ الافضل ان تذهبي الى الناسك آزاف في صومعته ، يا سيدتي الطيبة . ان سؤالك صعب لا استطيع له تفسيرا او جوابا .

وكانت تعمل قابلة ، وحكما في المشاجرات البيتية ، وتداوي المرضى من

الاطفال الصغار ، ونروي قصة « حلم العذراء » عن ظهر قلب لتتعلمها النسوة فينلن السعادة والغبطة ، ثم تعطي نصائحها في شؤون البيت وقضاياه :

ـــ أن الخبار نفسه يعرف الزمن الذي يجب ان يكبس فيه ، وذلك مباشرة عندما تزول منه رائحة الارض وسواها ، فيصبح عندئذ قابلا للتمليح ... وللحصول على كفاس (١) طيب يجب ان يكون حار المذاق ، لان مشروبا كالكفاس لا يتفق ابدا مع أي شيء حلو المذاق . ولكن ، لا مانع من أن تضيفوا اليه شيئا من الزبيب ، او قليلا جدا من السكر ـــ ملعقة واحدة لكل دلو منه . وان هناك طعما مختلفا للقشطة حسب طريقة صنعها، فهناك أسلوب أهل الدانوب في ذلك ، وكذلك الطريقة الاسبانية ، ومن ثم الطريقة القوقازية .

اما انا فكنت اخب في اعقابها وادب النهار بطوله ، متعلقا بأثوابها ان في الساحة او في الحديقة او عند الجيران . حيث كانت تجلس لبضعة ساعات تحتسي الشاي وتعيد سرد ما لديها من قصص وأخبار ... وكنت أبدو ، وقتذاك ، وكأني قطعة منها . وانا لا اذكر احدا خلال تلك الفترة من حياتي ، اللهم الا هذه العجوز الكدود اللطيفة .

وغالبا ما كانت امي تظهر بيننا في فترات قصيرات . كانت ما تزال متكبرة ، عابسة الوجه ، تراقب كل شيء بعينين باردتين مظلمتين كأشعة شمس الشتاء .. ولا تقيم بيننا طويلا ، بل ما أسرع أن تختفي دون أن تخلف وراءها أثرا يذكرنا بها .

سألت جدتي ذات يوم :

ـــ أأنت ساحرة ؟

فضحكت :

ـــ حقا ؟ من اين اخترعت هذا ؟

---

(١) شراب شبيه بالبيرة .

وسرعان ما ارتسمت على محياها علائم الجد ، واضافت :

ــ ومن أنا لاكون ساحرة ؟ أن السحر فن صعب ، وأنا لا أكـــاد افقه الالف ، من الباء ! أنظر الى جدك ! يا له من رجل متعلـــم ! ولكـــن العـــذراء الطاهرة لم تعطني ، انا ، الكثير من الحكمة والمعرفة .

وحينذاك ائتمنتني على جزء اخر من حياتهـــا :

ــ لقد شببت يتيمة انا الاخرى . فقد كانت أمي فلاحة معدمة ، ومقعدة بالاضافة الى ذلك . وقد أخافها مرة سيد نبيل وهي لما تزل بنتـــا بعد ... ولذا فقد القت بنفسها ، ذات ليلة ، من احدى النوافـــذ ، فكسرت خاصرتها وكتفها ، بحيث وهن ذراعها عن الحركة ، ذراعها الايمن ، ذراعها الجوهري في العمل ، اذ كانت عاملة تطريز ماهرة . وقد حررها النبيل بعد ذلك بزمن قصير لعدم انتفاعهم منها ، وكأنهم قالوا لها : عيشي كمـــا تهوين وتبغـــين . ولكن ، كيف يمكنها ذلك بيد واحدة ؟ وهكذا أمست مستعطية في الطرقات . وكان سكان بالاخنا ، في ذلك الحين ، أكثر غنى واطيب قلبا ــ كانوا نجارين شجعانا ، وعاملات تطريز ماهرات ، قلوبهم من ذهب ، وكل منهم افضل من الاخر . فلم نغادر المدينة ، بل رحنـــا ــ أمي وانا ــ نستجدي النـــاس طوال الخريف والشتاء . ولكننا نزحنا عن بلدتنا عندما رفع رئيس الملائكة جبرائيل سيفه فأزاح الجليد عن الاراضي ، فاذا الربيع يتخطر على وجـــه البسيطـــة بأبهى حلله ــ نزحنا حيث قادتنا أقدامنا ، فمضينا الى موروم ، ومنها الى يوريفست ، ثم سرنا على طول الفولجا ونهر اوكا الهادىء . لكم كان مسيرنا جميلا رائعا ! الارض تفوح برائحة الربيع والخريف ، والتراب ناعم الملمس، والعشب يشبه المخمل في طراوته ، والعذراء قد نثرت الزهـــور في كل مكان بحيث يغمر السرور قلبك ، ويمتد الفضـــاء العريض الواســع امام عينيـــك الطافحتين بهجة وغبطة ... وعندئذ ، كانت والدتي تغلق عينيها الزرقاوين نصف اغلاقة ، فاذا بغنائها يرتفع نحو السماء مسبحا ... كان صوتها حنونا حلوا ، يخيل اليك معه ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهـــدوء والسكون ، فكأنه يرمي بسمعه اليها . لكم كان التسول حسنا في ذلك الزمان ! غير ان والدتي رفضت ، يوم بلغت العاشرة من عمري ، ان اصحبها للتسول . كانت تجد ذلك مخجلا ، بل فضيحة شائنة ... وهكذا استقرت في بالاخنا ، وهناك كانت تطرق الابواب ايام الاسبوع طلبـــا للخز ، وتقـــف أيام الاحـــاد على

باب الكنيسة تستعطي الناس والمصلين . اما انا فكنت أتخلف في البيت أتعلم التطريز . ولم استطع ان أتعلم ذلك بسرعة . وان كنت تواقة جدا الى مساعدة امي المسكينة . ولطالما بكيت وتساقطت الدموع من عيني بغزارة عندما يكون صعبا فلا انجح في تحقيقه !... ولكن سرعان ما تعلمت في سنتين — تأمل ! — تلك المهنة الصعبة ، وذاعت شهرتي في البلدة وضواحيها. وكان القوم يأتوننا ، عندما يريدون عملا ممتازا ، ويقولون : « حسنا يا اكوليا ، هلا لعبت بأصابعك وابرك ؟ » . وكنت سعيدة بذلك ، وان كنت لا استحق في الحقيقة ذلك الصيت الذي كانت امي أجدر به مني ، لانها هي وحدها التي علمتني . ورغم عجزها عن العمل بيد واحدة ، فقد كانت تستطيع ان تعلمني ، والمعلم الطيب افضل من عشرة عمال . ولكنني كنت متكبرة جدا ، فقلت لها : « انك تستطيعين الان ، يا اماه ، ان تكفي عن التسول ، فأنا اقدر ان اطعمك من عمل يدي ! » . ولكنها قالت : « صه ! الا تعلمين ان هذا المال يجب ان يكون مهرا لك ؟ » . وما اسرع ان ظهر جدك بعد ذلك — رجل يافع ملحوظ ، في الثانية والعشرين من العمر ، ومع ذلك يكسب كمية لا بأس بها من المال .. وتفحصتني امه جيدا ، ورات ما انا عليه من الفقر — وانني ابنة امراة مستعطية فاستنتجت من ذلك انني سأكون زوجة مطيعة .. مطيعة .. سمعت !.. وكانت ، بدورها ، بائعة للحلوى والكعك ، ذات نفس خبيثة شريرة ... ولكن ، سامحني الله ، لم نتحدث بالسوء عن الاموات ؟ وما فائدة ذكر القوم الاشرار ، ان الله يراهم ، والشيطان يحبهم ...

واطلقت ضحكتها الصادرة عن القلب ، فاهتز انفها بشكل يبعث على السخرية ، وشملتني عيناها بعطف حنون يفصح عن مراده اكثر مما تفصح الكلمات ...

• • •

وانا اذكر ليلة هادئة كنت اشرب فيها الشاي وجدتي في غرفة جدي . كان مريضا يقبع في سريره وقد خلع عنه قميصه ، وغطى كتفيه بمنشفة طويلة يمسح بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتحدر على جبينه وكان تنفسه سريعا أجش الجرس ، وعيناه الخضراوان تغشيهما سحابة داكنة ،

ووجهه محمرا منتفخا ، وأذناه المدببتان الصغيرتان متوردتين ، ويده ترتجف — كلما حاول ان يتناول قدح الشاي — بشكل يثير الشفقة حقا . كان رقيقا ، في ذلك اليوم ، على غير عادته ...

وراح يشتكي لجدتي بنغمة طفل مدلل :

— لم لم تضعي لي بعض السكر ؟

فاجابت بلطف ، في شيء من العزم ايضا :

— لان العسل اصلح لك .

فجرع قدح الشاي متململا باكيا ... قال :

— احذري ان أموت .

— لا تقلق ، فأنا ساهرة غير غافية .

— حسنا ! انا لو مت الان لاشبهت من لم يعش على الاطلاق — أو من عاش من اجل لا شيء ...

— اضطجع ، وكفاك ثرثرة .

ظل مضطجعا مدة قصيرة ، دون حراك ، مغمض العينين ، وهو يتلمظ بشفتيه الزرقاوين . ثم قفز فجأة ، وكأن احدهم قرصه :

— يجب ان تزوجي ياكوف وميخائيل باقصى ما تستطيعين من سرعة . فلربما جعلهما ذلك اكثر الفة وهدوءا . ما قولك ؟

وشرع يستعرض فتيات البلدة اللائقات ان يتزوج ولداه منهن ، بينما راحت جدتي تشتف الكأس من الشاي تلو الاخرى ، دون ان يبدو عليها ادنى اهتمام بالموضوع .

كنت ممنوعا ، عقابا على بعض ذنوب ارتكبتها ، من النزول الى الحديقة ... فجلست الى النافذة اراقب غروب الشمس ينعكس بريقه على نوافذ المنازل ، وأمتع الانظار بالقيلولة المشتعلة فوق المدينة . كانت جموع من الخنافس تدوي في الحديقة تحت شجر البتولا ، واحد العمال يضرب

بالمطرقة برميلا في الساحة المجاورة ، وشخص ما يشحذ السكاكين في مكان قريب مني . وكانت ترد من الوادي ، خلف الحديقة ، صيحات اطفال يلعبون بين الاشجار الكثيفة ، فاشتاق يائسا ، وقد اثقلت كآبة الغسق على قلبي، أن اكون بينهم اشاركهم لعبهم .

وأخرج جدي ، على حين بغتة ، كتابا انيقا للغاية ، لطمه براحة يده . وناداني بصوت انيس :

ــ انت ، أيها السنونو الصغير ! انت ، يا صاحب الاذنين الملفوفتين ! انت ، تعال هنا ! أجلس ، أيها المتري الوجه ! اترى هذه الاشارة ؟ انها « الف » في أب ، « ب » في باب ، « ت » في توت . ما هذه ؟

ــ « ب » في بـــاب .

ــ مضبوط ، وهـــذه ؟

ــ « ت » في تــوت .

ــ غلط ! « الف » في اب . انظر هنا ... « د » في دار ، « ج » فـي جار ، « ف » في فار ... ما هذه ؟

ــ « ج » فــي جــار .

ــ صحيح ، وهــذه ؟

ــ « د » فــي دار .

ــ رائع ، وهــذه ؟

ــ « الـــف » فــي أب .

فقاطعتنــا جدتــي :

ــ يحسن بك ان تضطجع بهدوء ، يا ابتـــاه !

ــ أطبق شفتيك ! ان هذا يروح عني ويبعد المتاعب عن ذهني ، تابع ، يا الكسي ! ...

ولف ساعده الحار الرطب حول رقبتي ، وأشار الى الحروف ، بينمـا أمسك في اليد الاخرى بالكتاب تحت انفي مباشرة .

كان يفوح منه مزيج من رائحة الخل ، والعــرق ، والبصل المشوي ، تكاد ان تخنقنـــي . . .

واهتاج فجأة ، بشكل غريب ، وصاح في أذنـــي :

ــ « م » في مطبخ . . . « س » في سيدة . .

كانت تلك الكلمات والاصوات مألوفة لدي ، وكذلك الامــور التي نعبر عنها ، ولكن الحروف السلافيـــة لم يكن لهـــا أدنى شبه بها على الاطـــلاق . فالسين تبدو أكثر شبهها بالدودة منها بالسيدة ، والميم بجريجـــوري الاحدب منها بالمطبخ ، أما الجيم المنتفخة فتذكرني بجدتي ، بينما كان في جدي شيء يجعله يشبه سائر الحروف كل الشبه . واستمـــر طويلا يعلمنـــي حـــروف الهجاء ، يسألني عنها بانتظام مرة ، وحسب هواه مرة اخرى . وأصابنـــي بعدوى ثورته ، فرحت اتصبب عرقا بدوري ، وأصيح بأعلى صوتي ، الامر الذي راق له كثيرا فأغرق في الضحك حتى اصابتـــه نوبـــات متتابعة مـــن السعـــال .

كان يتنهد ، وهو يضرب بيده على صدره والكتاب معا :

ــ انظري كيف تحمس لذلك ، يا أماه ! تفو ! تفـــو ، أيها الطاعـــون الاستراخاني ، ما بالك تصيح بهذا العنف ؟

ــ انك انت الذي يصيـــح . . .

ورحت ارنو اليه مبتهجا ، وقـــد جلست جدتـــي الينا ومرفقاهـــا على الطاولة ، واصابعها على خديها ، تضحك بهدوء وهي تراقبنا . . . قالت :

ــ كفاكما صياحا يذهب بعقليكما !

والتفت جدي الي ، وهو يفسر لي بالفـــة :

ــ اني اصيح لاني مريض . ولكن ، لم تصبح انت ؟

ثم حك رأسه الناضح عرقا ، وقال مخاطبا جدتي :

ــ لقد كانت المرحومة ناتاليا مخطئة عندما قالت ان ذاكرته رديئة . انها اشبه بذاكرة الحصان ! تابع ، أيها الافطس الانف !

ثم جذبني ، فيما بعد ، ناحية السرير مازحا :

ـــ ذلك يكفي ! احتفظ بالكتاب . سأسألك في الغداة عن كامل الابجدية، فاياك ان تخطىء في تلاوتها . وسأعطيك خمسة كوبيكات لقاء ذلك .

وعندما اقتربت لاستلم الكتاب ، ضمني اليه ، وقال بأسى :

ـــ ما الذي دفع امك الى الذهاب واهمالك هنا ، يا بني !

فتدخلت جدتي :

ـــ ما معنى الحديث عن ذلك الان ، يا ابتاه ؟

ـــ ان الحزن يدفعني الى ذلك ... آه ، يا لها فتاة من المؤسف أن تضل !

ودفعني عنه بحركة عنيفة :

ـــ امض من هنا والعب ! ولكنني امنعك من الخروج الى الشارع ، ابق في الساحة او في الحديقة . اتسمع ؟

كانت الحديقة هي بغيتي بالضبط ، اذ لا اكاد اظهر فيها حتى يشرع الاطفال الذين يلهون في الوادي يرمونني بالحجارة ، فلا ارغب الا في ان اكيل لهم الصاع صاعين .

كانوا يصيحون ، عندما يبصرون بي :

ـــ ها هي ذي البقة !

ـــ اضربوه !

لم اكن املك اية فكرة عن ماهية البقة ، وهذا يعني انه لا يمكنني اعتبار اقوال الاولاد اهانة موجهة الي .وكنت اغتبط اذ اجد نفسي خصما لكل تلك الجمهرة ، وارى اليهم يتراكضون عندما اصليهم بنار من الحجارة حامية لا تخطىء الهدف هنا وهناك ، ويختبئون وراء الادغال الكثيفة . وكانت امثال تلك المعارك لا تحمل حقدا ولا تترك شعورا بالاذية والضرر ، بل تنتهي دائما على خير وجه .

تعلمت القراءة بسرعة ، واظن ذلك ما جعل جدي يوجه الي المزيد من العناية والاهتمام ، ويقلل من مرات جلدي ، مع انني كنت ، في رأيي ، أستاهل من الضرب والجلد اكثر مني قبلا بما لا يقاس . ولما كنت ازداد سنا

واقوى جسدا ، فقد شرعت اخالف أوامره كثيرا ، فيكتفي بتعنيفي او بهز اصابعه في وجهي .

صور لي ، وقتئذ ، انه غالبا ما كان يجلدني في صغري دونما أدنى فائدة أو سبب معقول ، واخبرته برأيي هذا ذات يوم ، فنقر نقرة خفيفة تحت دقني ، وحملق في عيني ، وقالوهو يتشدق بكلامه :

ـ مـا . . . ذا ؟

ثم اضاف ، وهو يقهقه :

ـ أنت ، أيها الهرطوقي الصغير ! من أنت حتى تقرر عدد المرات التي استأهلت الجلد فيها ؟.. أنا الوحيد الذي يعرف ذلك ! أفهمت ؟

وامسك بي من كتفي ، بينما كنت استدير عنه ، ومرة ثانية راح يحملق في عيني :

أأنت خبيث ام ابله ؟

ـ لست ادري .

ـ لست تدري ، ما ؟ سأخبرك اذن ـ انت خبيث ، وهذا أفضل من ان تكون ابله ! ان الخراف بلهاء ، أفهمت ، والان ، امض والعب . . .

وسرعان ما ابتدات اتهجأ كتاب المزامير . وجدي يدرسني ، غالبا ، بعد تناول الشاي مساء ، حيث اقرأ في كل مرة مزمورا كاملا .

ـ س ، ع ، ي ، د . . . سعيد . . أ ، ل ، ر ، ج ل . . . رجل . . . الرجل . . . سعيد الرجل . . .

كنت اتهجى ذلك ، واصبعي الوسطى تنتقل على طول السطر . وكان الضجر يغمرني ، فاطرح عدة اسئلة مختلفة :

ـ من هو السعيد ؟ أهو الخال ياكوف ؟

ـ سأضربك على نقرتك فتعرف وقتئذ من هو السعيد .

كان جدي يهتف بهذه الكلمات وهو يلهث غاضبا . ولكنني اشعر أن غضبه ليس صحيحا ، بل من تأثير العادة فقط ، ولحفظ النظام ليس غير .

لم أكن لاخطىء قط ، اذ لا يلبث ، بعد لحظة ، أن يهمهم ناسيا وجودي:

ـ أف . عندما يأخذ باللعب والغناء يشبه الملك داوود كل الشبه ؛ ولكنه يشبه ابشالوم الخبيث في أعماله . قوي ، غشاش ، مهرج ـ تفو ! يرقص ويمرح فوق المشب ! حسنا : ولكن الى أي حد سيذهب بك رقصك لا أعتقد انه لن يطول !

فأتوقف عن القراءة لاستمع اليه ، وانتطلع الى وجهه الانيس المضطرب. كانت عيناه الضيقتان ترنوان من فوق راسي الى ما ورائي ، مليئتين بحزن عنيف يذوب قساوته المعتادة ؛ وحاجباه الذهبيان يرتعشان ، وأظافر أصابعه الملوثة بالصباغ تلتمع وهو ينقر على الطاولة بعصبية .

ـ ماذا ؟

ـ قص علي قصة . . .

فيدمدم . وهو يفرك عينيه كما لو استيقظ لساعته من النوم :

ـ هيا ! تابع قراءتك ، أيها الكسول ! انت تفضل ان تستمع الى الخرافات أكثر منك الى المزامير !

كنت واثقا انه يفضل القصص الخرافية على المزامير التي يحفظها عن ظهر قلب . وقد نذر الا ينام قبل أن يقرأ جزءا منها كل ليلة بصوت مرتفع ، فيرتلها كشماس الكنيسة عندما يرتل في كتاب الصلوات .

والح عليه حتى يرق قلبه أخيرا ، فيروي لي احدى قصصه قائلا :

ـ أوه ، حسنا ، انت ستحتفظ بالمزامير معك طوال حياتك ، اما انا فسأمضي قريبا لاقابل خالقي أمام كرسي الدينونة .

ويلقي برأسه الى الوراء ، وهو يستند الى حافة الكرسي العتيق الحادة ، ويثبت عينيه في السقف ، ويغرق في ذكريات أيامه الخالية . ثم يأخذ بالحديث عن ابيه والزمان الغابر . لقد حدث ، ذات مرة ، أن عصبة من اللصوص اغارت على بالاخنا مستهدفة دكان التاجر زاييف ، فركض والد جدي الى قبة الكنيسة لينبه الناس ، ولكن اللصوص ادركوه ، ومزقوه بسيوفهم ، ورموا بقطعه من فوق البرج .

ـ كنت طفلا صغيرا بعد فلم اشهد تلك الحادثة ، بل لم اعد اذكرها أيضا . فذكرياتي الاولى تعود الى مجيء الفرنسيين عام ١٨١٢ ـ وسني

حينذاك لا تتجاوز الثانية عشرة — حين ساقوا ثلاثين أسيرا الى بالاخنا ، وهم جميعا صغار البنية ، برزت عظامهم ، وتهلهلت ثيابهم حتى انتهت اسمال المتسولين — كانوا ، على اية حال ، اسوأ من هؤلاء منظرا — يرتعشون ويرتجفون ، وقد تجمدت اطراف بعضهم بردا فاضحوا عاجزين لا يستطيعون النهوض على اقدامهم . واراد الفلاحون قتلهم جميعا . ولكن الحراس حامية المدينة منعوهم عن ذلك ، وردوهم طرا الى اكواخهم . ثم سار كل شيء على ما يرام ، واعتاد الطرفان بعضهما بعضا ، فاذا الفرنسيين اذكياء القلب ، ثاقبوا الفكر ، خفيفو الحركة ، يتغنون بأغانيهم حيثما طاب لهم . وراح نبلاؤنا ينحدرون من نيجنسي نوفجورود في العربات للتفرج عليهم ، وفريق منهم يلعن الفرنسيين ويهز قبضته في وجوههم ، بل يضربهم في بعض الاحيان . . . بينما يحدثهم الفريق الاخر بلطف بلغتهم الفرنسية ، ويقدم اليهم المال والثياب العتيقة ليفرح قلوبهم بها . وأنا أذكر شيخا منهم ، كان من كبار النبلاء ، أخفى وجهه بيديه ، مرة وطفق يبكي ويصيح : « هلا رأيتم الى ما جناه ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟ » . تمعن في ذلك — روسي نبيل ذو قلب طيب — تأخذه الشفقة بمثل هذا الشكل على اولئك الغرباء الاجانب .

ويصمت جدي برهة ، ويغمض عينيه ، ويحني رأسه ، ويصفف بيده شعره الطويل . . . ومن ثم يتابع الحديث بعناية ، منقبا في مهامه ذكرياته القديمة :

وجاء ذلك الشتاء ، باعصاره الثائر المريع ، وريحه الباردة تزمجر بقسوة وعناد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يتراكضون احيانا حتى نوافذنا ينادون والدتي — وكانت تصنع كعكا للبيع — يقرعون الزجاج عليها ، يثبون عن الارض ويطلبون الكعك الساخن منها . ولم تكن أمي تسمح لهم بالدخول الى الكوخ ، بل نناولهم ما يطلبون من خلال النافذة ، فيتخاطفونه حارا يتصاعد البخار منه ، بعد خروجه من الفرن مباشرة ، ثم يخبئونه في طيات قمصانهم ، ويضمونه الى اجسادهم المتجمدة بردا فوق القلب تماما . ولم اكن افهم كيف يمكنهم تحمل تلك الحرارة الشديدة ! ولقد مات اكثرهم من البرد ، لان سكان البلاد الحارة لا يتحملون مثل ذلك الجليد . وقد أقام اثنان منهم

عندنا ، احدهما ضابط والاخر تابع له يدعى ميرون ، فاسكناهما غرفة الحمام في اقصى الحديقة . وكان ذلك الضابط فارع الطول ، نحيل الجسم ، لا يزيد عن حزمة من العظام والجلد ، يتجول في معطف نسائي يصل حتى ركبتيه . وكان لطيفا ، ذا نفس طيبة علته الوحيدة ادمانه على الشراب . ولما كانت امي تصنع الجعة وتبيعها خفية ، فقد كان يشتري مقادير كبيرة منها ... فاذا اصبح ثملا راح ينشد اغنياته التي لا تنتهي . ولقد تعلم شيئا من لغتنا، فكان يردد احيانا : « ان بلادكم غير بيضاء ، انها سوداء جافة ... » . وكان حديثه متقطع الالفاظ ، ولكنك تفهم ما يقصده . والحقيقة التي لا مراء فيها ان المنطقة الشمالية جافة فظة . ولكنك اذا ما انحدرت مع الفولجا اصبحت الاراضي دافئة ناعمة ، لا بل يقال انك اذا ما تخطيت بحر قزوين لم تر للثلج اثرا ... ولربما كان في ذلك شيء من الصحة ، فانظر كيف يخلو الانجيل ، وكتاب اعمال الرسل ، وسفر المزامير ، من ذكر الثلوج او الشتاء ، والسيد المسيح ولد وعاش في تلك البلاد .. عندما سننتهي من قراءة المزامير ساشرح واياك قراءة الاناجيل .

ويعود الى الصمت ، فيخيل الي انه يغفو ... ثم يشخص من خلال النافذة ، وقد ركز انتباهه في امر ما ، وضيق فرجة عينيه ، واتخذت ملامحه مظهر الحدة ... فاهمس بهدوء :

ـ هلا تابعت ؟

فيجيب ، وهو ينتفض :

ـ آه ، حسنا ! عما كنت اتحدث ؟ عن الفرنسيين ؟ حسنا ! لقد كانوا، بدورهم ، مخلوقات بشرية ليست اردأ منا نحن الخطاة ... وكانوا يتراكضون خلف والدتي وهم يصيحون : « مدام ، مدام ! » ويعنون بذلك « يا سيدتي » . ولكن تلك « السيدة » تخب نحو المنزل تحمل كيسا من الطحين يزيد وزنا عن المائة كيلو غراما ، فقد كانت تفوق الثور قوة وبأسا ، ظلت تفعل بي ما تشاء حتى جاوزت العشرين من العمر . وانا لم اكن ابدا ، في ذلك الوقت ، ضعيف البنية أو جبانا . اما ذلك التابع ميرون فكان مولعا بالخيل كثيرا ، ينتقل بين الاسطبلات ، ويسأل الناس بالاشارات السماح له بالعناية بالخيل . ولكن القوم خافوا منه بادىء الامر ـ فهو عدو ليس ما يمنعه من الحاق الاذى بها . ولكن لم تمض فترة من الزمن حتى أصبح الفلاحون ، بعد

ان جربوه ، يأتون اليه من تلقاء انفسهم : « هي ، انت ، ميــرون ، هــلا اتيــت ؟ » . فيضحك ويهز رأسه كالثور ، ويعدو نحوهم ركضا . كان شعره أحمر اللون كالجزرة ، له أنف كبير ، وشفتان عريضتان ، وهو سائس خيل عظيم ، له خبرة واسعة عن كيفية العناية بالخيول مهما كان مرضها .. وقد اضحى ، بعد ذلك ، سائسا في فيجني نوفجورود ، لكنه فقد عقله فيما بعد . وفي ذات يوم ، انهال رجال المطافىء عليه ضربا حتى مات ... اما الضابط فراح يذبل ويذبل مع قدوم الربيع ، ثم مات دون أدنى صوت او ضجة ، في عيد القديس نيقولا . كان يجلس الى النافذة في مسكنه غارقا في بحر من الاحلام فتوفى هكذا ، وهو يتطلع الى العالم ، وشعرت بالاسف من اجله ، وذرفت عليه بعض الدموع خفية ، فقد كان انسانا لطيفا ، اعتــاد ان يمسك بأذنى ليسكب فيها كلاما ناعما بلغته الخاصة . ولم أكن افهم مما يقــول شيئا ، لكن وقع تلك الكلمات في نفسي كان رائعا للغاية . ان العالم لا يحوي عددا كبيرا من ذوي القلوب الطيبة ، ومثل هذه الصداقات لا تبــاع في السوق . ولقد شرع ، مرة يعلمني طريقة الحديث بلغته الاصلية ، ولكــن امي منعته عن ذلك ، وقادتني الى الكاهن الذي امرها بجلدي ، ثم رفع شكوى ضد ذلك الضابط . لقد كان الناس شديدي البأس في تلك الايام ، يا صغيري ! وانت لن تذوق ما قاسيناه في زماننا — فان اناسا اخرين تحملوا ذلك عنك ، وهذا ما يجب الا تنساه أبدا ! خذني مثلا — لو انك تعلم فقط مبلغ ما عانيت !

واحلولكت الظلمة ، وكان جدي يتمدد في ذلك الجو القاتم بشكل غريب، وعيناه تشعان وتبرقان كعيني القط . وهو يتحدث عادة بهدوء ، واحتراس، وتأمل ... ولكنه امسى ، اذ راح يتحدث عن نفسه ، أكثر حمية وتفاخرا . ولم يكن ذلك منه يروق لي ، ولا كنت احب ايضا عظاته المستمرة :

— « تذكر ذلك ! » ... « اياك ان تنساه ! » .

لقد اطلعني على اشياء عديدة اتوق بكل نفسي الى نسيانهــا جميعا ، ولكنها تتشبث بذاكرتي مثل شوكة مؤلمة يستحيل انتزاعها ... لم يكن يروي لي شيئا من اقاصيص الجن — بل كانت سائر حكاياتــه مستمدة من واقــع الحياة ، ومن ماضيه بصورة خاصة . ولقد اكتشفت ان كثرة الاسئلة تزعجه كثيرا ، ولذا كنت اغتنم كل فرصة لالقي عليه اكبر عدد منها :

ــ قل لي أيهما افضل ــ الروسي أم الفرنسي ؟

فيجيب مغتاظـــا :

ــ ومن يستطيع الاجابة على ذلك ؟ انا لـــم أر الفرنسيين في وطنهـــم الاصلـــي .

ــ ان الفأر نفسه افاضل في حجره الخاص .

ــ وهل الروسيون طيبـــون ؟

ــ بعضهم ذلك وبعضهم لا ! كانوا اكثر طيبة أيام كانـــوا عبيدا تقيدهم السلاسل . أما الان ، وقد اصبحوا احرارا ، فقد نسوا العادات القديمة . ولا ريب ان الاسياد قساة القلوب نوعا ما ، ولكنهم اعقل من الموجيك . لا اقول هذا عنهم جميعا ، ولكن النبيل اذا كان طيب القلب مرة ، كـــان فاضلا جـــدا . . وبعضهم حمقى تماما ، يتقبلون ، كالاكياس ، كل ما تضعه فيهم . حقا ، ان بيننا لكثيرا من القشور ، ومن الصدف الفارغ ، يبـــدون للوهلة الاولى كالكائنات البشرية ، فاذا اقتربت منهم وتمعنت فيهم رأيتهـــم قشورا لالب فيها . ان ما نحتاج اليه هو شيء من الثقافة ، ان ما يلزمنا هـــو ان نشحذ عقولنا . ولكن ، لا يوجد هناك ما نشحذها به . .

ــ هل الروسيون أقويـــاء ؟

ــ بعضهم اقوياء ، ولكن القيمة ليست في القوة ، بل في المهارة ! فأنت مهما بلغت من القوة يظل الحصان متفوقا عليك في هذا المضمار .

ــ لماذا حاربنا الفرنسيـــون ؟

ــ حسنا ! الحروب مهمة الحكومات والقيصـــر ــ وليس لنا ، نحـــن الناس البسطاء ، ان نفهم هذه الامور . . .

ولكنني لن أنسى ، ما حييت ، ما اجابني به جـــدي يوم سألته عـــن بونابرت من يكون . . . قال :

ــ لقد كان رجلا شجاعا أراد ان يستولي على العالم اجمع حتى ستطيع جميع الناس ان يعيشوا في مساواة عادلة . فلا نبلاء ، ولا موظفـــون ، بل الجميع في مستوى واحد ، وستختلـــف الاسمـــاء لكن الحقـــوق ستتساوى للجميع . . . ولن يكون هناك أيضا الا ايمان واحد للجميع ، وتلك فكرة بلهاء

بالطبع لا معنى لها ... فليس الا سرطانات الماء تشبه بعضهـا بعضا ... خذ الاسماك مثلا ، حتى هي تختلف عن بعضها : فحوت سليمـان لا يشبه السمك الابيض ابدا ، والسمك النهري لا يداني السمك البحري ... ولقد كان لنا ، بدورنا ، بونابرتاتنا — فهناك مثلا رازيـن ستيفان تيموفييـف ، وبوكاتش ايميليان ايفنوف — ولكني ساخبرك عنهما في وقت اخر ...

وقد كان ، في اغلب الاحيان ، يرنو الي بعينيه المتسعتين مدة طويلة ، وكانه يراني للمرة الاولى ، وكان هذا يزعجني كثيرا .

ولكنه لم يحدثني ، ابدا ، عن والدي او عن والدتي ...

• • •

كانت جدتي تدلف احيانا الى الغرفة اثناء هذه الاحاديث .. فتقتعد ، في هدوء جم ، كرسيا في زاوية الغرفة ، وتعتصم بالصمت مـدة حتى تسأل على حين فجأة بصوتها اللطيف :

— اتذكر ، يا ابتاه ، كم كانت جميلة تلك الايام التي حججنا فيهـا الى ميرون نزور العذراء الطاهرة ؟ في اي عام حدث ذلك ؟

— لست اذكر بالضبط ، لكن ذلك كان قبل الكوليرا ، في السنة التى طهروا فيها الغابات من الاولنخاريين .

— صحيح ! انا اذكر كم كنا نخافهم !

— نعم ، نعـم !

فسألت من يكون هؤلاء الاولنخاريون ، وما دفعهـم الى الاختباء فـي الغابات . فاجاب جدي باشمئزاز :

— لم يكونوا الا فلاحين ارقاء ، هربوا من العمل في المصانع والحقول .

— وكيف قبضوا عليهـم ؟

— هل لك ان تحزر ؟ كان ذلك اشبه بالاطفال وهم يلعبون ... البعض يركضون ويختبئون ، والاخرون يمسكون بهم . وعندما تم القبض عليهم جلدوا بالسياط ، وضربوا بالعصي ، ثم جدعت انوفهم ، وكويت جباههـم بالنار كي يتضح للملأ العقاب الذي انزل بهم .

ــ ولم ذلــك ؟

ــ من يدري ؟ ان ذلك امرا مبهما غامض الاسرار ، ومن الصعب ان تميز المخطىء فيهم ــ اهو الذي فر ، أم الذي قبض على الفار ؟

وقالت جدتي ثانيــة :

ــ اتذكر ، يا ابتاه ، ما الذي حدث بعد النار العظيمة ؟

فاستفسر جدي ، وقد قطب وجهه بدقة :

ــ اية نار عظيمــة ؟

وغرقا في ذكرياتهما ، وكانا دوما ينسيان وجودي في مثل هذه الحال ، فتتمالى كلماتها بهدوء ، موزونة ، حتى يخيل الي انهما ينشدان اغنية شجية، لكنها اغنية حزينة في الوقت ذاته ، موضوعها النار ، والامراض ، والمصائب التي تنزل بساح المخلوقات البشرية ، والموت المفاجىء ، واللصوص الاذكياء، والدراويش ، والنبلاء النزقون المنحدرون من الطبقات الراقية ، والمتسولون المتعددون ...

وتمتم جــدي :

ــ ما اكثر ما شاهدنا ! ما اكثر ما عشنــا !

فسألت جدتــي :

ــ وهل كانت حياة سيئة ؟ هلا ذكرت روعة ذلك الربيع الذي ولدت فيه فارفــارا ؟

ــ كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، سنة الحملة على المجر ، ولقد ساقوا معهم عرابها تيخون بعد يوم واحد من عمادها فحسب .

فتنهدت جدتي ، وقالت :

ــ وهو لم يرجع منذ ذلك الحين !

نعم ، لم يرجع ! ومنذ ذلك اليوم حتى الان ورحمة الله تنزلق بعيــدا عنا ، كالماء اذ يسيل على سطح مشحم ... آه ، ان فارفارا ...

ــ كفى ، يا ابتــاه ...

فأجاب غاضبـــا :

لماذا كفى ؟ هؤلاء اولادنا ينقلبون أرذالا رغم كل العناية التي بذلت لهم. لقد ذهبت سائر جهودنا هباء منثورا ! كنا نظـــن ، انت وانـــا ، اننا نضـــع اشياءنا في حرز امين ، ولكن الله أراد ان يضيع كل شيء من بين أيدينا . . .

وكمن وسم بالنار ، اخذ يقفز بين زوايا الغرفة ، يئن ، ويهاجم اولاده، ويهز قبضته المتعظمة الصغيرة في وجه جدتي ، وهو يصيح :

ــ وانت دافعت دوما عن هؤلاء اللصوص ، وافسدتهم بتدليلك لهم ، انت ، ايتها الساحرة ! انت ، ايتها الساحرة !

والقى به غضبه العنيف في زاوية الايقونات ، حيث شرع يضرب صدره النحيل بكلتا قبضتيه ، وينوح بصورة مؤثرة :

ــ لم ذلك ، يا ربي ؟ هل انا اكثر خطيئة من سواي مـــن الناس حتى استحق هذا العقاب القاسي ؟

وراحت عيناه النديتان تلمعان سخطا والما ، وجسده يرتجف كالورقـــة الجافة في مهب الريـــح . . .

كانت جدتي تظل قابعة في الظلمة ، وهي ترسم اشارة الصليـــب ، ثم تنهض ، وتمشي اليه بحذر ، وتقول معزية :

ــ لم تعذب نفسك هكذا ؟ ان الله بكل ما تصنع يداه عليـــم ! فليس هناك كثرة من الاولاد افضل من ابنائك . ان الامر متشابه في كل مكان ، يا ابتـــاه . . خصومات ، ونزاعات ، وضوضاء . . . ان جميع الامهات والآباء يغسلون خطاياهم بدموعهم الخاصة ، ولست الوحيد الذي . . .

كانت كلماتها ، احيانا ، ترد اليه الهدوء ، فينزلـــق في فراشه متعبـــا بينما ننطلق ، جدتي وانا ، الى جناحنا الخاص . ولكنه ، اذ اقتربـــت منه ذات مرة ، تخاطبه بكلماتها اللطيفة ، استدار حول نفسه ولطمهـــا بقبضته لطمة رنانة على وجهها . فترنحت جدتي ، وقد شدت يدهـــا على شفتيها ، حتى اذا استردت هدوءها ، قالت في صوت هادىء لطيف :

ــ يا لك من احمـــق !

ثم بصقت الدم عند قدميه . فرفع ذراعيه فوق رأسه ، وزعق مرتين :

ـــ اذهبي من وجهي قبل ان اقتلــك !

فرددت جدتي ، وهي تتجه صوب الباب :

ـــ أحمــق !

فالقى بنفســه خلفها ، ولكنها اجتازت العتبــة دون تسرع ، وصفقــت الباب في وجهه . . . فصرخ الشيخ ، احمر اللون كالفحم المتأجج ، وقد أمسك بقبضة الباب يضرب عليه بأظافـــره :

ـــ يا للفاجرة العجـــوز !

كنت جالسا على ظهر الموقد ميتا اكثر مني حيا ، عاجزا عن تصديق عيني. لقد كانت المرة الاولى التي تضرب فيها جدتي في حضوري ، ولقد تألمت مـــن شناعة ذلك ، وكشفت فعلته تلك عن صفة جديدة فيه لا يمكـــن ان يبررها شيء على الاطلاق ، راحت تثقل علي بنير لا يطاق . . . ظل واقفا هناك متعلقا بقبضة الباب ، وقد أربد وجهه فكأن الرماد ذر عليه . وفجـــأة ، خطا الى منتصف الغرفة ، وسقط على ركبتيه ، وارتمـــى الى الامـــام مستندا على ذراعه . ثم نهض واقفا ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصيح :

ـــ يا الله ! يا اللـــه !

فتدحرجت على قرميد الدكة الحار الـــذي بدا لـــي وكأنه مصنوع من الجليد ، ثم أطلقت ساقي هاربا . . .

كانت جدتي في الطابق العلوي تغدو وتروح ، وهي تتغرغر كميـــة من الماء في فمهـــا .

هل تتألمـــين ؟

فمضت الى زاوية الغرفة ، وبصقت الماء في المغسلة . . .

أجابت برزانـــة :

ـــ لا ، أبدا ! ان اسنانـــي لم تصب بسوء ـــ لقد جرحـــت في شفتـــي فقـــط . . .

ـــ لماذا فعل ذلــك ؟

فأجابت ، وهي تشخص الى النافذة :

ـــ لقد فقد صوابه ! كم يصعب عليه ، هو الرجل الشيخ ، ان يتحمل هذه المصائب كلها ! . . . اذهب انت الى فراشك ، وانس ما جرى . .

فسألتها عن شيء اخر ، ولكنها صاحت بشدة غـــير مقصودة ، وغير معتـــــادة :

ـــ الم تسمعني ؟ اذهب الى فراشك ! يا لك من ولد عاق !

جلست قرب النافذة تمص شفتها وتبصق ، من حين لاخر ، في منديلها. ظللت أنظر اليها طول الوقت ، وأنا اخلع ثيابي ، وفوق رأسها تلتمع كوكبة من النجوم في غسق الليل . كان كل شيء هادئـــا في الخارج ، وكـــل شيء في الداخل مظلما . وعندما التحفت الغطاء تقدمت مني ، وداعبـــت جبينـــي بلطـــف :

ـــ نم في سلام . اني سانزل اليه الان . . . فلا تأسف من اجلي ، أيها العصفور الصغير ! ان لاخطائي نصيبا كبيرا في ذلك . هيا ، الى النوم !

قبلتني وخرجت ، وخلفتني غارقا في بحر من الحزن والالـــم . فقفزت خارج السرير الدافيء الطري ، ومضيت الى النافذة حيث رحت أحملق في الطريق الخالي ، وأنا أرزح تحت عبء عذاب لا يطاق . . .

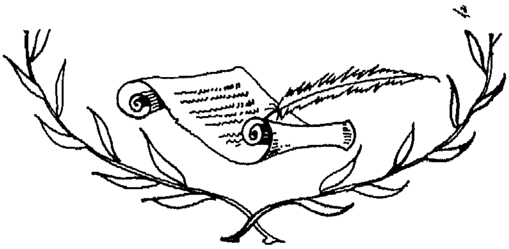

٦

مرة اخرى ، امست الحياة كابوسا لا يحتمل ! ففي ذات مساء ، وقد انتهينا من تناول الشاي ولجأنا ، جدي وأنا ، الى قراءة المزامير ، بينما راحت جدتي تغسل الصحون والاواني ، اندفع الخال ياكوف كالريح العاصفة داخل الغرفة . . . كان اشعث الشعر كعادته ، يشبه الى حد بعيد مكنسة بالية مهترئة . ورمى بقبعته في احدى زوايا الحجرة وراح يتكلم بسرعة دون ان يلقي سلاما او تحية ، وهو يقوم اثناء ذلك بحركات جنونية همجية غريبة :

ـــ ان ميخائيل مغتاظ ، يا ابتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، وامسى كالمجنون ! فكسر الصحون ، ومزق ثوبا من الصوف يخص أحد العملاء ، وحطم النافذة ، وشتمني وجريجوري ، وهو الان في طريقه الى هنا ، وقد أقسم ان ينال منك ! كان يعوي : « سأنتف الشعر عن لحية والدي ! » ، ثم يصيح: « وسأقتله ! . . . » . يحسن بك ان تنتبه لنفسك . . .

وانحنى جدي على الطاولة ، ونهض على قدميه بصعوبة ، وقد تشنج وجهه وتجمع عند انفه حتى اشبه بلطة صغيرة ، وزعق قائلا :

ـــ اتسمعين ذلك ، يا اماه ؟ ما قولك ، ايه ؟ انه يريدان يقتل والده! هذا هو ، من لحمي ودمي ! حسنا ، لقد حان الوقت ! لقد حان الوقت ! يا شباب . . .

واصلح من وضع كتفيه ، وراح يتخطر في الغرفة غدوة ورواحا ، ثم مضى الى الباب واترسه بمزلاجه الثقيل . قال :

ــ انكما تتسابقان وراء مهر فارفارا دوما ! انا اعرف ذلك ! ولكن اليك ما ستنالـــه . . .

واستدار نحو ياكوف ، وانحنى ساخرا تحت انفه مباشرة . . .

وتراجع هذا الاخير ، وقال بصوت مغتاظ :

ــ وما ذنبي انا ، يا أبتـــاه ؟

ــ أنت ؟ اني أعرفك انت ايضا !

لم تقل جدتي شيئا البتة . بل راحت تضع الفناجين بسرعة في الخزانة ــ بكل بساطة ــ ثم تغلق عليهـــا .

ــ لقد جئت احميـــك !

فضحك جدي بخبـــث :

ــ ها ! ذلك جميل اعرفه ! اشكرك ، يا بنـــي ! اسمعي ، يا أمـــاه ! أعطي هذا الثعلب شيئا يشتغل به، قضيب النار ، او المكواة ، وانت يا ياكوف فسيلينيتش ، في اللحظة التي يتوصل اخوك فيها الى الدخول فاعطه اياهـــا ــ على راسي . . .

فدفع خالي يديه في جيبه ، وانتحى بعيدا احدى الزوايا :

ــ حسنا ، ما دمت لا تريد ان تصدقني .

فصاح الجد ، وهو يضرب الارض بقدمه :

ــ أصدقك ؟ انت ؟ افضل ان أصدق قطا ، او جرذا ، او خنزيرا ، أما انت فلا ! فأنت الذي سقيته المسكر واثرته . . . انا أعرف ذلك ! حسنا . . . والان ، عليك ان تتخلص من احد الاثنين . هيا ، واختر . . . اقتل احدنا : هـــو او انـــا !

واستدارت جدتي الي ، وهمست :

ــ أسرع الى الطابق العلوي ، وارقب خالك ميخائيل من خلال النافذة، واخبرنا سريعا عندما تلمحه ! هيا الى فوق ، اركض !

تصعدت السلم نهبا ، وارتفقت النافذة ...

كنت خائفا نوعا ما لمجرد تفكيري بما سيفعله خالي الحانق عندما يبلغ المنزل ، لكن مزهوا بالمسؤولية الخطيره التي عهد بها الي . كان الشارع عريضا ، غطته سحابة كثيفة من الغبار تبدو من خلالها حوانيت الحذائين ، وهو يذهب بعيدا ناحيه الشمال وينجاوز المنحدر ، ويفضي الى ساحة اوستروجنايا ، حيث ترتفع ابنية السجن القديمة الشهباء اللون بابراجها الاربعه المنتصبة برسوخ في التربة الطينية . وكان في ذلك البناء جمال كئيب مثير للشعور . والى اليمين ، لم يكن الا ثمة ثلاثة منازل تفصل دارنا عن ساحة سينايا التي يحدها من الجهة المقابلة معسكرات الاسرى الصفراء ، وبرج المراقبة الذي يدور الحارس فيه ككلب تقيده سلسلته ... اما الساحة فكانت مليئة بالخنادق والحفر التي طاف قاع احداها بوحل مخضر ... وعن يمين ذلك ، كانت بحيرة دوكوف حيث حفر خالاي مرة ، كما روت لي جدتي فيما بعد ، تغرة في الجليد يريدان القاء والدي فيها ... وثمة درب ضيق جانبي ينفتح مقابل نافذتي تماما ، تحف به منازل صغيرة كثيرة الالوان تنتهي عند كنيسة الاقمار الثلاثة ، وهي بناء ضخم يجثم على الارض بثقل وارهاق . كنت اذا نظرت من نافذتي باستقامة بدت لي السقوف أشبه بقوارب متلونة مقلوبة تسبح فوق امواج الحدائق الخضراء وتعوم .

وكانت دور شارعنا الغبراء التي جرد لونها بفعل رياح فصول الشتاء الطويلة ، والتي طالما اغتسلت بأمطار الخريف اللامنتهية ، تتراكم متراصة الى بعضها كجماعة من المتسولين عند بوابة الكنيسة ، تسترق النظر بنوافذها الناتئة وكأنها مثلي تنتظر شيئا ما ، والناس القلائل الذين وقع بصري عليهم يقطعون الطريق مبطئين ، وكأنهم تلك الصراصير الناعسة تتسلق جدران الموقد لتأوي الى الظل مرتاحة اليه .. وشرعت حرارة خانقة تهب على نافذتي ، تحمل في طياتها رائحة غريبة كريهة في مزيج من فجل الربيع وجزره. وما زلت اذكر ، حتى هذه الايام الحاضرة ، ان تلك الرائحة لم تكن تطاق ، وانها بعثت في نفسي مقدارا عظيما من كآبة لا مبرر لها ولا سبب .

كان المنظر مملا ، مملا حتى ليصعب احتماله ، فاذا بصدري يزدحم بشيء أشبه بالرصاص السائل ثقلا ، راح يضغط على أضلاعي حتى صور لي انني سأنفجر مثل اناء مليء بالبخار ، تضيق تلك الغرفة الصغيرة الشبيهة بالنعش عن استيعابه .

وفجأة ، لمحت خالي ميخائيل يبرز من وراء أحد المنازل الشهباء في زاوية الدرب الجانبي ، وقد غاص رأسه في قبعته حتى الاذنين . كان يرتدي معطفا قصيرا ، وحذائين يبلغان ركبتيه غطاهما الغبار تماما ، وقد اختفت احدى يديه في جيب سرواله ، بينما أمسكت الاخرى بلحيته تشد عليها بحنق وغيظ . ولم استطع أن أميز ملامح وجهه ، ولكن مظهره كان يوحي بانه يستعد لان يقفز حلال الشارع ، ويغمد مخالبه السوداء الملبئة بالشعر في منزل جدي . وكان يجب علي أن أهبط الدرج بسرعة لاخبرهم بمجيئه ، ولكني لم استطع سبيلا الى انتزاع نفسي بعيدا عن النافذة ، بل رحت أراقبه يتقدم بحذر شديد ، يعبر الشارع وكأنه يخاف على حذائيه الرماديين ان يتسخا ، ومن ثم بلغ سمعي قرقعة الزجاج وصرير المفصلات وهو يفتح باب الحانة وينسل الى داخلها .

هبطت الدرج أربعا اربعا ، وطرقت باب غرفة جدي ، فصاح العجوز بخشونة دون ان يفتح الباب :

— من هناك ؟ انت ؟ حسنا ؟ ادخل الى الحانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس ! عد من حيث أتيت . . .

— انـي خائف ! . . .

— لا حيلة لي في ذلك .

فرجعت ادراجي الى النافذة . . .كانت الظلمة قد ابتدات تنتشر ، فازداد غبار الطريق كثافة وسوادا . وتدحرجت من النوافذ اضواء مصفرة راحت تنتشر كبقع زيتية متزايدة الاتساع ، وتصاعد من المنزل المقابل ضجيج موسيقى بعضها جميل مفرح ، وبعضها الاخر كئيب محزن .. وكان أحدهم يغني في الحانة ، وكلما فتح الباب تناهى الى سمعي صوت منكسر متعب اعرف فيه صوت المتسول نيكيتوشكا الاعور ، وهو شيخ ملتح اغمضت عينه اليسرى ، بينما اشبهت اليمنى فحمة حمراء تنفث لهبا . وكان اصطفاق يطغى على غنائه ، فنصمت الاغنية وكأنها قطعت بضربة فأس قطعا مباغتا . . .

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول ، وحيثما كانت تسمع اليه يغني تتنهد وتقول :

ـــ ما أسعده في هذه النغمة اذ يعرف جميع هذه الاغاني الرائعة !

وكانت تدعوه الى ساحتنا أحيانا ، فيجلس على عتبة الباب مستندا الى عصاه ، يغني منظومات من الشعر ، بينما تقبع جدتي بالقرب منه تقاطعه بأسئلتها المتعددة :

ـــ اتعني انك تود أن تقول ان العذراء الطاهرة ظهرت في ريازان ؟

فكان يجيب واثقـا :

وزحفت على طول الشارع موجة من ضنى ناعس غير مشعور بها ضيقت الخناق على قلبي ، وراحت تعمل على اغلاق عيني . لو ان جدتي تأتي فقط! او حتى جدي ايضا ! اي رجل كان ابي حتى يبغضه خالاي وجدي هكذا ، في حين تتحدث جدتي وجريجوري والمربية يفجينيا عنه بكل ما هو جميل ولطيف ؟ واين هي والدتي ؟

اضحيت ، في المدة الاخيرة ، افكر فيها اكثر فاكثر ، اتصورها بطلة سائر قصص جدتي واساطيرها . وكان صدوف أمي عن العيش مع عائلتها يكفي وحده ليرفع من قدرها في عيني ، ويضاعف من احترامي لها ، فأتخيل انها تحيا مع عصابة من قطاع الطرق في أحد الحانات ، يسرقون الاغنياء ويوزعون ما نهبوه على الفقراء من الناس ، او لعلها تعيش في كهف في الغابة، مع عصابة من اللصوص طيبي القلوب طبعا ، تطبخ لهم طعامهم وتحرس ذهبهم المسروق ، او اني اراها هائمة على وجه الارض ، تضرب في ارجائها وتعدد كنوزها مثل ينجاليتشيفا « الاميرة اللصة » ، تصحبها العذراء المقدسة التي تهمس لها باستمرار ، كما كانت تفعل للاميرة اللصة :

« أنا لم اجرد أرضنا عبثـا ،
مما حواه كنزها الذهبي ..
يا من سرقت المال لاهية ،
قومي ، واخفي العار ، وانتحبي ! »

فتجيبها والدتي بكلمات الاميرة اللصة :

« اغفري لي ، أم الاله ، طموحي ،

وارحمي نفسي ، واصفحي عن ذنوبي !

فأنا لم اسرقه من اجل روحـــي ،

انما كـــان لابنـــي المحبوب ! »

وعندئذ تسامحها العذراء المقدسة . وهي التي تحمـــل قلبا نقيا طيبا كقلب جدتي ، وتقول لهـــا :

« دعي الكهف ، فارفارتي ، واخجلي ،

وهيـــا اتركـــي الان اولئكـــا !

ولا تسرقي مـــال جـــارك الا

اذا كنت محتاجـــة ذلكـــا !

واياك ان تلعنـــي أبـــدا ! . . .

واياك ان تظلمـــي احدا ! . . . »

وغرقت في ذكريات هذه الاساطير كما يغرق المرء في حلم لذيذ عذب . ولكن زعاقا ، وضجيجا ، وهتافات واردة من الحانة والساحـــة في الاسفـــل بعثتني من غفوتي ، فانحنيت على حافة النافذة لارى جدي ، والخال ياكوف، وشخصا اخر من مستخدمي الحانـــة تبعث هيئتـــه على الضحك ، يدفعون الخال ميخائيل الثمل خلال البوابة الى الطريق . كان يشق طريقه متعثرا ؛ فيركلونه ، ويلطمونه على الذراعين ، والقفا ، والكتفـــين ، حتى ذهب اخيرا يتدحرج في غبار الطريق . . . واغلقت البوابة وارتجت بالمزلاج والمتراس ، والقي بقبعة الخال السكران من فوق الحاجز . ثم اضحى كل شيء هادئا صامتـــا .

وبعد أن اضطجع خالي ميخائيل المنهول المهلهل ساكنا فترة من الزمن. عاد فانتصب على قدميه ، وتناول حجرا من الارض تذف البوابـــة به محدثا بذلك دويا أشبه بصوت برميل فارغ على الارض ، فاندفع من الحانة اناس سود الوجوه ، يتزاحمون ويشرئبون باعناقهم وهـــم يحركون أذرعتهم فـــي الفضاء ، كما اطلت بعض الرؤوس من نوافذ المنازل ، واصبح الشـــارع يعج بالصياح والضحك . كان كل ذلك ساحرا حلوا كاحدى اساطـــير الجنيات ، لكن مزعجا في الوقت ذاته ، ومخوفا ايضا . . .

وعلى حين غرة انتهى كل شيء ، وانصرف الجميع ، وخيم السكون . .

... وهذه جدتي متكورة على صندوق للثياب ، محدودبة الظهر ، عديمة الحركة ، تكاد لا تتنفس ، وانا اقف قبالتها اربت على خديها الناعمين الدافئين النديين ، دون أن تلقي فيما يبدو الى ذلك بالا ، وهي تتمتم بائسة باشياء كثيرة :

— رباه العزيز . الم يكن لديك ما يكفي من العقل لتوزعه علينا ، أنا واولادي ؟ رباه ، كن رحوما بنا ...

• • •

احسب ان جدي لم يعش في منزل بوليفوى أكثر من سنة واحدة — من الربيع الى الربيع فقط . ولكن الدار اكتسبت ، في تلك المدة القصيرة ، شهرة سيئة للغاية . فكان الصبية يأتون بوابتنا متراكضين متزاحمين ، في كل أحد تقريبا ، فيتجمهرون ويأخذون بالهتاف مبتهجين فرحين :

— هناك معركة جديدة في دار آل كاشرين !

وكان الخال ميخائيل يأتي ، بصورة عامة ، في كل مساء تقريبا ويبقى طوال الليل ، جاعلا من المنزل هدفا لحصاره ، ومن سكانه فريسة للقلق الدائم ...

وغالبا ما يصطحب معه مساعدين أو ثلاثة ، وهم فتيان بائسون يستخدمهم في معمل كونافينو ، فيتسلقون السور سوية ، ويهبطون الى الحديقة حيث يطلقون العنان لما يمليه عليهم خالي الثمل ، فيقتلعون جذور الفريز ، والاغصان الخضراء ، وكل ما يقع في متناول أيديهم . وفي ذات مساء ، انقضوا على غرفة الغسيل يحطمون كل ما يمكن تحطيمه فيها ، من الرفوف حتى المقاعد والقدور . واخذوا معهم الموقد بعد أن اقتلعوا بلاط الارض ، وخلعوا الباب وأخشاب النوافذ .

وكان جدي يقف الى النافذة ، صامتا ، مكفهر الوجه ، يصغي اليهم وهم يدمرون ممتلكاته ، اما جدتي فتركض عبر الساحة ، حيث تغيب في الظلمة فلا يبلغنا منها سوى صوتها المتوسل .

— ميخائيل ! فكر فيما تفعل ، يا ميخائيل !

فتتلقى الجواب سلسلة من الاوساخ والشتائم الروسية البلهاء التي يتجاوز معناها ، من دون ادنى ريب ، افهام ومشاعر تلك الحيوانات التي تقسىء بها .

لم يتبادر الى ذهني ابدا ان الحق بجدتي في مثل تلك اللحظات : كان ذلك مستحيلا ، ولكن البقاء دونها أمر مرعب حقا ، فامضي الى غرفة جدي ، ولكنه يزعق في وجهي بقسوة :

— اخرج من هنا ، ايها الملعون !

فأسرع الى الطابق العلوي ، اتفرس في ظلمة الحديقة ، مثبتا بصري في جدتي ، ساعيا الا تضيعها عيناي ، وأنا اصيح وانا اديها خوفا من ان يفتكوا بها . ولكنها تأبى الرجوع ، بينما يطلق خالي الثمل على امي ، لدى سماعه صوتي ، كل ما في جعبته العامرة من الشتائم الدنسة والسباب البذيء .

وحدث ان مرض جدي ذات مساء ، فتمدد في فراشه وراح يعول بشكل يقطع نياط القلب ، وهو يؤرجح راسه الى الامام والخلف فوق الوسادة :

— اهذا ما عشت له ، واخطأت من اجله ، وادخرت المال في سبيله ؟ لولا الخوف من العار لاستدعيت الشرطة ، وسقتهم أمام المحكمة ... يا للفضيحة ! من ذا الذي سمع ابوين يسلمان اولادهما للشرطة ؟ لم يبق امامك اذن ، ايها العجوز ، الا ان تتحمل كل شيء او تظل مضطجعا هنا دون حراك !...

وفجاة رمى قدميه عن حافة السرير ، ومضى يخب الى النافذة . فصاحت جدتي ، وقد امسكت به من ذراعه :

— قف ، الى اين انت ذاهب ؟

فأمرها ، وهو يكاد يختنق :

— اعطني قنديلا !

فاشعلت جدتي شمعة قدمتها اليه ، فأمسك بها كالجندي اذ يمسك

بندقيته ، وصاح هازئا من خلال النافذة :

ــ تفو ، مبشكا ! يا سارق الليل ! ايها المجنون ! ايها الكلب المستكلب !

فاذا بلوح من زجاج النافذة يتهشم في اللحظة نفسها ، وتقع نصف آجرة على المائدة قرب جدتي . فهتف جدي في حالة لم ادر على الضبط ان كانت بكاء أم ضحكا :

ــ لقد اخطأت الهدف !

فالتقطته جدتي بين ذراعيها كما تفعل بي ، واحتملته الى السرير ، وهي تغمغم بصوت مرنجف :

ــ ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو حدث شيء لكانت سيبيريا تنتظره ! اتظنه يدرك ماذا تعني سيبيريا عندما يكون في مثل هذه الحال ؟

واضطجع الجد ، ترتجف ساقاه ، وهو يبكي بصوت خشن :

ــ فليقتلني ...

ودفدف من الخارج صوت زمجرة وغضب وصخب ... فاختطفت قطعة الاجر عن الطاولة ، وركضت الى النافذة ... ولكن جدتي أمسكت بي ، ودفعتني الى الزاوية ، وهي تفح :

ــ ايها الابله الصغير !

وفي مرة ثانية تسلق خالي الباب الخلفي ، وشرع يضرب عليه بهراوة غليظة ، ووقف جدي في الصالة ينتظره ، يعضده اثنان من الجيرة ، يحمل كل منهم هراوة في احدى يديه . وكانت هناك ايضا زوج صاحب الحان البدينة ، تحمل حبلا طويلا مدورا . اما جدتي فقد وقفت خلف الجميع تتوسل :

ــ دعوني اصل اليه ... دعوني اقل له كلمة واحدة ...

ورفع جدي هراوته متهيئا لكل طارىء ، وقد مد قدما الى الامام ، فاضحى بذلك شبيها بالفلاح حامل الرمح في لوحة « صياد الدببة » . وعندما

مضت جدتي اليه دفعها عنه ، بصمت ، بقدمه ومرفقه ... كانوا ، اربعتهم، يقفون في وضع وعيد ، وتهديد ، وارتقاب ... وكان قنديل مثبت في الحائط فوق رؤوسهم يضيء وجوههم بشعاعاته المتلونة . اما انا فوقفت اراقب ذلك من الطابق العلوي ، تفعمني الرغبة في ان اخطف جدتي الى جانبي ، بعيدا عن ذلك المكان المرعب .

ظل خالي يضرب الباب ثائرا ، حتى تحطمت مفصلته السفلية وانهارت فتركته معلقا بالمفصلة العلوية وحدها ، وهي الاخرى تهدد بالانهيار بين لحظة واخرى . واتجه جدي الى معاضديه ، وقال لهم بذات الصوت المتكسر:

ــ اضربوه على يديه وساقيه ، وحذار من اصابته في راسه . انتبهوا !

كان بالقرب من الباب نافذة صغيرة لا تسمح لاكثر من الراس بالمرور من خلالها ، فكسر خالي زجاجها ، وتركها فاغرة فاها في الظلمة ، مزركشة بشظايا الزجاج المكسور كعين مقلوعة . فركضت جدتي الى هذه النافذة ودفعت يديها خلالها ، ولوحت بهما لميخائيل وهي تقول :

ــ ميشا ، بحق المسيح ، ارجع من حيث اتيت ! سيعطلون احد اعضائك ان بقيت ! ارجع !...

ولكنه ضربها بهراوته ... واستطعت ان ارى شيئا ثقيلا يومض قرب النافذة يصيب ذراعها ، فاذا بها تسقط على الارض ، وهي تصيح مرة ثانية:

ــ ميشا ، اهرب ...

ثم تكومت على نفسها ، وصمتت ...

وصرخ جدي ، في صوت مخوف :

ــ آه ... اماه !

وفتح الباب ، واندفع خالي ميخائيل منه الى الداخل ، ولكنه سرعان ما ترنح وسقط على العتبة ككتلة من طين .

وحملت زوج صاحب الخان البدينة جدتي الى غرفة جدي حيث تبعها بعد قليل ...

سأل مغتما ، وقد انحنى عليها :

ــ هل كسر العظم ؟

فأجابت ، دون ان تفتح عينيهـــا :

ـــ يبدو كذلك ! ولكن ، ماذا فعلتم به ـــ ماذا فعلتم به ؟

فصاح الجد غضبـــا :

ـــ استردي عقلك ، يا امراة ! اتظنين انني وحش مفترس ؟ لقد قيدناه، وهو يضطجع الان في الخارج ، في الاسطبل . لقد صببت سطلا من الماء على وجهه ... يا لذلك الشيطان الذي انجبته ! ترى من أين جئت به ؟

فتأوهـــت جدتي ...

وقال جدي ، وهو يجلس الى جانبها على السرير :

ـــ لقد ارسلت في طلب المجبرة ، حاولي ان تتحملي ذلك بعض الوقت . انهما سيحملان الموت الينا ، يا أماه ! انهما سيؤديان بنا الى المقبرة قبل ان يحين اجلنـــا !

ـــ اعطهما كل شيء .

ـــ وفارفـــارا ؟

استمرا في الحوار مدة طويلة ، جدتـــي بصوتها الهادىء الحزيـــن ، وجدي بصوته النزق الغاضب .

وأخيرا ، ظهرت امراة صغيرة حدباء ، يمتد فمها من الاذن الى الاذن ، مفتوحا أبدا كفم السمكة فوق فكها الاسفل الذي يرتجـــف دون انقطـــاع ، يشطر منخر حاد بارز شفتيها العليا حتى ليخيل الى الناظر اليه انه يسعى الى الارتماء في احضان الجوف الفاغر فاه . أما عيناها فصغيرتان غائرتان ، تستحيل رؤيتهما . ولم تكن تمشي ، بل تزحف بالاحـــرى على الارض متكئة على عكازين ، وهي تحمل في احدى يديها حزمة صغـــيرة يصدر عنها رنـــين غريـــب ...

ظننت انها الموت يزحف نحو جدتي ، فاندفعت اليهـــا اصيح بكل ما في مـــن قـــوة :

ـــ اخرجى من هنـــا !

لكن جدي اختطفني ، وحملنى بين ذراعيه ، وصعـــد بي الى الطابـــق العلـــوي .

٧

ادركت في وقت مبكر جدا أن اله جدي يختلف كل الاختلاف عن اله جدتي . فقد كانت هذه الجدة ، بعد ان تستيقظ صباحا ، تظل في السرير مدة طويلة تمشط شعرها المدهش ، فيهتز راسها ، وتصر اسنانها ، وهي تسرح خصله الحريرية السود الطويلة ، وتلعنها بصوت خفيض خشية ايقاظي :

فليصبك الجدري ... فليصبك الطاعون ... فلتحل اللعنة عليك ..

وكانت تصدف احيانا عن تصفيفه فتجمعه ، دون عناية ، في جديلة واحدة ، وتعجل بالاغتسال ، وجمجمة غضب تند عنها طوال الوقت ، ثم تجثو تجاه الايقونات دون ان يمحي عن وجهها العريض ما ارتسم عليه من آثار الغيظ والنوم . وعندئذ يبدأ اغتسالها الحقيقي الصباحي الذي ينعشها تماما ، ويرد عليها ، بصورة مفاجئة ، حيويتها كاملة غير منقوصة ... واذا بها تقوم عمودها الفقري ، وتشمخ براسها الى العلاء ، وترمي به الى الخلف، قليلا ، وترنو بحنان الى وجه عذراء قازان المدور ، ومن ثم ترسم اشارة الصليب بحماسة زائدة وهي تهمس :

— أيتها العذراء المباركة ، يا أم الاله المجيدة ، امنحينا بركاتك في هذا اليوم الجديد ...

ثم تنحنى حتى تلامس جبهتها الارض ، ومن ثم تنهض ببطء ، وتعود تهمس في حمية عظيمة ، وحنان متزايد أبدا :

— يا ينبوع السعادة والفرح ، أيها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح في أوج ازدهارها ...

كانت تجد في كل صباح كلمات جديدة من المديح والعبادة ، مما يجعلني

اعني بصلواتها ، فأعيرها اذني بانتباه زائد :

— أيها القلب العزيز الفائق الطهارة والالوهية ... يا ضياء نفسي ، يا حارسة مأواي ، يا شمس السماء البهية الذهبية ، يا أم الحبيبة ، انقذينا من تجارب الشيطان الماكر ، واحميني من أن أهين أحداً ، أو أتلقى الاهانة من أي انسان دون ضرورة او فائدة ....

وتبرق ابتسامة لطيفة في عينيها السوداوين ، فيخيل الي انها تستعيد صباها وشبابها ، ثم ترسم اشارة الصليب بحركة رزينة من يدها الثقيلة ، وتستطـرد :

— يا يسوع الحبيب ، يا ابن الله ، ارحمني انا الخاطئـة بشفاعـة والدتك الطاهرة ...

كانت صلواتها ، دوما ، ذبائح من التمجيد والثناء ، تصدر عن قلب نقي ساذج طاهر ... ولم تكن تطيل صلاة الصباح كثيرا ، اذ لا بـد من القيام الى أعمال البيت ، وفي المحل الاول تهيئة السماور ما دام جـدي قد استغنى عن معونة الخدم ، فاذا حدث ان تأخرشاي الصباح عـن الموعد المحـدد كافأها جدي بسيل من اللوم والتقريع لا ينتهي .

كان يستيقظ ، في كثير من الاحايين ، قبل جدتي ، فيصعد اليها فـي الطابق العلوي حيث يجدها غارقة في صلواتها ، فيرهف السمع بعض الوقت في سكون ، وقد تراقصت على شفتيه الضيقتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها — فيما بعد — ونحن نتناول طعام الافطار :

— كم مرة علمتك الصلاة ، أيتها الغبية العجـوز ؟ ومع ذلك فأنـت تصرين ، في عناد ، على تلاوة سخافات من ابتكارك كما يفعل الهراطقة تماما! كيف يستطيع الله ان يرضى بذلك ؟ هذا ما يفوق ادراكي !

فتجيب جدتى في ثقـة :

— أما هو فيفهم ... فالمرء يستطيع ان يقول له كل ما يشاء ، وهو يفهمه بكل تأكيد ...

— انك لمجنونة ، تلك هي حقيقتك ! تفـو !

كان الهها يصحبها طوال اليوم ، حتى انها تحدث الحيوانـات عنه .

وكنت اشعر ان سائر المخلوقات ، من بشر ، وكـلاب ، وطيور ، ونحـل ، وحتى النباتات أيضا ؛ تخضع لذلك الاله القادر على كل شيء في غير عسر او صعوبة ، اذ كان لطيفا لكل حي على الارض ، وعزيزا عليه بالتالي .

وحدث ، ذات يوم ، ان قط زوجة صاحب الحان المدلل ــ وهو حيوان شرير ، سيء الطباع ، رمادي اللون ، ذهبي العينين ، يحبه الجميع بالرغم من انه خبيث متملق ، ولص اكول جشع بالاضافـة ــ حدث ان هذا القط اصطاد احد الزرازير ، فانتزعت منه جدتي الطائر المسكين ، واتجهت اليه غاضبة توبخه بقولهـا :

افلست تخاف الله ، ايها الحيوان الشنيع ؟ تلك هي مصيبتك ، ايهـا البائـس !

فضحك البواب وزوج صاحب الحان البدينة من جدتي لهذه الكلمات ، ولكنها صاحت فيهما بنـزق :

ــ اتظنان ان الحيوانات لا تعرف الله ؟ ان اقلهـا قيمـة يعرفه كمـا تعرفانه ، انتما ايها المخلوقان الفظان !

وعندما كانت تسرج الحصان « ساراب » السمين ، لم تكن تتأخر عن التحدث اليـه :

ــ لم انت حزين هكذا ؟ لم انت حزين هكذا ، يا خادم الله ؟ لقد هرمت على ما اعتقـد ؟ . . .

فيزفر الحصان ويهز رأسه . . .

ولكن اسم المولى ، بالرغم من ذلك كله ، لم يكن يتـردد على شفتيها بمقدار ما كان جدي ينطق به . ولقد اصبحت افهم اله جدتـي ، فلم يعـد يخيفني البتة ، ومع ذلك كنت لا استطيع الكذب في حضرته : تلك تكون فضيحة اذن ! واتقاء لهذا العار لم اكذب على جدتي أبدا . ولقد كان يستحيل تماما ، بالاضافة ، اخفاء اي شيء عن ذلك الاله اللطيف ، وفي ذكرياتي اني لم اشعر قط بميل الى ذلـك .

وحدث مرة ان تخاصم جدي وزوج صاحب الحان ، فشملت هذه جدتي البريئة في قدحها وذمها ، لا بل بلغ الامر بها ان ضربتها بجزرة كبيـرة ، فلم تفعل جدتي اكثر من ان قالت لهـا :

ـــ انك حمقاء ، يا سيدتي العظيمة !

ولكني استأت كثيرا من تصرف تلك المراة تجاه جدتي ، وقررت ان اثأر لها ... فظللت ، مدة طويلة ، افتش عن احسن طريقة انال بها من تلك المراة البدينة ، الحمراء الراس ، المزدوجة الذقن ، والتـــي كان يستحيـــل على الانسان ان يرى عينيها الغارقتين في كتل الشحم الكثيفة .

كنت اعرف ، من مراقبتي لسائر مراحل الحروب المهلكـــة التي تنشب بين الجيران ، ان الثار يكـــون عادة اما بقطع اذناب القطط ، او تسميـــم الكلاب ، او قتل الفراخ الصغيرة ، او التسلل الى اقبية العدو ليـــلا وصب الكاز في براميل مخال الخيار والملفوف واواني المؤونـــة ، او نزع السدادات عن براميل الكفاس الصغيرة . ولكن هذه الطرق لم ترق لي : كان لا بد من اختراع شيء جديد اكثر تأثيرا ، واشد هولا .

واخيرا قر رايي على التدبير التالي : انتظرت مـــرة زوج صاحب الحان البدينة حتى سعت الى القبو طلبا لحاجة ما ، فاغلقت الباب خلفها واقفلته ، وقمت برقصة الثار عنده ، ثم القيت بالمفتاح على السقف . ومن ثم اندفعت باقصى سرعة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام . ولم تفهم بادىء الامر سببا لحماستي ، حتى اذا اكتشفـــت ذلك صفعتنـــي عدة مـــرات على الاماكن المعينة لهذا الغرض ، ثم جرتني الى الساحة وارسلتني الى السطح طلبا المفتاح . فجئت به صامتا ، مذهولا من هذه الخاتمة غير المنتظرة ، ثم هربت الى احدى زوايا الساحة ، حيث رحت اراقب جدتي تطلق سراح الاسيرة التي جاءت الي برفقتها ، وكلتاهمـــا تضحكـــان برقة ، فكأنهمـــا صديقتـــان حميمتـــان .

وهددتني زوج صاحب الحان البدينة ، وهي تهز قبضتها الغليظة فـــي وجهي ، وان ظل وجهها الابله يبتسم بلطف وحنان ووداعة :

ـــ سوف انتقم منك يوما ما ، ايها العفريت الصغير !

وجرتني جدتي من عنقي ، وقادتني حتى المطبخ ، وسألت :

ـــ لم فعلت ذلـــك ؟

ـــ الم تضربك بجزرة ؟

ـــ آها ... لقد فعلت ذلك من اجلي اذن ، اليس كذلــك ؟ ساحفظ ذلك لك ، ايها الصغير ، فارميك تحت الموقد بصحبة الفيران ، وعندئذ تسترد بعض الاحساس ! لقد جعلت من نفسك فارسا اذن ! تعالوا يا قوم وانظروا هذه الفقاعة قبل ان تنفجر ! ... ولو اخبــرت جدك بذلك ، افلن يسلــخ الجلد عن قفاك ؟ هيا ، اسرع الى الطابق العلوي الان والــق نظرة على كتبـــك ...

لم تحدثني ابدا بقية ذلك النهار ، لكنها جلست مساء ، قبل ان تجثو للصلاة ، على حافة سريري ،وقالت هذه الكلمات التي لن انساها :

ـــ اصغ ، ايها الطير الصغير ، وتذكر دوما ما ساقول لك : لا تتدخل ابدا في امور الكبار ، فالكبار جماعة شريــرة مفسودة امتحنتهــا المقبــات والتجارب ، اما انت فضعيــف بعد ، وعليــك اذن ان تعيش حسب سنك الصغيرة ومعلوماتك الحاضرة ، وتتصرف حسب ما يمليه عليك قلبك الطاهر حتى يجد الرب من الموافق ان يلمس قلبك ، ويبين لك واجبك ، ويقودك الى الدرب التي يجب ان تسير عليها ... افاهم أنت ؟ فالله يحكــم ويقتص ، وذلك شانه وليس شأننا ! اما من يستحق اللوم على هذا الامر او ذاك فليس من شأنك ابـــدا !

والتجأت الى الصمت لحظة استنشقت خلالها بعض السعــوط ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، واضافت :

ـــ واؤكد لــكان الله نفسه يصعب عليه ، في اغلب الاحيان ، ان يميز البريء من المذنـــب ...

فسالت مذهولا :

ـــ لم ، الا يعرف الله كل شيء ؟

فاجابت بكآبـــة :

ـــ انه لو كان يعرف كل شيء ، اذن لامتنع الناس عن ارتكاب العديد من الامور . انه يجلس هناك في السماء ، يراقبنا نحن الخطاه على الارض، وكثيرا ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتأوه ويقول : آه ، يا ابنائي ، يا ابنائي الاحباء المساكين.! لكم يتالم من اجلكم قلبي !

وبكت بدورها ، ثم مضت ، دون ان تجفف عينيها ، الى زاوية الايقونات وشرعت بالصلاة . . .

ومنذ ذلك الحين ، امسى الهها عزيزا على قلبي وغاليا اكثر من ذي قبل ، واقرب الى ادراكي وفهمي ايضا . . .

. . .

كان جدي يعلمني في دروسه ان الله يعرف كل شيء ، ويرى كل شيء ويوجد في كل مكان ، وهو على استعداد لمساعدة الناس في سائر مشاكلهم الطارئة . ولكنه كان يصلي باسلوب يختلف كثيرا عن اسلوب صلاة زوجه . . . فهو ، قبل ان يتلو صلاته صباحا ، يغتسل بعناية ويرتدي ثيابه ، ويصفف شعر راسه ولحيته الحمراء بتأنق فائق ، ولا يتجه نحو زاوية الايقونات — الامر الذي يفعله خلسة دوما فيما يصور لي — الا بعد ان يصلح من وضع قميصه امام المرآة ، ويعقد ربطة عنقه السوداء فوق صدريته الناصعة البياض وكان يقف ، على الدوام ، في ذات البقعة من الارض الخشبية حيث تركت اقدامه اثرا يشبه عين الحصان الى حد بعيد ، فيسمر ذراعيه الى جانبيه كالجندي ، ويظل فترة من الوقت غارقا في بحر من الصمت عميق ، خاشع الراس ، منتصب القامة ، نحيل الجسد ، اشبه ما يكون بمسمار كبير ، ثم يتمتم بتأثر :

— باسم الاب والابن والروح القدس !

وكان يخيل الي ان سكونا خاصا يرين على الغرفة بعد تلك الكلمات — حتى ان الذباب نفسه يروح يوز بهدوء اعظم ! . . .

ويرمي براسه الى الخلف حتى توازي لحيته الذهبية الارض ، ويعقد ما بين حاجبيه ، ويأخذ بتلاوة صلواته بصوت رزين وكأنه يستعيد أمثولة عليه ان يحفظها عن ظهر قلب ، وهو يشدد على الكلمات كمن يضن بها :

— وسيجيء يوم الحساب ، على غير انتظار ، وعندها تنكشف اعمال البشر . . .

ويشرع يضرب صدره بلطف ، ثم يلتمس قائلا :

ــ قدام وجهك ، قدام وجهك وحدك اخطأت ... فاصرف وجهك عن خطايـــاي ...

واذ يتلو « دستور الايمان » تنطلق الكلمات من فيـــه باندفاع وعـــزم وتأخذ ساقه اليمنى بالارتجاف زمنا طويلا ، ويميـــل جسده كله في اتجـــاه الايقونات ، ويبدو كما لو كان يكبر ، وينحل ، ويقسو ...

ــ انت ، يا من ولدت المخلص المعظيم ، طهري قلبي من جميع الخطايا واصفي الى انين نفسي ، واغفري لي يا ام الاله الطاهرة !

ثم يبكي بهدوء ، وتلتمع الدموع في عينيه الخضراوين :

ــ يا الهي ، دع ايماني ينب عن اعمالي ، وامح كل مآثمي ...

ومن بعد يرسم شارة الصليب عدة مرات ، بسرعة وارتعاش ، ويحني راسه مثل تيس يناطح . ويتحدث بصوت باك كئيب ... وعندمـــا سنحت لي الفرصة ، فيما بعد ، لزيارة مجامع اليهود ، ادركت ان جدي لا يختلف في صلاته عن احد الاسرائيليين ...

كان السماور يغلي منذ زمن بعيد على الطاولة ، وقد امتلأت الغرفة برائحة كعك الجاودار الحار والقشطة الطازجـــة . ان معدتي لتعوي من الجوع ... وقد وقفت جدتي مستندة الى الباب تتثـــاءب وتكشر ، ترنو الى الارض لا تحيد بنظراتها عنها ، والشمس تطل جذلانـــة فرحانة من خـــلال النافذة ، والندى يتضوأ كاللؤلؤ على الاشجار ، ونسيم الصباح العليل يحمل رائحة طرية من نبات الشمار ، والزبيب ، والتفاح الناضج .

ولكن جدي يتابع عويله ونواحه ، وهو يتلو صلواته :

ــ اطفىء نار اهوائي لانني بائس ملعون !

كنت احفظ صلاة السحر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب عن ظهر قلب ، ولذا كنت اتاثره بانتباه مركزا املا في ان يخطىء مـــرة او ينقص منها شيئا ، ولو كلمة واحدة فقط .وكانت تلك الفرص نادرة جدا ، ولكنها توقظ في دوما احساسا خبيثا بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، يلتفت الينا ، ويلقي السلام :

ــ انعمتما صباحـــا !

. فننحني ، ثم نتخذ اماكننا من المائدة . . .

قلت مرة ، وقد استدرت ناحيته :

ــ لقد اسقطت اليوم كلمة « يكفيني » من صلاتك .

فسال مرتابــا :

ــ حقا ؟ اواثق انك لا تكذب ؟

ــ نعم ! كان يجب ان تقول : « ولكن ايماني بكنيني فاستغفني ب كل شيء . . . » . ولكنك اسقطت كلمة يكفيني .

فقال ، وهو يطرف شزرا :

ــ هــم !.

كنت ادفع غاليا ثمن ملاحظاتي هذه ، ولكنني اشعر بالظفر وال طالما اجده متضايقا مرتبكا .

وذات يوم ، قالت جدتي مازحــة :

ــ لا ريب ان الاستماع الى صلواتك امر يبعث على الملل بالنسب الله ، يا ابناه ! فانت تردد دوما الاشياء نفسها .

فتشدق بكلامه متوعــدا :

ــ م . . . ا . . . ذا ؟ بماذا تهذرين ؟

ــ اقول اني لم اسمعك ، منذ معرفتي بك حتى اليوم ، تخاطب بكلمة واحدة من عندك صادرة عن قلبك

فاحمر وجهه ، واخذ يرتجف فوق مقعده ويرقص ، ثم يقفز على ورماها باحد الصحون الصغيرة ، وطفق يزعق كمنشار يقطع زجاجا :

ــ اخرجي من هنا ، ايتها الساحرة العجوز !

كان كلما حدثني عن قوة الله التي لا تقهــر ، يشدد في الدرجة على قسوته وهول غضبه . مثلا ، ان الناس قد اخطأوا مرة فاغرقهم في الطوفان ، واخطأوا مرة ثانية فاحرق الله مدنهم ودمرها ، وفي مرة ث عوقبوا بالمجاعة والطاعون فوق رؤوس الاشرار .

كان يحذرني ، وهو يقرع الطاولة باصبعه المنعظمة :

ــ ان كل من يخرق قوانين الله لا بد ان تكون عاقبتــه سيئة . فيحل الشقاء والخراب في داره .

وكان الايمان بقسوة الله يصعب علي جدا ، فارتاب في أن جدي يختلق تلك الاحاديث ليبعث في ليس مخافة الله ، بل مخافته هو . . .

سألته بصراحة ذات يــوم :

ــ اتخبرني بهذه الامور لتجعلني أطيعك وحدك ؟

فأجاب بصراحة مماثلــة :

ــ بالطبع ! ان شيئا عظيما سيحدث ان لم تطع . . .

ــ ولكن جدتــي . . .

فأجــاب بحدة :

ــ لا تلق بالا لتلك الحمقاء . لقد كانت طوال حياتها مجنونة ، جاهلة، عديمة الحس السليم ، امية . . . وسأمنعهــا من التحدث اليك بمثل هــذه الاشياء الهامة . والان ، اجــب على هذا السؤال : كــم طبقة يوجد بــين الملائكــة ؟

فأجبت ، ثم سألــت :

ــ ماذا تعني هذه الكلمات : « فرد من الطبقة الراقية » ؟

فنفخ بمنخره ، اسبل جفنيه ، وعض شفته ، وصاح :

ــ أيجب ان تلم بكل شيء ؟

ثم شرح لي ذلك ، بعد لحظة قصيرة ، بصوت متردد :

ــ ان ذلك لا يتعلق بالله ، بل هو من خصائص البشر ــ افراد مــن الطبقة الراقية ــ انهم امثال موظفي الحكومة . فالموظــف هو احد الذيــن يعيشون من القوانين ويلتهمونها . . .

ــ اية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فأجاب الشيخ ، وقد ومضت عيناه الحادتان النديتان باللذة :

ـــ القانون ؟ انه ، على حد تعبيرهم ، الشيء الذي يتخذه الناس عادة. فالناس يعيشون سوية ، ويتفقون فيما بينهم على ان هذا الاسلوب او ذاك ، مثلا ، افضل ما يسيرون عليه في التعامل مع بعضهم البعض ، ولذلك يتخذون منه عادة ، ويجعلون منه قاعدة ، او قانونا كما يسمونه ، مثلهم في ذلك مثل جماعة من الصبيان يتجمهرون ليلعبوا لعبة ما ، ويقررون بين بعضهم كيف سيلعبون ، فهذا الذي يقررونه يسمونه القانون .

ـــ والموظفون ؟

ـــ انهم يشبهون الاولاد الشريرين الذين يخرقون القانون ، مع ان حراسته اوكلت اليهم .

ـــ ولم ؟

فقال ، وهو يزمجر :

ـــ ذلك ما لا تقدر ان تفهمه ! انك اصغر من ان تعرف هذه الامور ثم بعود الى متابعة الدرس :

ـــ ان الله يراقب اعمال الجميع . وهم يريدون شيئا ، وهو يريد شيئا اخر . ولكن ارادة الانسان مزعزعة سريعة العطب ، ويكفي ان ينفخ الرب عليها حتى يتبدد كل شيء مع الريح فكأنه الهباء المنثور .

كانت هناك عدة أسباب هامة تدفعني الى الاهتمام بالموظفين ، ولذا تشبثت بوجهة نظري ، وعدت الى الكر قائلا :

ـــ ان هناك اغنية يرددها الخال ياكوف تقول : « الملائكة الابرار هم خدم الله ... وموظفو الحكومة هم عبيد الشيطان ! » .

فأغلق جدي عينيه ، ووضع لحيته في راحة يديه ثم دفعها في فمه . كنت استطيع ان الحظ ، من ارتجاف خديه ، انه يضحك في سره . قال :

ـــ يجب أن توضع انت والخال ياكوف في كيس من الخيش ثم يلقى بكما في النهر . ما شأنه حتى يغني مثل هذه الاغنيات ، وما شأنك حتى تستمع

اليه ؟ انها دعايات وضعها الهراطقة والمنشقون عن الكنيسة ــ وهم جماعة من الماجنين الاشرار .

ثم حملق في لحظة ، واضاف وهو يتنهد :

ــ تفو ! يا لهم من قوم !

كان يضع الهه عاليا في السماء ، يشرف من هناك على سائر أعمال البشر ، ويشركه مع ذلك في سائر اعماله ، مع عدد لا يحصى من القديسين . وكذلك كانت تفعل جدتي بالهها الخاص ، وان كانت تجهل ، فيما يبدو ، القديسين جميعا ، اللهم الا نيقولاوس ، وجاورجيوس ، وفرولا ، ولعازر ، وهم جميعا لطفاء طيبون ، قضوا حياتهم في التنقل من قرية الى قرية ، ومن مدينة الى مدينة ، يساعدون الناس ويقاسمونهم مصائبهم فلا يختلفون عنهم في شيء ، ولا يتميزون بأي عمل متفوق . وبالمقابل ، كان سائر قديسي جدي من الشهداء الذين حطموا التماثيل ، وقاموا ضد القياصرة واباطرة روما ؛ ولذلك عذبوا او احرقوا على الخازوق ، أو سلخ جلدهم عنهم وهم احياء .

ــ لو يساعدني الله فابيع هذه الدار بربح خمسمائة روبلا ، اذن لاقمت قداسا احتفاليا للقديس نيقولاوس !

فتضحك جدتي ، وتهمس في اذني :

ــ يا لذلك الاحمق العجوز ! ايظن ان لا عمل لنيقولاوس الا أن يبيع المنازل له ويبتاعها ؟!

بقيت طويلا محتفظا بتقويم جدي الكنسي ، وقد كتب في حواشيه ملاحظات متباينة بخط يده . ففي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنة مثلا ، كتب بالحبر الاحمر : « لقد تخلصنا ، بفضلهما ، من بلية عظيمة » ... وأنا اذكر حقيقة تلك « البلية » .. فقد اخذ جدي يتعامل بالربا خفية ليساعد ولديه اللذين اخذت اعمالهما تسوء يوما بعد يوم ، ويأخذ لقاء ذلك بعض الحاجيات الثمينة رهنا وضمانة ... فوشى به احدهم الى الشرطة التي هاجمت الدار ، ذات مساء ، وقامت بتفتيشها ... وكان هرج عظيم ، ولكن كل شيء انتهى على خير وجه من حسن الحظ . وظل جدي يصلي حتى بزغ

الفجر ، وفي الصباح ، قبل طعام الافطار ، كتب تلك الكلمات على النقو بحضوري .

• • •

كنا نقرأ معا ، قبل العشاء ، فصولا من المزامير ، او مقطوعات م كتاب الصلوات ، او صفحات من مجلد ضخم من تأليف يفريم سيرين . فاذا انتهينا من العشاء ، عاد يصلي ثانية ، فتنثال كلمات توبته المطردة الف زمنا طويلا ، في سكون المساء ، على وتيرة واحدة :

ـــ الرب وحده اعطى ، الرب وحده اخذ ... ايها الملك المجد الذي يموت .. لا تدخلنا في التجربة .. نجنا من الشرير .. ولتحلني دموعي م خطيئتي ...

وكانت جدتي تقاطعه في أغلب الاحيان بقولها :

ـــ اوه ، كم انا متعبة ! يبدو اني سأزحف الى الفراش دون ان اتل صلاتي هذه الليلة !

ومما لا ريب فيه انني لم احسن هنا التعبير عن ذلك التمييز الصبياني الذي اقمته بين الالهين ، بل اعطيت عنه بالاحرى صورة اقرب الى السخف والعبث . وعلى كل حال فان هذا التمييز سبب لي ، فيما بعد ، الشي الكثير من النزاع الروحي . فأنا اخاف اله جدي واكرهه ، هذا الذي لا يحب أحدا ، بل يسلط عينا حادة على سائر البشر ، وينصرف اهتمامه ، قبل كل شيء ، الى اكتشاف الشر والخطيئة والرذيلة في الانسان . وكنت أشعر بوضوح انه لا يؤمن بالناس او يثق بهم ابدا ، بل هو ينتظر منهم دوما التوبة ويبتهج كثيرا اذ ينزل عقابه الصارم بهم ...

وفي تلك الايام ، كان التفكير في الله يؤلف غذاء نفسي الرئيسي ، فهو الجمال الوحيد الذي لقيته في هذه الحياة ، بينا سائر الانطباعات الاخرى تصدمني ، او تؤلمني بما فيها من رذيلة ووحشية . ان الله ـــ واعني به اله جدتي وصديق كل حي على الارض ـــ لابهى وافضل من كل شيء اخر يحيط به .

والغريب حقا ، وهذا ما كنت اعجز عن فهمه ، أن يعمى جدي عن هذا الاله الطيب القلب ...

كان النزول الى الشارع محرومـا علي لفرط ما كان يثيرني ، لا بـل يسكرني ان صح هذا التعبير . وقد كنت فيه محور الفضائح التي منشؤها حميتي ، وميلي الى القتال ، وعصياني الدائب . ولذا لم ارب صداقات ابدا، بل كان سائر ابناء الجيران يناصبونني العداء . وعندما لاحظوا اني أكره ان ادعى كاشرين ، اصبحوا يتلذذون باغاظتي فينادونني بذلك الاسم كلما لمحوني من بعيد او قريـب :

ـــ ها هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك البخيل العجوز ، آت الينا ! انظروا !
ـــ ارمـوه ارضـا !

وعندها تبدأ المعركة ...

كنت قويا بالنسبة الى عمري ، ومقاتلا جريئا ... حتى اعدائي كانوا يسلمون بذلك ، فلا يهاجمونني الا مجتمعين ، فيتغلبـون على على الدوام بكثرتهم ، وانال من لكماتهم الشيء الكثير ، واعود الى الدار بانف نازف ، وشفتين مجروحتين ، ووجه مكلوم ، وثياب ممزقة ...

وفي البيت تستقبلني جدتي ، مرتجفة ، يفيض الحنان منها :

ـــ ماذا ؟ احاربت ثانية ، ايها الجرذ الصغير ؟ ساطعمك من الضرب ما لن تنساه ! فمن أين ابـدأ ؟

وتغسل وجهي ، ثم تضع قطعـة من العملـة النحاسيـة ، او بعض الاعشاب ، او الاملاح الخاصة ، على جروحي وهي تدمدم طوال الوقت :

ـــ ما الذي يدفعك الى القتال هكـذا ؟ انت في البيت طفل هـادىء ، ولكنك تنقلب عفريتا عندما تضع رجليك في الشارع . هلا تخجل ؟ ساخبر جدك فيحظر عليك بعد الان الخروج من البيت .

وكان جدي يلاحظ آثار الضرب والجروح فلا يغضب ، بـل يقول بكل بساطـة :

ـــ هل ارتديت اوسمتك مرة ثانية ؟ يا للمحارب الشجاع ! لكن ، اياك ان تسمح لي بمفاجاتك في الشارع مرة أخرى ، اتسمع ؟

لـمتكن لي رغبة في الخروج الى الشارع حـين يخيم الهـدوء والسلام

عليه ، فاذا ما بلغتني صيحات الاطفال المرحة ترتفع فيه ، نسيت تهديد الجد ووعيده ، وافلت من ساحة الدار بأي ثمن كان . ولم أكن أعني بآثار الضرب والجروح ابدا ، بل اشمئز فقط واستاء من الوحشية التي تسيطر على العاب الاطفال ، وحشية أجدها تحت مختلف المظاهر ، فتثير غضبي ، ونقمتي ، وتسوقني الى ما يشبه الجنون . . . كنت اثور كلما رأيتهم يدفعون الديوك والكلاب الى قتال بعضها بعضا ، أو يؤذون القطط ويعذبونها ، او يطاردون قطعان الماعز التي تخص اليهود ، أو يكايدون المتسولين الثملين ويسخرون منهم ، وخاصة ذاك التقي ايجوشا الملقب بـ « حامل الموت في جيبه » .

كان ايجوشا هذا رجلا طويل القامة ، نحيل البنية ، عابس الوجه ، ذا لحيه خشنة تتمركز شعراتها خاصة في اسفل وجهه المتعظم ، يرتدي في جميع الاوقات ، سترة من جلد الماعز تتأرجح بشكل غريب ، ويجتاز الشارع محدودب الظهر ، مثبت العينين في الارض بقوة وعناد ، فلا ينحني يمنة او يسرة قيد انملة . كان وجهه المظلم ، وهيئته المنكمشة ، وعيناه الحزينتان تبعث في الاحترام والهيبة نحوه ، فيخيل الي ان مشاغل خطيرة تقلق بال هذا الرجل حتى لا يجوز أبدا ازعاجه وتأخيره عن تحقيق المهمات الملقاة على عاتقه .

وكان الصبية يتراكضون خلفه يرمون ظهره الاحدب بالحجارة . اما هو فيظل فترة طويلة من الوقت لا يعيرهم ادنى انتباه ، فكأنه لا يحس ما يكيلون له من ضربات ، حتى اذا نفد صبره اخيرا وقف ، على حين غرة ، ورفع راسه بقوة ، وتفحص قبعته الشعثاء في حركات مضطربة ، وتطلع حوله كمن نهض من النوم لتوه . ويصيح الاطفال به :

ـ ايجوشا ! يا حامل الموت في جيبك ! ايجوشا ! الى اين تدب ؟ انظر في جيبك فقط ـ واخبرنا هل الموت جاثم فيها ؟

فيمسك ايوشا بجيبه ، وينحني على الارض ليتناول حجرا او قبضة من التراب ، ثم يلوح بذراعه الطويل في غير اتقان ولا خبرة ، وهو يتمتم ببعض الشتائم . وكانت جعبته من السباب ثلاث كلمات سافلة لا يعرف ان يردد سواها ـ اما قاموس الاطفال فكان اغنى من ذلك بشكل يفوق التصور وكان يركض وراءهم ، احيانا ، وهو يعرج ، فيعترض معطفه الطويل طريقه ويرميه ارضا ، فيقع على ركبتيه معتمدا بنفسه على ذراعيه القذرتين

الشبيهتين بعصاوين جافتين . وعند ذاك يفرقه الاطفال في سيل من الحجارة، بينما يركض اليه اشجعهم ويرمي بملء يده التراب على راسه ، ثم يفر هاربا .

لكن أشد مناظر الشارع ايلاما ، بالنسبة الي ، كانت رؤية رئيس عمالنا السابق جريجوري ايفانوفيتش الذي أمسى فاقد البصر تماما ، يقضي ايامه متجولا خلال البلدة يستعطى أكف الناس . كان فارع العود ، مغلق الوجه ، جميل الطلعة ، تقوده امراة عجوز صغيرة الجسم شائبة الشعر تقف به تحت كل نافذة وتهتف في صوت يصرصر ، وهي تنظر ابدا الى جهة اخرى :

ـ ساعدوا المستعطي الضرير ، محبة بالمسيح !

اما جريجوري فيظل بالصمت معتصما ، ترنو نظارتاه السوداوان بثبات الى جدران المنازل ، او النوافذ ، او وجه اي انسان يصادفه في طريقه ، وتروح يده الملوثة ببقايا الصباغ تداعب لحيته العريضة ، بينما تظل شفتاه مطبقتين بأحكام .

كنت القاه كثيرا ، ولكنني لم اسمع قط كلمة واحدة تصدر عن هاتين الشفتين المغلقتين ابدا ، فاتألم واتضايق من ذلك الصمت الذي لا ينتهي اكثر من اي شيء اخر . ولم اكن أمضي اليه بل لا اكاد المحه حتى اعود الى البيت راكضا أخبر جدتي :

ـ ان جريجوري في طريقه الينا !

فتقول ، وقد تملكها اضطراب مؤلم :

ـ آه ، حقا ! خذ ، اركض واعطه هذه !

فارفض بفظاظة ، وعندئذ تذهب جدتي بنفسها الى البوابة ، وتقف هناك تتحدث اليه زمنا طويلا . كان يضحك ، ويحك لحيته ، ولكن لا ينبس ابدا ببنت شفة . وكانت جدتي تدعوه ، في كثير من الاحايين ، الى المطبخ ، فتطعمه ثم تقدم اليه الشاى . وسألها مرة عنى ، فنادتني ، ولكني هربت واختبأت بين اكوام الاخشاب . لم اكن استطيع له لقاء ، بل اشعر بالخجل في حضوره ، واعلم علم اليقين أن جدتي تشعر نفس شعوري أيضا . وقد

تحدثنا عنه ، جدتي وانا ، مرة واحدة فقط ، بعد ان رافقته حتى البوابة وعادت متمهلة الى الساحة ، محنية الراس ، تذرف الدموع ... فمضيت اليها ، وامسكت بيدها ، فسالتني بهدوء :

— لم تهرب منه دائما ؟ انه يحبك كثيرا ، وهو رجل طيب ...

لم لا يطعمه جدي ؟

— جدك ؟

توقفت عن السير ، وضمتني اليها ، وهمست بنغمة تنبؤية :

— تذكر هذه الكلمات : ان الله سيعاقبنا عقابا صارما من اجل تصرفنا مع هذا الرجل ! عقابا صارما جدا !

ولم تكن مخطئة فيما ذهبت اليه ، اذ لم تمض عشر سنوات على ذلك، وكانت جدتي قد رقدت الى الابد ، حتى كان جدي ، وقد اضحى شقيا مجنونا — يستجدي في طرقات المدينة ، تحت النوافذ ، شيئا يسد به رمقه :

— ايتها العشيرة الطيبة ، اعطيني بعض اللحم — قطعة صغيرة فحسب . تفو ! يا لهم من قوم ! ...

كانت كلماته القاسية الجافة : « تفو ! يا لهم من قوم ! ... » الشيء الوحيد الذي بقي له من ماضيه ...

وبالاضافة الى ايجوشا وجريجوري ايفانوفيتش ، كانت هناك امراة مستهترة تدعى فورونيكا ، تدفعني الى الفرار من الشارع كلما صادفتها فيه. كانت تظهر صباح كل احد — ضخمة الجثة ، شعثاء الشعر ، ثملة ، لها مشية غريبة كأنها لا تحرك قدميها اوتمس بهما الارض ، بل تطير كسحابة من سحب العواصف تزمجر باغان فاسقة خليعة . وكان القوم يهربون بسرعة من امامها في الشوارع ، ويختفون في الدكاكين او في منعطفات الازقة حتى ليمكن أن يقال انها تكنس الدرب من كل ما فيها ... وكان وجهها أزرق اللون منتفخا كالبالون ، وعيناها الجاحظتان الرماديتان تدوران في محجريهما بشكل مرعب وساخر في آن واحد . وكثيرا ما كانت تصيح ، دون ما سبب ظاهر :

ـــ أين انتم ، يا اولادي ، يا أولادي !

فسألت جدتي ماذا تعنيبذلك ، فأجابت :

ـــ ذلك لا يجوز لك معرفتـــه .

ولكنها اوضحت لي ذلك ، فيما بعد ، بكلمات قليلة . . .

وخلاصة القصة ان تلـــك السيدة تزوجت قديمـــا من موظف يدعـــى فورونوف . ولكنه باعها ، طمعا في الترقية الى رتبـــة عالية ، لرئيسه الذي احتفظ بها ما يقارب السنتين ، عادت بعدهما الى زوجها الاول لتجد أن طفليها ـــ وهما صبي وبنت ـــ قد توفيا ! . . . وشرع زوجها بعد ذلك يقامر بأموال الحكومة العامة حتى القي به في السجن . . . فأخذت المراة تشرب بنت العنب لتغرق فيها حزنها . ومنذ ذلك الحين وهي تعيش حياة العهـــر والفحش ، حتى ان الشرطة تلتقطها ، كل أحد ، من عرض الشوارع .

لم يكـــن هناك مجال للشك في أن المنزل افضل من الشوارع . وكنت اعشق خاصة تلك السويعات التي تلي الغداء ، اذ يمضي جدي لزيارة الخال ياكوف ، وتقعد جدتي الى النافذة تروي لي قصصا خرافية رائعة ، او تحدثني عن والـــدي . . .

كانت قد قصت ، في كثير من الحذق ، جناح الزرزور الذي انقذته من القطة ، واستبدلت ساقه المقطوعة بعود خشبي صغير . وعندمـــا تماثل الطير للشفاء ، أخذت تعلمه الحديث ، فتقف ساعات كاملة بالقرب من القفص الموضوع على حافة النافذة ، وهي تردد الكلمات التي تود تعلمه اياها :

ـــ تعال الان ، قل : اعطيني قليلا من البرغل !

ويطرف الطير بعينه المدورة ناحيتها كما يفعل ماجـــن الاسطورة ، ثم يضرب بساقه الخشبية ارض القفص ، ويمد عنقه ، ويصفر مثـــل الارغن مقلدا طير ابو زريق والوقواق ، محاولا ان يموء كالقط ، او ينبح كالكلب ، دون ان ينجح في تقليد الاصوات البشرية .

وتقول جدتي باهتمام ومرح :

ــ كف عن هذه الخزعبلات ! حاول ذلك الان ، قل : اعطيني قليلاً من البرغــل !

وعندما كان ذلك القرد الزاهي الريش يصيـــح بشيء يشبه كلمـــات جدتي ، كانت تضحك مغتبطة ، ثم تقدم له على اصابعها كمية من البرغل ، وتؤنبه في كثير من السخرية بقولهـــا :

ــ آه ! انا امرفك جيدا ، ايها الماجن الصغير ! انك تستطيع ان تقول كل ما تشاء لو اردت ذلك فقط .

وهكذا علمته ان يتكلم ، فلم يمض طويل زمـــن حتى راح يطلب البرغل بوضوح تام ، وكان يهتف ، اذا رأى جدتي ، بشيء ما يـــرن شبيها بكلمـــة « مرحبـــا » !

كان قفصه معلقا بادىء الامر في غرفة جدي ، ولكنه سرعـــان ما نفاه الى غرفتنا بعد ان اخذ يقلده . وكان جدي يبتهل بصوت واضح ، فاذا ذلك الزرزور ، كلما سمعه يصلي ، يمد منقاره الاصفر كالشمع من خلال قضبان القفص ، ويصيـــح :

ــ تر . ر . ر . و . تر . ر . ر

... او . او . او .

وكان هذا يضايق جدي كثيرا .. وفي ذات يوم قطع صلواته ، وضرب الارض بقدمه ، وصاح غاضبا حانقـــا :

ــ اخرجي هذا الشيطان من الغرفة قبل أن اقتله !

كان في منزلنا امور كثيرة تثير الاهتمام ، واشياء اخرى عديدة يطرب لها القلب . لكن شعورا عنيفا بالحزن كان يطغى علي احيانـــا فكأنه حمل وازن يئيد علي ، فيصور لي اني اغوص في قاع حفرة سوداء مظلمة ، وقد زالت حواسي ، وفقدت البصر والسمع والشعور ، اهوي ، نصف حي نصف ميت ، في الهاوية التي لا قرار لهـــا !

٨

باع جدي منزلنا ، على غير انتظار ، الى صاحب الحان وابتاع منزلا اخر في شارع كاناتنايا . . كان هذا الشارع، نظيفا ، هادئا، غير معبد ، مغطى بالعشب ، يفضي في نهايته الى الحقول ، تحف به من الجانبين منازل صغيرة زاهيــة الالوان .

كان المسكن الجديد اكثر بهجة وانسا من السابق ، فواجهتــه مدهونة باللون الاحمر القاتم ، تنفصل عنها بجلاء مصاريع نوافـــذ الطابق السفلـــي الثلاثة الزرق ، وشعريات نوافذ الطابق العلوي التي تنتصب ببهاء وروعة . وعن اليسار ، كان السطـــح مزخرفـــا باغصان الدردار والليمـــون . أما الساحة والحديقة فمليئتان بعدد لا يحصى من الخلوات المريحة ، تبدو وكأنها جعلت خصيصا للعبة الطميمة . راقت لي الحديقـــة بصورة خاصة ، فهي ليست عظيمة الاتساع ، ولكنها مغطاة بشجرات صغيرة ، فاتنة ، كثيفة ، متعانقة ، تقوم غرفة الغسيل في احدى زواياها ، صغـــيرة أشبه بصندوق للدمى . . . وفي زاوية اخرى ، حفرة قليلة الغور ، مغطاة بالعشب البري ، تندفع منها كتل خشبية مسودة هي بقايا حريق لغرفة غسيل سابقة . . . أما عن اليمين ، فابنية صغيرة تابعة لال بيتلينـــغ . وكانت الحديقـــة تنتهي الى اليسار باسطبلات تخص الكولونيل اوفسيانيكـــوف ، بينما الجهة المقابلـــة للمنزل قد الحقت ببناء « صانعة الالبان بتروفنا » ، وهي مخلوقة سمينة ، حمراء الوجه ، مزعجة ، تشبه جرسا واسعا كبيرا . كان منزلها الصغير ، الاسود ، المتهدم ، يتربع براحة على الارض ، مغطى بالطحلب من كل جانب، تطل نافذتاه على الحقول الواسعة ، ممزقتين باخاديد عميقة ، ناظرتين الى ضباب الغابة البعيدة الازرق وكان عدد عديد من الجنود يتمرنـــون ، طوال

النهار ، في تلك الحقول ، فتلمع حراب بنادقهم كالبـــرق الابيض تحت اشعة شمس الخريف المحزنة .

كانت الدار تعج بجمع من الناس لم يقع عليهم بصري مـــن قبل قط ، فالجناح الامامي يشغله ضابط تتري المولد ترافقه زوجه الصغيرة المدورة ، وكانت هذه المرأة لا تنقطع عن الضحك والصياح والعزف على قيثارة مزخرفة بشتى الالوان البهية الغريبة منذ الصباح حتى المساء . وكانت تغني بصوت حاد ، رنان ، وتردد بصورة خاصة اغنية ، هذه بعض كلماتها :

« اني ، يا صاح ، لاعجب لـــك
أتعيش وزوجـــك لا تهـــواك ؟
فتعـــال نفتش عن أخـــرى ،
عن زوج تعـــرف ان ترعاك »

وكان زوجها ، المدور كالكرة ، يجلس طويلا الى النافذة تتورد وجنتاه الزرقاوان كلما نفخ في غليونه ، يجيل عينيه البنبتين الضاحكتين الصغيرتين هنا وهناك ، ويسعل بنباح غريـــب :

ــ احـ. حـ. حـ. م !. احـ. م ! .

وكان يعيش ، في جناح صغير مبني فوق المخزن والاسطبـــل ، رجلان مهنتهما سوق العربات .. كان احدهما رجلا صغيرا ، اشيب الشعر ، ينادونه بالعم بيوتر ، اما الاخر ، وهو ابـــن اخيه ويدعى ستيبـــا ، فكـــان أطرش أبكم ، لين الخلق ، هادىء الطبع ، ذا وجه يشبـــه صينية نحاسيـــة حمراء اللون . وكان يشاركهما المسكن تتري كالح الوجه ، مرتب الهندام ، يدعى فالي . كان هذا الجمع كله غريبا علي ، فبدا لي غنيا بالامانيات الجديدة التي سلبت لبي سلفا ، وراحت تمنيني بمغامرات لا تعد ولا تحصى .

بيد أن الشخص الذي اجتذبني وسحرني اكثر من سواه هو المستأجر المتطفل « هذا رائع ! » ، الذي يشغل غرفة تجاور المطبخ في اقصى الدار ، كانت غرفته هذه واسعة طويلة ذات نافذتين تطل احداهمـــا على الحديقة ، والثانية على الساحة .

كان ذلك المستأجر باسق الطول ، منحني الجسم ، ذا لحية متشعبـــة تضاعف شحوب وجهه ، وعينين لطيفتين تحميهما نظارتان كبيرتـــان ، هادئا

على العموم ، منطويا على نفسه ، سكوتا ، كلمـــا دعـــي الى العشاء او الشـاي اجاب بقولـــه :

ــ هذا رائـــع !

وطفقت جدتي تدعو « هذا رائع ! » ان يحضر للشاي !

او كانت تقـــول :

ــ تناول شيئا اخر ، يا « هذا رائع ! » فانت لم تأكل كفاية .

كانت غرفته مزدحمة بالصناديق والكتب الضخمة المطبوعة بأحرف لم انجح في حل طلاسمها المعضلة . وكنت تجد ، في كل مكان ، زجاجات مليئه بسوائل مختلفة الالوان ، وقطعا صغيرة من النحاس ، والحديد ، ومساطر من الرصاص لا عد لها . وكان صاحبنا يرتدي دائما معطفا بنيا من الجلد ، وقفازين رماديين ملطخين بالدهان ، تفـوح منهما رائحـــة كريهة ، ويقضي اليوم بطوله في غرفته ، منذ الصباح حتى المساء ، يصهر الرصاص ، ويلحم النحاس ، ويزن قطعا صغيرة من المعدن في ميزانه الدقيق ، وهو يزمجر من وقت لاخر اذ يحرق اصابعه ، فينفخ عليها ، ومن ثم يروح يحنو على بعض الاشكال الهندسية المعلقة على الحائط ، ويأخذ ــ بعد ان يمسح نظارتيه ــ يفحصها عن قرب بحيث يكاد يشمها بأنفه الناصع البياض الشبيه بالحوار . وكان يقف ، احيانا ، ودون سابق انذار ، منتصبا في وسط الغرفـــة او قرب النافذة ، ويظل هكذا زمنا طويلا جدا ، مغلق العينـــين ، خافض الراس ، ساكنا ، لا حراك به . . .

تسلقت مرة سطح المظلة الممتدة على طول الساحة ، ورحت أراقبه من خلال النافذة المفتوحة . كنت أستطيع ان أرى الي اللهب الازرق المتصاعـد من فتيل مصباح الكحول الذي يشتعل فوق الطاولة ، وقد انحنت قامة الرجل فوقه ، أو أراه يكتب أشياء عديدة على دفتر ملاحظات ممـــزق ، ونظارتاه تلمعان ببرود في ضوء اللهب الازرق كأنهما قطعتان من الجليد .

كان العناء الذي يتحمله ذلك الرجـــل يسمرني على السطـــح طـــوال ساعات عديدة ، وقد تملكني فضول عنيف يعذبني بشكل غريب . . . وكان يقف ، في أحيان اخرى ، مستندا الى النافذة ، وقد وضع يديه خلف ظهره ، يشخص باستقامة الى السطح دون ان يراني او يعرفنـــي ، الامر الذي كان

بعيدانى جدا . ثم يقفز فجاة في اتجـــاه طاولته ، وينحنى عليهـــا وهو ينفث باهتمام بين الاوراق والملفات المتراكمة فوقها .

ربما كنت اخافه لو كان اكثر ثراء ، وافضل لباسا ، ولكنه كان فقيرا معدما فياقة قميصه المجعده الوسخـــة تبرز من تحت معطفـــه الجلدى ، وسرواله مرقع ملطخ ببقع كثيرة الالوان ، أما حذاؤه فاسوا من أن يلبس تبرز من خلاله اصابع قدميه العاريتين . والفقراء لا يبعثون خوفا ولا يثيرون خطرا ، هذا ما اقنعتني به شيئا فشيئا شفقة جدتـــي نحوهم ، وكراهيـــه جدي لهـــم .

كان جميع من في الدار يكرهون « هذا رائع ! » كثيرا ، ويتحدثون عنه بسخرية فائقة : فتدعوه زوج الضابط المرحة بـــ «صاحب الانف الطبشوري»، والعم بيوتر بـــ « الكيميائي الساحر » ، وجدي بـــ « الصيدلي بائع السحر الاسود » .

سألت جدتي مـــرة :

ـــ ماذا يفعل « هذا رائع ! » ؟

فأجابت بفظاظـــة :

ذلك ليس من شأنك . اعرف متى تحتفظ بفمك مغلقا .

وجمعـــت ، ذات يوم ، كل ما املـــك من شجاعـــة واسرعت الـــى نافذتـــه ...

سألته ، وانا احاول بصعوبة اخفاء انفعالي :

ـــ ماذا تفعـــل ؟

فبغت ، ثم شخص الى طويلا من فوق نظارتيه ، ومد لي يده المحترقة المفروشة ندوبا وجروحا ، وقال :

ـــ تعال ، تسلق الى هنـــا !

والواقع ان سماحه لي بزيارته من خلال النافذة بـــدلا من ان يدعوني اليه عن طريق الباب ، قد رفعه كثيرا في عيني ، وزاد من تقديري له .

وجلس على احد الصناديق المبعثرة ، واجلسني قبالته وهو يؤرجحني يمنة ويسرة ، ثم سألني :

ـــ من أين جئـــت ؟

كان السؤال غريبا جدا ، فأنا أجلس بالقرب منه الى المائدة في المطبخ اربع مرات يوميا ، اجبـــت :

ـــ انى للحفيـــد هنـــا .

ـــ آه ، نعـــم !

ثم غرق فيسكون عميق ، وهو يتأمل احدى أصابعه . . .

رايت من الضروري ان أوضح له الامر ، فقلت :

ـــ ولكني لست من عائلة كاشرين ـــ أنا من آل بشكـــوف . الكسي بشكـــوف .

فردد ، وهو يشد على النبرات :

ـــ بشكوف ! الكسي بشكوف ؟ هذا رائع !

ودفعني عنه ، ونهض ، ثم ركض الى الطاولة وهو يقول آمرا :

ـــ حسنا ! اجلس . اياك ان تحدث ضجة ما .

جلست هناك طويلا ، طويلا جدا ، اراقبه يبرد قطعة من النحاس امسك بها بين فكي كماشة صغيرة ، وعندما انتهى من ذلك ، جمع التراب الذهبي المتساقط على لوحة من الورق المقوى وصبه في بوتقـــة كثيفة ، ثـــم اضاف اليها قليلا من مسحوق ابيض كالملح اخذه من احـــدى الزجاجات ، واخـــيرا سكب على الخليط شيئا من قنينة سوداء اللون ، فشرعـــت محتويات البوتقة تفح ، وتدخن ، وتغلي ، وتطلق رائحة حادة جعلتني اسعل قسرا .

سأل الساحر بفخـــر :

ـــ نعـــم !

ـــ آها . . . هذا حسن يا اخي ، هذا حسن جدا !

حاولت ان اجد في ذلك مدعاة للفخر فلم افلح . . .

قلت بعنـــف :

ـــ ما دامت رائحته سيئة فيستحيل ان يكون حسنا اذن !

فصاح ، وهو يفرك عينيـــه :

ـــ أحقا ماتقول ؟ حسنا ، ليس ما تقول صحيحا دوما ، يا أخي ! اتحب اللعب بالكعـــاب ؟

ـــ نعـــم !

ـــ اتريد أن اصنع لك كعبا من الرصاص ؟ أن احدا لن يغلبك به !

ـــ بالطبع اريـــد !

ـــ اعطني كعبك اذن !

وانجه نحوي ثانية ، يحمل البوتقة الداخنة في يده ، ثم خاطبني وهو يرنو الى بعين واحدة :

ـــ أتعدنى ، اذا ما صهرت الكعب لك ، الا تعود الى هنا مرة ثانية ؟ أتفقنـــــا ؟

فساءني ذلك كثيرا ...

قلـــت :

ـــ لست بحاجة لذلك كي لا اعود الى هنا !

ثم مضيت الى الحديقة غضبان مكتئبا ...

وجدت جدي منهمكا في تسميد الارض حول جذوع اشجار التفاح ... كان الوقت خريفا ، واوراق الاشجار تتساقط منذ أمد بعيد ...

ناولني المقص ، وقـــال :

ـــ خذ ، قص ادغال توت العليق ...

فسألـــت :

ـــ ما هذا الذي يفعله « هذا رائع ! » ؟

فأجاب غاضبـــا :

ـــ انه يخبص ، فهو يتلف الغرفة ، ويحرق الارض ، ويلطخ الجدران، حتى لقد مزق قسما كبيرا من الورق الملصق عليها ... سأنذره بضرورة اخلاء

الغرفة نهائيا في أقرب وقـــت ...

فوافقته ، وانا اشذب أطراف توت العليق :

ـــ انك تفعل حسنا اذن !

ولكنني كنت متسرعا في قولي هذا ...

• • •

كانت جدتي ، في الامسيات الماطرة ، عندما يخرج جـدي الى بعض اعماله ، تحيي في المطبخ حفلات رائعة ... فتدعو جميـــع الجيرة ، دون استثناء ، بما فيهم السائقين ، والعسكري ، وزوجه المرحـــة ، وبتروفنـــا البدينة . اما « هذا رائع ! » فكنت تجده في زاوية قرب الموقد ، حيث يجلس صامتا لا يأتي بأدنى حركة ، بينما يلعب الابكم الاصم ستيبا بالورق مع التتري فالي الذي يلطمه ، بين الفينة والفينة ، على انفه العريض ويصيح :

ـــ انت ، ايها الشيطان الهرم !

كان العم بيوتر يحمل معه رغيفا من الحنطة البيضاء ، وقطعـــة مليئة بمربى توت العليق ، فيشرح الخبز ، ويصب عليه المربـــى بكرم ، ثم يقدم تلك الشرائح على راحتيه الممدودتين للضيوف قائلا ، وهو ينحنـــي انحناءة خفيفـــة :

ـــ هلا تفضلتم وتناولتم من هذا شيئا ؟

وكلما تناول أحدهم قطعة ، يفحص العم بيوتر راحته السوداء ، فان شاهد عليها قطرات من المربى اسرع فلعقها بلسانه .

وكانت بتروفنا الحلوة تجلب معها قليلا من السوائل الروحية ، والجارة الصغيرة المرحة بعض الجوز وسكر النبات . وعندها تبدأ وليمـــة حقيقيـــة تشرف عليها جدتي والغبطة تغمر قلبها الفرح الضاحك .

اقامت جدتي احدى هذه الحفلات بعد فترة قصيرة من محاولة « هذا رائع ! » رشوتي كي ابتعد عن غرفته . كانت أمطار الخريف الكئيبة تنسح من اعالي الجو فتضرب الارض بعنف وقوة ، وريح عاتية تهـــب ، والاشجار

نلتطم وتضرب جدران المنزل باغصانها . وكان جو المطبخ دافئا لطيفا ، والقوم قد تجمهروا بعضهم قرب بعض هانئين مرحـــبين ، وجدتـــي تشرف في سرد أقاصيصها الرائعة أكثر من المعتاد .

كانت تجلس على حافة دكة الموقد ، وقدماها مستريحتان على احدى درجاته تنحني على القوم ، ووجهها يشرف بابتسامة خفيفـــة لطيفة في ضوء القنديل الملتهب . كانت تختار ذلك المكان على الـــدوام كلما كانـــت منتعشة النفس ، متحمسة لرواية الاقاصيص ، وتقول :

ــ أود أن اتحدث من هذا المكان العالي . ذلك اسهل ، وهو يترك في النفس اثرا اعمق ايضا .

جلست عند قدميها على الدرجة الاخيرة ، تمامـــا فوق رأس « هـــذا رائع ! » ، وهي تروي هذه المرة قصة « ايفان المحارب » و «الراهب ميران» الرائعة ، فتأتينا كلماتها متلاحقة موزونة متناسقة كأروع الشعر :

« كان يعيش في غابر الزمان قائد شرير يدعى جورديون ، روحه خبيثة آثمة ، وقلبه كالحجر الاصم ، يكره الصدق والصديقين ، ولا يعرف الحنان الى فؤاده سبيلا ، يعيش في الشر كالخلد في كهف عميق سحيق لا يرى النور . وكان ابغض الناس الى جورديون هذا راهب متدين اسمه ميرون ، يعيش ناسكا في الصحراء ، قلبه ينبض بالسلام والمحبة ، ويتدفق دون وجل بالخير والصدق . وفي ذات يوم ، استدعى جورديون المحارب ايفانوشكـــا الشجاع الى مجلسه ، وقال لـــه :

ــ اذهب الان الى العجوز ميرون ، واذبح ذلك الشيخ المتكبر ، دق عنقه ولا تخف ، ارفعه عاليا من لحيته الكثيفة ، وجئني به وليمـــة فاخـــرة لكلاب صيـــدي . . .

فذهب ايفان ينفذ الاوامر بطاعة ، وقلبه يعتصره الالم ، يقول في نفسه: أنا لا أسير بنفسي ، وانما الحاجة تسيرني . انها الضـــرورة تدفعنـــي الى ذلك ، انه النصيب المقدر لي من قبل الله . واخفى سيفـــه القاطع تحـــت ثوبه ، وجاء الى الراهب ، وانحنى امامه باحترام ، وحياه قائلا :

ــ سلاما ، أيها الشيخ الجليل . . كيف حالك ؟ اما زال الله ينسبـــغ

عليك نعمه ، ويصونك بحمايته المقدسة ؟

فابتسم ذلك الذي يعرف كل شيء ، ابتسم ميرون العجوز ، وسقطت من شفتيه الحكيمتين هذه الكلمات :

ـــ لست ادري ، يا ايفان ، لماذا تكذب وتريد خداعي ! لكن الله الرب يعرف كل شيء . والخير والشر ملك يده . وهو ، من دون أدنى ارتياب ، على علم بغايتك الشريرة .

فامتلأ قلب ايفانوشكا خجلا ، ولكنه خاف انتقام جورديـــون . فاستل سيفه من غمده الجلدي ، ومر بشفرته الجارحة على ثيابه ، وقال :

ـــ لقد اردت ان اوفر عنك رؤية هذا السيف ، واقتلك وانـــت في جهل مبارك من غايتي . اما الان ، وقدعرفت كل شيء ، فهيا اركع ايها الشيـــخ العجوز على ركبتيك وصل للمرة الاخيرة ، وصل لينبوع الحيـــاة ، صل من اجلي ، ومن اجلك ، ومن اجل سائر البشر ايضا ، وعندئذ اقطع راسك ...

فجثا الشيخ على ركبتيه ، جثا تحت شتلة سنديان مالت عليه بأغصانها الخضر حادبة ، ثم توجه الى محدثه يخاطبه وهو يبتسم :

ـــ ايفان ، ايفان ! ان انتظارك سيطول كثـــيرا لان الصلاة مـــن اجل خلاص الجنس البشري لا نهاية لها ، فالافضل اذن ان تقصم حبل حياتي دون تأخير من أن تتعب نفسك بالتردد . فهيا ، عجل بالخاتمة ، وعـــد من حيث جئت سريعـــا .

وهنا قطب ايفان وجهه بغضب ، واجاب الشيخ الجليل بحنق جم :

ـــ ابدا !. ان ما قيل قد قيل ، وهكـــذا يجب ان يكـــون ! صل اذن ، وسانتظرك ولو قرنا كامـــلا .

فشرع الراهب يصلي حتى خيم الظلام الدامس ، واستمـــر يصلي من هبوط الليل حتى شروق الفجر ، ومنذ الفجر حتى عودة الظلام ، ومنذ الصيف حتى قدوم الربيع ... وتتالت الاعوام والراهب الطيب ما يـــزال راكعا تحت السنديانة التي نمت الان وراحت تطاول السماء ، وانبثقت غابة من ثمراتها، ودعاؤه ما يزال يتصاعد دوما نحو العلاء .

وحتى هذا اليوم ، ما يزال الراهـــب ميرون يصلـــي ، دون كلل ، في قلب الغابة ، يسأل المعونة لكل البشر ، ويرجو العذراء أن تحنو على جميع الناس . وبالقرب منه يقف ايفان المحارب ، وقد بلي سيفـــه وغمده بفعـــل الغبار ، وأكل الصدأ دروعه وحديدها ، واهترأت كل ثيابـــه وتفتتت ! على طول الشتاء يقف عريانا ، أهلكته الحرارة ، ومع ذلك لم يهلـــك ، التهمته الجائحات دون ان تجهز عليه ، تعرض الذئاب عنـــه ، والدببة تحيد عـــن طريقه ، توفره الاعاصير ، ولا يقتله الزمهرير ، وهو عاجز عن أن يتحرك من مكانه ، أو أن يرفع يدا أو يلفظ كلمة ... وذلك كان عقابه لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، وأخضع ارادته لارادة سواه . أما صلوات الشيخ الجليل فما تزال ترتفع نحو الله من اجلنا نحن الخطاة ، متدفقة كالجـــدول يسيل نحو مياه المحيط ... »

وقد لاحظت ، منذ بداية القصة ، ان « هذا رائـــع ! » قد تملكـــه ، لسبب ما ، اضطراب عظيم :فيداهترتعشان بصوره غريبـــة ، وهو يضـــع نظارتيه ثم يخلعهما ، ثم يعود فيهزهما بحركة موزونة متناسقة مع الكلمات الشادية ، يهز راسه ، ويضغط بأصابعـــه على عينيـــه ، ويمسح العـــرق المتصبب على جبهته وخديه . وكان ، كلما تحرك احدهم أو سعل أو ضرب الارض بقدمه ، يصيح بنزق :

ــ هس !...

عندما انتهـــت جدتي من قصتها ، ومسحت بكمها العرق المتلألىء على جبهتها ، قفز « هذا رائع ! » بصخـــب وضجيـــج ، وراح يدور على أرض المطبخ بشكل حلزوني ، وقد بسط ذراعيه باضطراب ، وهو يهمهم :

ــ هذا رائع ! رائع جدا ! يجب ان يدون بأي ثمن كان ! انه صحيح تماما .. وروسي بكل معنى الكلمة !...

لاحظ الجميع بوضوح انه كان يبكي : تمتلىء عيناه بالدمـــوع ثم تنهمر كسيل صغير فوق وجنتيه . وكان من الغريب والمؤثر معا منظـــر هذا الرجل الذي يركض في المطبخ بشكل مضحك ، يجرب ان يعلق نظارتيه خلف أذنيه دون ان ينجح في ذلك . وكان العم بيوتر يضحك ، ولكن الباقـــين اعتصموا بالصمت وقد تملكتهم الدهشة .

قالت جدتي بسرعـــة :

ـــ حسنا ، امضِ ودونها ان شئت ، فلا خطيئة في ذلك ! وانا اعرف من امثالهـــا كثـــيرا !

فصاح المستأجر منهيجـــا :

ـــ اوه ، كلا ! هذه فقط ! انها روسية ـــ روسية من الصميم !

وتوقف ، على حين فجأة ، في وسط المطبخ ، وطفق يتكلم بصوت عالي النبرات ، وهو يلوح بذراعه الايمن . ويحمل نظارتيه في اليد اليسرى المرتجفة ظل يتحدث طويلا بحمية ، نصدر عنه ، من وقت لاخر ، آهة عميقة ، وهو يضرب الارض بقدميه . ولاحظت انه ردد ، عدة مرات ، هذه الكلمات :

ـــ كلا ! كلا ! انها لجريمـــة لا تغتفـــر ان يعيش المرء حسب ضمـــير سواه !

وعلى حين غرة ، انقطع صوته ، والقى نظرة سريعة على المحتفين به، ثم دلف خارجا حانى الرأس . فنظر الجميـــع الى وجوه بعضـهـــم البعض باستياء وقلق ، بينما انفردت جدتي في ظلمة الموقـــــد حيث سمعتها تتنهـــد بأسى ...

سألت بتروفنا ، وقد امسكت بيدها شفتها الحمراء الكثيفة :

ـــ كأنه غضب ؟

فأجاب العم بيوتـــر :

ـــ كلا ! بل تلك طريقته بكل بساطة !

وهبطت جدتى عن الموقد ، وشرعت تهيىء السماور ...

اضاف العم بيوتر بهـــدوء :

ـــ ان المثقفين والنبلاء هكذا دوما ـــ متقلبوا الاطوار !

واضاف فالـــي :

ـــ كل هذه الحماقات سببها الحياة الفردية ، حياة العزوبية .

فضحك الجميـــع ...

وقال العم بيوتـــر :

ــ ارايتم اليه حين بكى ؟ لقد ابكته قصتنا ... يظهر ان العزف أصاب منه وترا حساسا !

لم يعد جو المطبخ يطاق ، وقد طغى على قلبي حزن موحش . ادهشني « هذا رائع ! » كثيرا ، فاشفقـــت عليـــه . وحتـــى الان ، ما تزال عينـــاه الدامعتان منحفرتين في ذاكرتي .

قضى ذلك الليل بعيدا عن الدار ، ورجع بعد الغداء في اليوم التالي . كان يبدو خائر القوى ، مرتبك البال ، مكتئب الخاطر ...

قال لجدتي بطريقة صبيانية خالصة :

ــ لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، اغاضبة أنت ؟

ــ ولم اغضب ؟

ــ لانني قحمت نفسي فيما لا يعنيني ، وقلت حماقات كثيرة .

ــ انك لم تجـــرح شعور احـــد .

شعرت ان جدتي تخاف منه ، فهي لا تنظر اليـــه ، ولا تخاطبـــه كما اعتادت ان تفعـــل .

اقترب منها ، وقال ببساطة فائقـــة :

ــ انت ترين انني اعيش لوحدي ، وليس من يؤنسني في العالم كله... عندما يعيش الانسان طويلا ، وحيدا هكذا ، صامتا ابـــدا ، فلا بد مـــن ان تجيء لحظة يأخذ فيها كل ما تراكم في نفســه بالغليان ، فيطفح وينفجر ... انه ، في مثل تلك اللحظة ، يخاطب حتى الصخر ، والحجر ، والشجر ...

سألت جدتي ، وهي تبتعد عنه :

ــ لم لا تتزوج ؟

فصاح ، وهو يحرك يده :

ـ آه !...

ثم مضى انبس الوجـــه ...

راقبته جدتي ، مقطبة الجبين ، وهو يغادر المكان ، ثم تنشقت بعض السعوط ، والتفتت الي وقالـــت :

ـ لا تدر حواليه كثيرا ، فالله وحده يدري ما يمكـــن ان يفعل هـــذا الانسان .

ولكن شيئا ما كان بجذبني اليه باستمرار ...

لاحظت التغير الذي طرأ على وجهه وهو يقول : انني اعيش لوحدي. فقد كان في تلك الكلمات شيء افهمه جيدا لمس مني شغاف القلب ، فمضيت للاقاتـــه ...

تطلعت خلال نافذة غرفته ـ كانت خالية منه ، مليئـــة باشياء غريبة عديمة النفع ، عديمة الترتيب ، مثل صاحبها تمامـــا . فقصدت الى الحديقة حيث وجدته مقتعدا خشبة متفحمة في الحفرة حيـــث شب الحريق ، وقـــد احدودب ظهره ، وارتكز مرفقاه على ركبتيه وتشابكت يداه خلف رقبته ... كانت الخشبة مغطاة بالاوساخ، تندفع احدى نهايتيها، في الهواء فوق الحشيش ونبات القريص والارقطبون . لم يكن مرتاحا في جلسته هناك ، مما جعلني اشعر بمزيد من الاسف والحزن ، اجتذبنى اكثر فاكثر الى ذلك الرجل ...

ظل وقتا طويلا يرنو الي بعينيه المعبقتـــين الغائرتين ، لكـــن دون ان يراني فيما يبدو ، ثم سأل فجأة في ضيق وملل :

ـ اجئت تطلبنـــي ؟

ـ كـــلا !

ـ ماذا تريد اذن ؟

ـ لا شيء على التعيين !

فنزع نظارتيه ومسحهما بمنديله الملطخ ببقع سود وحمر . قال :

ـ تعالى الى هنـــا .

ضمني اليه ، عندما اخذت مكاني بالقرب منه ، وقال :

ـــ اجلس هنا ! اننا سنجلس فقط دون ان نتكلم . ما رايك ؟ هكذا . . . انك حقا لفتى عنيــد !

ـــ نعــم !

ـــ هذا رائــع !

وقبعنا هناك ، مدة طويلة ، دون ان نتفوه بكلمة واحدة . . . كانت الامسية لطيفة هادئة ، من تلــك الامسيات الصيفية الضجرة الحزينة ، عندما تاخذ الزهور بالذبول والجفاف أمام عينيك ، والارض المنهوكة مـــن رائحة الخريف الرطبة ترشح بالبرود والبلـــل ، والهـــواء يشف بشكل غريـــب ، والغربان تتواثب في السماء المحمرة تثير في الخواطر أفكار حائرة قاتمة . كان كل شيء ساكنا ابكم ، حتى ان الاصوات الخفيفة ، من حفيف أجنحة الطيور الى صدى سقوط الاوراق ، ترن بصورة تدفعــك الى الانتصاب والتلفــت حوالبك قلقا مستفهما ؛ ثم يعود كل شيء فيغـــرق مرة أخرى في السكـــون العميق الذي يجلل الارض بأسرهـــا .

كانت تلك اللحظات البهية تستدعي افكارا نقية صافيـــة ، لكنها هشة شفافة كنسيج العنكبوت ، تتحدى المرء ان يثبتها في كلمات . انهـــا تومض وتغيب كالنجوم المتساقطة . تملأ النفس حزنا ، او تملؤها غبطة ، او تقلقها، او تجعلها تغلي لتتجمد في اشكال ثابتة ـــ في مثـــل تلك اللحظـــات نتكـــون الشخصية وتأخذ القالب الذي ستحتفظ به مدى الحياة .

رنوت وجليسي ، وقد ركنت الى جسده الدافـــيء ، ناحية التكتـــلات السود التي ترسمها فروع شجرة التفاح حيث راينا « زقيقية » تندفع نحـــو السماء الواسعة ، ورأينا الحساسين تنقر نبات اللفـــت الجاف تفتش عن حبوب مبتلة ، ورأينا السحب الرمادية المتدافعة بتجمعاتها القاتمة تتراكض على طول الحقول ، ورأينا جموع الغربان تتناكـــب في اتجاه المقبرة حيـــث اعشاشها . كل ذلك كان جميلا ، وكأنه ارتدى حلة خاصة واضحة للابصار قريبة الى الافهـــام .

كان رفيقي يصعد تنهداته ، بين وقت واخر ، ويسأل :

ـــ هذا رائع ، اليس كذلك ؟ رائع ، يا اخي ! هم ، ولكن الطقس رطب، الست مصيبا ، الا تشعر بالبـــرد ؟

قال عندما اسودت السماء ، وغرق كل شيء في عتمة الليل :

ــ حسنا ، أعتقد ان ذلك يكفي . هيا بنا . . .

وتوقف ، عندما بلغنا بوابة المنزل ، وقال :

ــ ان جدتك امراة رائعة . آه ، يا له من وجود !

ثم اغلق عينيه وابتسم ، وتابع بهدوء ووضوح :

ــ « وذلك كان عقابه ، لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، واخضع ارادته لارادة سواه» .

ثم وجه حديثه الي ، وهو يدفعني داخل البوابة :

ــ تذكر ذلك ، يا اخي ! اتعرف الكتابة ؟

ــ كــلا !

ــ تعلم . وعندما تتعلم اكتب قصص جدتك ، أن لذلك اهمية كبيرة .

اضحينا صديقين حميمين . . . فاعتدت ، منذ ذلك اليوم ، زيارة « هذا رائع ! » كلما رغبت في ذلك ، فاجلس على صندوق مليء بالقمــاش أراقبه منشرح الصدر ، وهو يصهر الرصاص او يسخن النحاس ، فاذا بلــغ درجة الاحمرار راح يطرقه صفائح رقيقة ، على سندان صغــير ، بمطرقة خفيفة ذات مقبض جميل . وكان « هذا رائع ! » يستعمــل أيضا مبردا ، ومناشر رفيعة بعضها رقيق كالشعرة ، ويزن كل شيء بميزان دقيق من النحاس ، ويمزج سوائل مختلفة في وعاء من الصيني الكثيــف ، فيعبح جو الغرفــة برائحة خانقة ، ويكشر ، وهو ينظر في كتاب ضخــم ، وبغمغم بشيء ما ، وهو يعض شفتيه الحمراوين ويتنهد بلطف ويدندن :

ــ آه ا يا زهرة شارون . . .

ــ ماذا تفعــل ؟

ــ شيئا هاما ، يا أخــي .

ــ ما هــو ؟

ـ ستری ، فأنا لا اعرف كيف اشرح لك ذلك الان لافهمك اياه . . .

ـ جدي يقول انك تزور العملـــة .

ـ جدك ؟ هم ! ذلك هراء ! ان المال ، يا اخي ، لا يستأهل كل ذلــك العنـــاء .

ـ اذن ، ماذا تدفع ثمن خبـــزك !

ـ هذا صحيح ، فنحن لا نستطيع شراء الخبز بدون المال .

ـ ارايت ؟ واللحم كذلك . . .

ـ واللحم كذلـــك !

وضحك بهدوء ضحكة لطيفة بعثت الغبطة في قلبي ، ثم فرك اذني مداعبا كما يفعل لقطة صغيرة ، واضاف :

ـ اني لا اقدر على مناقشتك يا اخي ، فأنت تفحمني دوما وتضيـــق الخناق علي . فلنكف عن الحديث اذن .

كان يمتنع احيانا عن العمل ويجيء فيجلس الى النافذة قربي ، يراقب معي من خلالها اشجار التفاح تتعرى من أوراقهـــا ، أو المطـــر ينهمر على السطح بعنف ويسيل في الساحة المغطاة بالعشب . وكان « هذا رائع ! » بخيلا في كلامه ، فاذا تحدث لم ينطق الا بالكلمات الضرورية التى تبدو لى ، دائما ، وكأنها الحقيقة بعينها ، واذا اراد ان يلفت انتباهـــي الى امر ما ، لكزني بمرفقه واشـار الى الشيء بغمزة من عينه .

لم اكن ارى في ساحتنا شيئا يبعث على الاهتمام . ولكن تلك اللكزات، وما يرافقها من كلمات ، كانت تضفي على كل مـــا اراه معنى خاصا وتحفره عميقا في ذاكرتي . فهذه قطة تمرق في الساحة ، ثم تقف امام بركة من المياه المتجمعة تراقب فيها انعكاس صورتها ، وترفع مخالبها المرعبة كما لو كانت ستضرب بها الظل المنعكس ، فيقول « هذا رائع ! » بلطف :

ـ ان القطط المتكبرة متشككة !

ويطير الديك الاحمر الذهبي « ماماي » . ويحط على السور ، ثم يخفق بجناحيه ، وهو يكاد يفقد توازنه ، فيتضايق ، ويبدأ يصيـــح بغضب ، وهو يمد عنقه الى الامام . . . ويقول :

ـــ انه يتغطرس ، هذا الجنرال ، ولكنه اخرق عديم الشعور .

ويشق الاعرج غالي طريقه وسط الساحـــة كحصان هرم ، وقد رفع راسه العريض المتورم يتطلع شزرا الى السماء ، فوقعت عليه خيوط شاحبة مـــن اشعة شمس الخريـــف جعلـــت أزرار معطفـــه النحاسيـــة الكبـــيرة تلتمع زاهية ، فتوقف التتري عن المســـير ، ولمس تلك الازرار بأصابعـــه الملتوية متاثرا ، فقال صاحبـــي :

ـــ انه يتأمل الازرار وكأنها مداليات علقت على صدره !

وسرعان ما اكتشفت ان تعلقي بـــ « هذا رائع ! » يزداد وثوقا وقوة. واصبحت لا استطيع له فراقا ، اتقاسم واياه جميع افراحي واحزاني . وبالرغم من قبله ، بطبيعته ، الى الصمت ، فهو لم يجـــرب أبـــدا ان يمنعنى عـــن التحدث ، في اي وقت كان ، عن كل ما يجول في خاطري من افكار . أما جدي فعلى نقيض ذلك ، ينهرني كلما انفرجت شفتاي بقوله :

ـــ كف عن ثرثرتك ، يا طاحونة الشيطان !

لكن « هذا رائع ! » يصغي الي بانتباه ، وغالبا ما يقول وهو يبتسم :

ـــ ولكن هذا غير صحيح ، يا اخي ! انك تختلق ذلك من مخيلتك ...
كانت ملاحظاته الوجيزة جديرة بالعناية ، تقع في حينها .... فيخيل الى انه يستطيع ان يستشف ما في قلبي وعقلي ، ويخمـــن الاشياء المزورة المختلفة التى تجول في راسي قبـــل ان تمر على شفتي ، فيذبحهـــا ، عندما يراها ، ويخنق نقاشا لا فائدة منه قبل ان يولد بأربع كلمـــات لطيفة يقولهـــا بشغف وولـــع :

ـــ انت تكذب !

ـــ وكيف عرفـــت ؟

ـــ اوه ، انني اعرف ذلك تماما ؟

كانت جدتي تصحبني معها ، فيكثير من الاحايـــين ، لنستقي الماء من مضخة ساحة سينايا . فراينا ، ذات يوم ، خمسة من اهل المدينة يضربون فلاحا مسكينا ، القوا به على الارض ثم هجموا عليـــه كعصبة شرسة مـــن الكلاب فتناولت جدتي الدلو مـــن خشبتـــه ، وهجمت على البورجوازيـــين الخمسة ، وهي تصيح بـــي :

ـ اهرب من هنـــا !

كنت خائفا . فاسرعت وراءها ركضا ... وشرعـــت أرمي الاعـــداء بالحجارة ، بينما انهالت الجدة عليهم بالعصا بشجاعة فائقـــة ، تنال منهم الراس والكتفين معا . واشترك في المعركة بعض الناس ، ففر البورجوازيون بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، وعندئذ التفتت جدتي الى الفريسة تغسل وجهه الذي اثخنته الجراح . وما زلت ارتعد فَرقـــاً ، حتى اليوم ، كلمـــا تخيلت كيف ضغط ذلك الفلاح شفتيه الممزقتين بأصبعه المتسخة ، وسعل ونبح بصوت عال ، بينما الدماء تنصب غزيرة من بين اصابعـــه على وجـــه الجدة وصدرها . وطفقت تنوح بدورهـــا ، وترتجف مـــن ام رأسهـــا حتى اخمص قدميهـــا .

وانطلقت ، عندما بلغت الدار ، الى غرفة المستأجـــر اقص عليه مـــا حدث . فتوقـــف عن العمل ، ووقـــف أمامي ، وهو يحمل مبـــردا طويـــلا كالسيف ، يصغي الى حديثي . ثم نظر الي بجفاء ورسوخ من تحت نظارتيه ، وقاطعني فجأة قائلا : وهو يشدد على كلماته بصورة غير معتادة :

ـ رائع ! هذا ما حدث بالضبط !

كنت مضطربا بعد ، متأثرا بما رايت ، فتابعت الحديث دون ان اعير اقواله انتباها . ولكنه احاطني بذراعه ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يقاطعني من جديد ، ويقول في لهجة عتاب وتوبيـــخ :

ـ يكفي ، يكفي ! لقد قلت كل ما يجب ان يقال !

فتوقفت عن سرد الحديث ... آلمني ذلك بادئ الامر ، ولكنني ، اذ تمعنت فيه جيدا ، ادركت في دهشة بالغة انه اوقفني في الوقت المناسب ... كنت ، في الواقع ، قد رويت كل شيء ...

قـــال :

ـ اياك ان تشغل فكرك بسخافات كهذه . حاول ان تنسى ذلك !

كان ينطق ، احيانا ، باشياء هادئة جدا بحيث اظـــل لها ذاكرا طـــول الحياة . وقد حدثته مرة عن عدوي اللدود كوشنيكوف ، احـــد ابطال شارع

نوفايا ، وهو صبي سمين ، كبير الرأس ، لم اكن استطيع ان انال منه اكثر مما كان ينال مني ، واصفى « هذا رائع ! » الى متاعبي ، ثم قال :

ـــ هراء ! ان قوة بهذا الشكل لا تعد قوة على الاطـــلاق . ان القوة الحقيقية تكمن في الحركة السريعة ، فكلمـــا كنـــت نشيط الحركة سريعهـــا كلما كنت قويا ـــ أتفهم ؟

وفي نهار الاحد التالي جربت ان تكون لكماتي اكثر سرعة ، فاستطعت بسهولة كبـــيرة ان اتغلـــب على كوشنيكـــــوف ، الامر الـــذي زاد مـــن تقديري لكلمات جارنا ونصائحـــه .

ـــ يجب ان تعرف كيـــف تمسك بالاشياء ، أتفهم ؟ انـــه عمل صعب ان تجيد مسك الاشياء .

فلم افهم ما عنى بكلامه ، ولكنني تذكرت ذلك ، واشيـــاء أخرى عديدة مماثلة . تذكرت ذلك لان فيه سرا يكتنفه يثير في النفس ، بالرغم من بساطته، الحيرة والعجب .

كانت كراهية سكان دارنا لـــ « هذا رائع ! » تزداد يوما بعـــد يوم ، حتى ان قطة السيدة الشابة التي تتسلق غرف الجميع دون تفريق ، امست تستثنيه من هذه الثقة ولم تعد تلبـــي نداءه اللطيـــف . واغاظني ذلك منهـــا فعاقبتها عليه بشد الاذن ، ورحت أجرب ـــ باكيا مترجيا ـــ ان اقنعهـــا بالا تخاف من صديقي . لكن « هذا رائع ! » يجد لها الاعذار ، فيقول لي :

ـــ ان رائحة ثيابي تنفرها منـــي .

اما انا فكنت على ثقة من ان لكل فرد من أهل البيت ، بما فيهم جدتي ، اسبابا خاصة تدفعه لان يضمر البغض للجار ، ويناصبه العـــداء الشديد . وكنت ارى في كل ذلك خطأ فادحا يثير في الما لا يحتمل . . .

سألتني جدتي بغضب :

ـــ لم تحوم حوله دائما ؟ انتبه ! فالله وحده يعلم ما سيلقنك اياه !

اما جدي ، راس الشر فكان يجلدني بوحشية كلما بلغه انني زرت ذلك

المستأجر . وطبيعي انني لم أطلع « هذا رائع ! » على ما ينالني من عقاب كلما عصيت أمر الامتناع عن زيارته ، غير انني أخبرته صراحة برأيهم فيه :

ـــ ان جدتي تخافك ، وهي تقول انك تشتغل بالسحر الاسود ، وهذا هو رأي جدي ايضا ، فهو يقول انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس أن يتعاملوا معـــك .

فهز رأسه وكأنه يطرد ذبابة تضايقه ، ولمع وجهه الشاحــب بابتسامة ينقبض لها قلبي ،ويترنح منها رأسي ، وقال بهدوء :

ـــ اني أستطيع رؤية ذلك ، يا اخي . هذا شيء محزن ، أليس كذلك؟

واخيرا ، ابعدوه عن البيت . . .

وجدته ، ذات صباح بعد طعام الافطار ، متربعـــا على الارض يحزم امتعته وكتبه في حقائبه وصناديقه ، وهو يترنم بلحن زهرة شارون . . .

ـــ حسنا ، الوداع يا صديقي ، اني ذاهب .

ـــ ولم ذلـــك ؟

فتأملني لحظة قبل ان يجيـــب :

ـ الا تدري السبب ؟ انهم في حاجة الى غرفتي من أجل والدتك .

ـــ من قال هـــذا ؟

ـــ جـــدك .

ـــ انـــه يكذب !

فضمني « هذا رائع ! » اليه ، وقال بهدوء ، بينما كنت اتخـــذ مجلسي علـــى الارض :

ـــ لا تغضب ! ظننت انك على علم بتلك المكائد ، وانك تخفيها عني ، ولذلك احدثك بأمرها يا اخي ، وانا لا احب ذلك على اية حال . . .

ثم تابع هامسا :

ـــ اسمع ... أتذكر منعي اياك من زيارتي ؟

فأومأت بالايجـــاب ...

ـــ لقد جرحت شعورك يومذاك ، أليس كذلك ؟

ـــ نعـــم !

ـــ انا لم اقصد ذلك ، ولكنى عرفت انهم سيؤنبونـــك اذا ما اصبحنـــا صديقين ، فأردت ان أوفر عنك عناء ذلك

وطفق يحدثني كما لو كنا اصدقاء في سن واحدة . وكانت كلماته تغمرني بالمرح والسعادة ، ويخيل الي اني أعرف ـــ منذ أمد بعيد ـــ كل شيء يريد ان يطلعني عليه . قلـــت :

ـــ لقد فهمت ذلك منذ مدة طويلة .

ـــ حسنا ! ذلك افضل ، يا اخـــي .

ـــ وإحسست الما عنيفا يعتصر قلبي ، فسألته :

ـــ لم لا يحبك احـــد ؟

فاحتضنني بلطف وتطلع بعيدا ، وهو يجيب:

ـــ لانني غريب ، أتفهـــم ؟

فتملقت بكتفه دون ان أعرف ماذا اقول او افعل ...

واضـــاف :

ـــ لا تغضب !

وهمس بعد فترة في اذنـــي :

ـــ ولا تبـــك أيضـــا .

ولكن الدموع انهمرت على خديه من تحت نظارتيـــه الوسختين ... وجلسنا هكـــذا مدة طويلة صامتين ، كالعـــادة ، شاردين ، نجمجـــم بـــين حين وحين بكلمات مقتضبـــة .

وفي ذلك المساء ، وبعد أن ودع الجميع ، وعانقني بحرارة ، مضى في حال لحظة كومضة برق .

ركضت خارج البوابة ، أراقبه يبتعد وهو قابع على قمة العربة التي انطلقت تسحق بعجلاتها أكوام الاوساخ المتجمدة ... ولم يكد يبرحنا حتى شرعت الجدة بتنظيف غرفته القذرة . فذهبت اليها ، ورحت أركض أمامها من زاوية لاخرى متعمدا مضايقتها ... فصاحت بي :

ـ اخرج من هنا !

ـ لم طردتموه ؟

ـ هذا ليس من خصوصياتك .

ـ انكم حمقى ، كل هذه العشيرة .

فأسرعت تلطمني بالمسحة المبلولة ، وهي تصيح :

ـ هل جننت ، أم ماذا ؟

فأجبت مصححا :

ـ لقد جن الجميع ، الاك ...

وعلى طاولة العشاء ،مساء،قال جدي :

ـ حسنا ! شكرا لله على ذهابه . لقد كان كالخنجر يحز في قلبي كلما رأيته ، ولذا تخلصت منه .

فكسرت ملعقة لشدة حنقي ، نلت جزاء عليها عذابا صارما ...

وهكذا انتهت صداقتي مع أول انسان من تلك الجماعة التي لا تحصى من البشر ـ الغرباء في موطنهم الام ـ رغم كونهم افضل أبنائه .

٩

استطيع ان اشبه نفسي طفلا بخلية نحل يحمل اليهـــا اناس متباينـــون مسل معرفتهم وآرائهم في الحياة ، وكل منهـــم يشترك اشتراكـــا واسعا ، حسب امكاناته الخاصة ، في اختلاف اطوار شخصيتي . وغالبا ما كان العسل مرا ، ولكنه ، باعتباره معرفة ، كان عسلا على اية حال .

تمكنت أواصر الصداقة ، بعد رحيل « هذا رائع ! » ، بيني وبين العم بيوتر ، وهو يشبه جدي في رقته ، واناقته ، ونظافته ، وإن كان أضعف جسما واقصر بقليل ، يثير مرآه في النفس صورة مراهـــق يرتدي ـــ لمجرد التسلية فقط ـــ ثياب شيخ طاعن في السن . وكان وجهه كثير التغضن ، تلتمع عليه عيناه الضاحكتان كطيرين صغيرين . وكان شعره الرمـــادي الاشيب اجعد الخصل ، ولحيته الطويلة تمتد بشكل دوائر عديده ، وفمه ينمـــادى بغليون يطلق دخانا يماثل لون شعره . وكان يخيل الـــي انه يهـــزأ بالناس دونمـــا انقطاع ، وهو يروي سيرة حياته :

ـــ في البدء قالت لي الكونتس التي تملكني ، وتسمى تاتيـــان ، وتكنى الكسييفنا : ستكون حدادا . ولكني لم اكد ابدأ ذلك العمل حتى قالت : كن مساعدا للبستاني . فلم اعترض ، واصبحت بستانيا . ولكن ، كمـــا يقول المثل « اعط الخبز للخبار ولو اكل نصفه » . وعندما لم انجح في عملي الجديد، قالت : جرب ان تصطاد ، يا بتروشكا . فقبلت ، لان الامـــر ســـواء عندي ، وابتعت عدة الصيد . ولم اكد اتعود عملي الجديد حتى قلت للاسماك وداعا، اذ ارسلتني سيدتي الى البلدة لاخدم فيها سائقـــا ، او اي شيء اخر ارغب

فيه . وقبل ان تسنح لها الفرصة لتجمل منسي شيئا اخر جاء التحري
واصبحت طليقا لا املك الا الحصان . ومنذ ذلك اليوم اضحيت اتبع الد
بدلا من الكونتس .

كان حصانه هرما ، يخيل الي انه كان — فيما مضى من الزمن —
اللون ، لكان فنانا ثملا رماه بفرشاة وسخة ، ولم يعن بمسح ا
الدهان عنه . كان حيوانا سقيما ، معوج الارجل ، يتدلى رأسه الن
بعينيه المتعكرتين في اسى بالغ من عنق يكاد الا يصله بالجسد الا
الاوردة الضخمة ، وقليل من الجلد الجاف المنكمش .

ولكن العم بيوتر يعامله ، مع ذلك ، باحترام عظيم ، فيدعوه تانيا
يضربه ابدا .

ساله جدي مرة :

— لم تطلق على حيوانك اسما مسيحيا ؟

— ولكن لا ، يا فاسيلي فاسيليفيتش — لا ابدا ! ليس تانيا
مسيحيا ابدا . ان الاسم المسيحي تاتيانا .

كان العم بيوتر على قسط وافر من الثقافة ، وله بعض الالمام ب
المقدس . فيخوض وجدي على الدوام غمار نقاش لا ينتهي ، موضو
اقدس الجميع بين القديسين ؟ وكانا يدينان ، دون رأفة ، جميع الذ
الواردة اسماؤهم في التوراة ، وابشالوم منهم بصورة خاصة . و
نقاشهما يتخذ احيانا شكل حامي الوطيس . فيصيح جدي ، بعد نقاش
وعيناه الخضراوان تلمعان شررا :

— اخرج من هنا ، يا الكسي !

كان العم بيوتر مولعا بالترتيب والنظافة الى حد بعيد . واينما م
الساحة يلتقط القضبان الصغيرة ، والنشارة ، وهو يهمهم مزمجرا :

— انها لا تصلح الا لتعترض الطريق !

كان ثرثارا ، تدل ملامحه على اللطف والانس ، وان كانت سحابة
تغشى عينيه في بعض الاوقات ، فاذا هما اشبه بعيني جثة ميتة . و

ما كنت اراه جالسا في بعض الزوايا المظلمة ، صامتا ، مكتئبا ، كابن اخيه. فاركض اليه ، وأسأله :

— مما بك ، أيها العم بيوتـــر ؟

فيجيب بأسى شديد وصوت قاس بكلمات لا افهم منها شيئا .

وكان يقطن احد منازل شارعنا سيد في جبهته حدبه ضخمه ، وفـــي راسه هوس غريب لا يفارقه : فهو يجلس ، كل يوم احد ، الى النافذه يطلق النار على الكلاب ، والقطط ، والفراخ ، والغربان ، وحتى على المارة الذين لا ترون له رؤيتهم . وقد فعل ذلك مرة مع « هذا رائع ! » ، لكن الرصاص لم يخترق معطفه الجلدي لحسن الحظ ، وان وقع بعض الخردق في جيبه . وأنا أذكر كيف وقف صاحبي وقتئذ يفحص باهتمام تلك الحبات الرصاصيه في راحة يده . وعندما حثه جدي على تقديم شكوى ضد المعـــدي ، رمى تلك الحبات في زاوية المطبخ ، وقال :

— انها لا تستأهل ذلـــك .

— وقد أرسل ذلك الاحمق ، مرة أخرى ، بعض الخردق في ساق جدي، الذي اهتاج كثيرا وشكاه الى حاكم البلـــدة ، وراح يجنـــد الشهود ضده . ولكن ذلك السيد اختفى ، فجأه ، وكأنما غيبته الأرض في جوفها .

كان العم بيوتر ، كلما ارتفع صدىً طلقات المجنون في الشـارع ، يسرع الى قبعته الباهتة اللون ، المريضة الحافة ، التي لا يرتديها الا أيام الاحاد فيضعها على رأسه ثم يخرج من البوابة ، وقد نفـــخ بطنــه ، ووضـع يديه تحت مؤخرة معطفه ليجعله يرتفع كذنب الطير ، ثم يروح يتمشى بنؤدة وكبرياء بالقرب من نافذة ذلك الاحمق ، ولا يمل، من ذلك ابدا . ويتجمع سائر سكان منزلنا قرب البوابة يراقبون ما يجري في الشارع ، بينمـايطل الضابط وزوجته الشقراء من النافذة ، وتغص ساحة بيتلينغ بالمستأجرين أيضا ، ولا يظل غير منـــزل آل اوفزيانيكـــوف عديـــــم الحركـــة ، فكأنـــــه قبـــر لا يضم الا الامـــوات . . .

كان تصرف العم بيوتر يظل دون جدوى في بعض الاحيـــان — فالصياد لا يحسبه صيدا يستأهل الرمي . . . وفي أحيان اخرى ، كانت طلقتا البندقية تتتابعان بشكل يصم الآذان .

ـ بـو ! بـو ! ...

فيقترب العم بيوتر منا ، دون ان يغير من سرعة خطواته ، ويقول برضى عظيـم :

ـ لقد اصابني في ذيل معطفـي .

لكن الطلقة اصابته ، ذات مرة ، في عنقه وكتفه ...

سألته جدتي ، وهي تزيل بابرة خياطة ما اخترق جلده من رصاص :

ـ لم تثيره هكذا ؟ ذلك المخلوق الشرس ! قد ينتهي بأن يقلع عينيك ! فيجيب باحتقـار :

ـ اوه ، لا ، يا اكولينا ايفانوفنا ! انه لن يفعل ذلك ابدا ! فهو لا يحسن الرماية على الاطـلاق !

ـ ولم تعطيه فرصة لارضاء غروره ؟

ـ لارضاء غروره ؟ ولكني انما افعل ذلك لاغاظته فقط .

ويضيف ، وهو يتطلع الى مكان الجرح :

ـ كلا ، بالتأكيد ليس هذا برام ابدا ! ان الكونتس تاتيان الكسييفنا قد ارتبطت ، مرة ، بعلاقات زواج موقتة ـ فقد كانـت تستبدل ازواجهـا كما تستبدل ثيابها ـ مع ضابط يدعى مامونت ايليتش . حسنا ، ذلك كان راميا فذا وربي ، أيتها الجدة ، يستطيع ببندقيته ان يفعل كـل شيء . لقـد كان يوقف الابله اجناشكا على بعد أربعين خطوة أو اكثر ، ويربط زجاجـة الى حزامه الجلدي ، بحيث تتدلى بين ساقيه اللذين يفرج اجناشكا بينهما وهـو يضحك كالمجنون . وعندها يصوب مامونت ايليتش البندقية ، ويطلق النار ، فاذا بالزجاجة تتطاير شظايا صغيرة ... وذات مـرة ، حرك اجناشكـا ساقه ـ لعل ذبابة عقصته ـ واذا الرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطم العظم . وقد استدعي الطبيـب فاسرع ، في مثل طرفة عين ، يقطع الساق ... هكذا ، من هنـا ـ واشار باصابـع يده الى مكان القطـع ـ ولقـد دفنوهـا ...

ـ واجناشكا ؟ هل مات ؟

ـــ اوه ، لقد استمر يعيش في احسن حال ، فالبلهاء لا يحتاجــون ابدا للايدي والارجل ، بل بعيشون في عالمهم الجنوني ، يبفــذون من بلاهتهــم ، وجميع الناس يحيونهم ويقدمون لهم المعونة . . انهم جماعة غير مؤذية ، كما يقول المثل : « من لا عقل له ، لا ضرر منه » .

لم تؤثر تلك القصة في جدتي ، فهي تعرف الكثير مــن تلك القصص ، ولكنها جعلتني ارتجف : فسألت صاحبي :

ـــ ايستطيع اى من النبلاء ان يقتل اي انسان كان ؟

ـــ ولم لا ؟ انه يستطيع ذلك ! بل ان النبــلاء يقتلون بعضهــم بعضا احيانا . وقد حدث مرة ان جاء احد الفرسان لزيارة تاتيان الكسييفنا ، فاشتبك مع مامونت في معركة حامية الوطيس ؛ وقد شهر كــل منهمــا مسدسه ، ومضيا معا الى الحديقة . وهنالك ، في الممر ، بالقرب من البحــيرة ، اطلق الخيال النـــار على مامونت فاصابـــه في كبده . . . حسنا ! مضى مامونــت الى ملكوت السماوات ، ومضى الخيال الى بلاد القوقاز ، وكان ذلك نهاية كل شيء . . . ارايت ؟ انهم يتذابحون ! اما الفلاحون ومن كان على شاكلتهم فما اكثرهم ! وخاصة في هذه الايام ، حيث لم يعودوا يملكونهم كما من قبل . لقد كانوا ، قبلا ، اكثر حذرا وعناية ، لان الموجيك . على اية حال ، كان ملكا لهــم !

فقالت جدتــي :

ـــ انهم لم بعنوا بهم ، حتى في ذلك الحين ايضا .

فوافق العم بيوتر بأشارة من راسه ثم تابع يقول :

ـــ نعم ، ذلك صحيح ! ملكية خاصة بهم ، ولكنها ملكية رخيصة .

كان لطيفا معي الى حد بعيد ، ان تحدث الى فبرقة لم اعهدها عنده في معاملته للكبار ، ودون ان يغلق عينيه ايضا كعادته التي لم تكن تروق لي . . . ولكن شيئا فيه لم يعجبني . كان عندما يعزمنا على المربى المفضل ، يقتطع لي من الخبز قطعة تكبر حصة الاخرين . واذا زار المدينة ، جلــب لي معه كعكا وحلــوى ، وجذور السوس ، وكثيرا ما كان يسالني بهدوء واهتمام :

ـــ حسنا ، ماذا ستفعل عندما تكبر ، ايها الشاب ، أتريد ان تكون جنديا ، ام موظفا ؟

ـــ بل جندي !

ـــ ذلك يليق بك ، اذ لم تعد حرفة الجندية صعبة في هذه الايام . وكذلك الامر بالنسبة الى الكهنة ـــ ما عليك الا أن تسير في الشارع ، وتصيح : « يا رب ارحم ! » فينتهي كل شيء . . . فحياة الكاهن أسهل بما لا تعهد ، من حياة الجندي . ولكن الافضل لك ان تحترف صيد السمك ، لان الصياد لا يحتاج الى اية معرفة على الاطلاق ـــ ما عليه الا أن يعتاد ذلك فقط ، وهذا كل شيء . . .

ويتوقف قليلا ليعود ، بعد فترة ، يهز رأسه بمرارة ويقول :

ـــ انك تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ؟ انك مخطيء اذن يا صاح ، اذ ليس من سبب يدعوك الى الغضب في مثل هذه الحال . انهم لا يجلدونك الا لمصلحتك الخاصة . . . ولكن ، هناك سيدتي تاتيان الكسييفنا مثلا ، تلك امراة تعرف كيف تجلد الناس ، لا بل كانت تحتفظ بشخص خاص لمثل تلك الاعمال ـــ ويدعى كريستوفور ـــ وهو اختصاصي في فن الضرب ، طبقت شهرته الافاق حتى اصبح الملاكون المجاورون يطلبونه من الكونتس . فيرسلون اليها يرجونها : تلطفي ، يا تاتيان الكسييفنا ، واعيرينا كريستوفور لينزل العقاب بعبيدنا . فكانت ترسله اليهم وفي نفسها شيء من الاعتداد .

وراح يروي لي ببرود واطناب كيف كانت الكونتس تجلس على كرسي احمر اللون بالقرب من بوابة قصرها ، تتالق في ثوب ابيض من الحرير ، ووشاح ازرق يلتف حول كتفيها ، تتطلع الى الجلاد كريستوفور يجلد العبيد من ذكور واناث بشغف ولذة :

ـــ لقد كان كريستوفور هذا ، بالرغم من قدومه من ريازان ، يشبه غجريا او اوكرانيا في مظهره : فشاربه يمتد من الاذن الواحدة حتى الاخرى ، ووجهه شديد التورم لانه كان يحلق لحيته دوما . ولست أدري ان كان نصف مجنون ، او انه يدعي ذلك حتى تتيسر شؤون حياته . وكثيرا ما كان يدخل الى المطبخ ، ويملأ احد الاحواض ماء ، ثم يصطاد ذبابة ، او حشرة ، أو بعض الخنافس ، ويتسلى باغراقها في الحوض بان يدفعها

تحت الماء بطرف أحد القضبان ، ويقضي زمنا طويلا منهمكـا في هذه المهمـة الغريبة . وكانت ياقة قميصه تقـدم له ، في كثـير من الاحايـين ، فرائس هوايتـه .

كنت أعرف كثيرا من تلك القصص ، فقد روى لي جداي عددا لا يحصى من امثالها . وهي ، بالرغم من اختلافها ظاهريا ، تتشابـه بصورة غريبـة جدا ، موضوعها دوما الالام البشريـة ، والـذل ، والهوان ، وفي كل منها انسان يتعذب ، او عبد يضطهد ، او فلاح يسخر منه . ومللت ، كل الملل ، تلك الاقاصيص وعزفت عن سماعها فقلت للسائق :

ـ حدثني عن شيء اخـر .

فجمع سائر خصل لحيته المجعدة فوق فمه ، ثم رفعهـا حتى عينيه ، واردف موافقـا :

ـ حسنا ، ايها الجشع ! هاك شيئا اخر . . . لقد كنا نملك ، مـرة ، طباخـا . . .

ـ من كان يملـك الطباخ ؟

ـ الكونتس تاتيان الكسييفنـا .

ـ ولم تدعوها تاتيان ، كما لو كانت رجلا ، عوضا عن تاتيانا ؟ انهـا امرأة ، أليس كذلـك ؟

ـ بالطبع ، انها سيدة ! لكنها ، مع ذلك ، ذات شارب أسود اللون ، فهي جرمانية الاصل ، أهلها اشبه بالقبائـل السود . حسنا ، لقد كنا نملك طباخا ، هيه هيه ، هذه قصة مضحكة ، يا عزيزي . . .

كانت تلك القصة المضحكة تتلخص في ان ذلك الطبـاخ أفسد ، مرة ، طائرا يطبخه ، فعوقب على ذلك بتناوله طعاما دفعة واحدة . وكانت نتيجـة ذلك ان سقط مريضا ، ولازم الفراش طويلا . فقلت معقبا باشمئزاز :

ـ انها ليست بالقصة المضحكة على الاطلاق .

ـ ما هو المضحك اذن ؟ هيا ارو لي . . .

ــ لست ادري .

ــ اذن ، عليك بالصمت .

ومرة اخرى، راح يلفق اقاصيصه المملــة ...

* *

كان يزورنا ، احيانا ، ايام الاحاد والاعياد ، ابنا خالــي ، احدهما ، ابن ميخائيل ، حزينا كسولا كعادته ، والاخر ، ابن ياكوف ، نظيفا ، ذكيا ، ملما بكل الامور ، كعهدي به ابدا . وفي ذات يوم ، بينمــا كنا على السطح ــ ثلاثتنا ــ شاهدنا سيدا مقتعدا كومة من الاخشاب في ساحة آل بيتلينغ ، يلاعب عددا من الكلاب الصغيرة . كان يرتدي معطفــا طويلا اخضر اللون ، يضع فوقه فراء ثمينا اسوداً ، اما راسه الصغيرـــ دون شعر ـــ الاصفر اللون، فكان دون غطـــاء . اعجبنـــا بالكلاب ، فاقترح ابن خالي ميخائيل ان نسرق احداها الامر الذي لقي منا تأييدا تاما دون ادنى تردد ... فرسمنا ، بسرعة فائقة ، خطة لذلك مؤداها ان يخـــرج ابنا خالــي الى الشـارع ، وينتظـــران عند بوابة آل بيتلينغ الكبيرة ، بينما اقوم انا باخافة ذلك الرجـــل ، حتى اذا هرب انتهزا فرصة الفوضى التي ستنجم عـــن ذلك ، ودلفـــا الى الساحة ليختطفا الجرو الصغير ، سألت :

ــ وكيف اخيفـــــه ؟

فاقترح احدهمـــا :

ــ ابصق على راسه الاصلع .

فلم اجد في البصاق على راس اصلع خطيئة كبيرة ، فانا اعرف اساليب عديدة لانزال الاذى والضرر بالناس تفوق هذه شرا بشكـــل عنيف . ولذا لم اتردد في تنفيذ تلك المهمة التي عهد بها الي ...

لكن ذلك التصرف اثار ضجة كبيرة ، وسرعان مـــا غزا ساحتنا جيش كامل من نساء آل بيتلينغ ورجالهـــم جاؤوا ، يقودهـــم ضابط فتي انيـــق . وباعتبار ان زميلي كانا يلعبان بكل هدوء في الشارع اثناء ارتكاب الجريمة ،

قدر لي ان اتحمل الجزاء وحدي من دونهما ، فقام الجد الكريم بجلدي ، في احتفال كبير ، متملقا سكان الدار المجاورة مخففا من غضبهم ونقمتهم .

كنت اضطجع فى المطبخ محطم الاعصاب ، متألما ، عندما جاءني العم بيوتر ، وقد ارتدى أبهى ثيابه ، يبدو عليه انه في احسن حالاته النفسية وهمس في اذني :

ــ تلك فعلة عظيمة تدل على الذكاء والفطنة ، يا صاح ! ان ذلك التيس الهرم البالي ليستحق ما ناله ! ابصق على عشيرتهم كلها ! كان افضل لو رميت راسه الاصلع بقرميدة ضخمة ...

فتذكرت ذلك السيد المرتدي معطفا اخضر ، المدور الجسم ، الاصلع الراس ، بوجهه الذي يشبه وجوه الجراء الصغيرة ، وقد طفق يزعق بهدوء والم كالكلب الصغير ، وهو يمسح راسه الاصفر بيديه الصفيرتين . واحسست بخجل عظيم لا يوصف ، وبالكراهية لانني خالي في ذات الوقت ، ولكننى نسيت كل ذلك الان ، اذ رايت وجه ذلك السائق الذي يشبه السلة المحفورة بالغضون العميقة ، والذي اكتسى مظهرا يبعث على الرعب والنفور الشديدين ، لا يدانيه في شناعته الا وجه جدي اثناء جلده اياي .

صحت ، وانا ادفع ببوتر عني بيدي وقدمي :

ــ اخرج من هنا !

ومنذ ذلك الحين ، فقدت كل رغبة في التحدث اليه ، ورحت اتجنبه ، واراقبه في الوقت ذاته ، فكانني اتوقع منه شيئا ما لا اعرف ماهيته على وجه التحقيق !

* *

وتبع تلك المغامرة ، بعد فترة وجيزة ، حادث اخر ... كان منزل آل اوفزيانيكوف موضع اهتمامى وشغلي الشاغل منذ مدة طويلة ، يبدو لى أن جدرانه العتيقة الرمادية تنطوي على وجود شيء غريب لا مثيل له الا فى الاقاصيص الخرافية .

وكان منزل آل اوفزيانيكوف كثير الضوضاء والمرح ، تعيش فيه مجموعة فتانة من الفتيات يتودد اليهن عدد من الطلبة والضباط الذين كنت تجدهم ابدا — ايان جئتهم — يضحكون ، ويصيحـون ، ويغنـون ، ويلعبون ، ويعزفـون الالحان الموسيقية . وكان للمنزل نفسه مظهرا سارا ، ينبعـث من نوافـذه الملتمعة بريق النباتات الاخضر بزهوته النادرة . ولكـن جدي لم يحب ذلك ابدا ، فهو يدعو سكانه جميعا بالكفرة والهراطقة ، بينما ينعـت نساءه بكلمة بذيئة غريبة ، فسر لي معناها العم بيوتر مرة بطريقة جد واضحة ...

لكن الجد كان متأثـرا من العبـوس والصمـت المخيمين علـى دار اوفزيانيكوف ، واللذين كانا يبعثان فيـه الاحترام والتقديـر ، كان منـزلا عاليا ، وان كان يقتصر على طابق واحد فقط ، يشرف على ساحـة مترامية الاطراف نظيفة مفروشة بالاعشاب ، ينتصب في وسطها بئر ماء عذب تحت سقف صغير قائم على دعامتين .وكان يقوم ، عن يمين مدخلَ البوابة الكبرى، مخزن للمحصولات يشبه المنزل الاصلي في كلّ شيء سوى ان نوافذه حصنت باطارات سمرت بالجدار ، وطليت شرائحها باللـون الابيض . وكان مظهـر هذه النوافذ يبعـث على النفـور والقـرف ، ويضاعـف في غموض الـدار الاساسية ، وتسترها عن الاعين ، وسعيها الى العيش حياة خاصة ، غير مفهومة . كان العقار بكامله ، بما فيه الاسطبـلات ، ومخازن المحصـولات الفارغة ببواباتها الكبيرة ، يبعث في النفس احساسا من الانتفاخ الصامت ، والكبرياء الهادئة .

كنت اشاهد ، احيانا ، شيخا باسق القامة ، حليق اللحيـة ، ابيض الشاربين المنتصب شعرهما كالابرة الحادة ، يـدب في الساحـة وهو يعرج على رجل واحدة . ومن وقت لاخر ، كان شيخ اخر ذو سالفين طويلين ، وانف اقنى ، يخرج من الاسطبل يقود حصانا رمـادي اللون ، ضيـق الصدر ، طاعن السن ، ضامر القوائم ، فاذا بلغا الساحة مرة ، شرع الحصان يهز راسه في كل الاتجاهات مثل راهبة طيبة القلب تحيي جميع من تصادفهم في طريقهـا ، بينما يـروح الشيخ يضربـه بقسوة على مؤخرتـه ورقبتـه ، ويصفر ، ويتنهد بعمق ، ثم يعود به ثانية الى الاسطبل المظلـم . وكان يتهيأ لي أن ذلك الشيخ يود الهرب والافلات من تلك الدار فـلا يستطيع لانه كان مسحورا .

وفي كل يوم تقريبا ، منذ الظهرة حتى المساء ، كان ثلاثة اولاد يلعبون

في الساحة ويمرحـــون . كانوا يرتدون معاطف رمادية ، وقمصانـــا وقبعات متماثلة ، لا بل كانوا جميعا ، بوجوههـــم المستديرة ، واعينهـــم العسلية ، يشبهون بعضهم بعضا كل الشبه حتى لم استطع التفريق بينهم الا باختلاف قاماتهم فقط .

كنت اراقبهم من خلال شق صغير في السور دون ان يلحظوا وجودي . الامر الذي كان يزعجني كثيرا . وكنت ابتهج برؤية العابهـــم اللطيفة المسرة غير المألوفة لدي . واحببت ، بصورة خاصة ، ثيابهـــم وطريقـــة عناية كـــل منهم بالاخرين ، وخاصة كبيرهم بأصغرهم سنا ـــ وهو فتى عنيـــد ، يبعث الغبطة في القلب ، والانشراح في النفس . كانوا ، اذا ما سقط على الارض، يضحكون جميعا ، ذلك ان الناس يضحكون دوما كلما وقع امرؤ على الارض، ولكن ضحكهم هذا كان بريئا من الخبث مجردا عـــن الدناءة . وسرعـــان ما يساعده الاخران على النهوض ، ثم يمسحان يديه وركبتيه بورقة من بعض الاشجار ، او بمنديليهما ... وكان الاوسط يجمجم بصوت رقيق عذب :

ـــ الحق عليك ايها الغشيم !

ولم ارهم يتخاصمون ، او يخدعون بعضهم بعضا أبدا ... بل كان الثلاثة اقوياء ، نشيطين ، ممتلئين حماسة .

تسلقت شجرة ذات يوم ، وصفرت لهم سعيا وراء استجلاب انتباههم الي . فتوقفوا عن الحركة ، ثم شخصوا بأبصارهم الي ، وراحوا يتشاورون بصوت منخفض ... فانتظرت ان يرموني بالحجارة . فاسرعت بالهبوط من مجثمي لاتسلق اليه ثانية ، بعد قليل ، وقد امتلأ قميصي وجيوبي بالحصى . ولكني وجدتهم يلعبون في زاوية بعيدة من الساحة ، وقد نسوا ـــ فيما يبدو ـــ كل شيء عنـــي . كان ذلـــك امرا يؤســـف له ، ولكنـــي لم ارغـــب في ان اكون البادىء باعلان الحرب ... وما اسرع ان نادى أحدهم من النافذة :

ـــ الى البيت ، ايها الصغار ! اسرعوا ...

فاستداروا طائعين ، وساروا كا لاوز ببطء وتثاقل ...

وكثيرا ما تسلقت ، فيما بعد ، تلك الشجرة المنتصبـــة فوق السور ، رجاء ان ادعى كي اشاركهم اللعب ، ولكنهم لم يدعونـــي ... وكنت ، فـــي تصوراتي ، اشاركهم تلك الالعاب على اية حال ، واتحمس لهـــا كثيرا حتى

لاهتف او أضحك عاليا من وقــت لاخر . وعندئذ ، كــان الثلاثة يرموننـــي بنظرهم ، ثم يتهامسون فيما بينهم بما لا افقه منه شيئا ، بينما اهبط انا عن تلك الشجرة حائرا مرتبكـــا .

وذات يوم ، شرعوا يلعبون « الغميضة » ، وكان على الاخ الاوسط ان يفتش عن الاخرين ، فوقف في زاوية قرب المخــزن ، وقــد وضع يديه على عينيه ، دون ان يختلس النظر ، بينما مضى الاخـــران يفتشان عن مخبأ . وأسرع الكبير ، وتسلق العربة الجلدية التي كانت في الساحـــة بحركـــات سريعة محكمة ، ثم استتر بسطح المخزن البارز . غير ان الصغير ظـــل يدور ويدور حول البئر ، دون ان يعرف أينيختبيء .

صاح الاوسط سنا :

— واحد . . . اثنـــان . . .

فتسلق الصغير ، في شبه جنون ، حافة البئر ، وتعلـــق بالحبل ، ثم قفز الى السطل الفارغ الذي اختفى على الفور ، مصطدما بعنف ووحشية بجدران البئر الحجرية . . . وامتلأت رهبـــة ، عندما رايـــت ان الحبل يهوي باندفاع وسرعة ، غير أن ذعري لم يطل اكثر من ثانية واحدة ، بل سرعان ما تصورت هول ما سيحدث ، فقفزت داخل الساحة المجاورة ، وانا اصيح :

— لقد وقع في البئـــر !

كان الاوسط قد بلغ البئر ، في اللحظة التي وصلت فيها اليه ، فتعلق بالحبل الذي رفعه عاليا ثم رماه على الارض وقد أحرق يديه . ونجحت في الامساك بالحبل بدوري ، وفي ذلك الحين ، وصل الكبير راكضا ، وساعدني في رفع الدلو . . . قال :

— تمهل ، أرجوك !

أخرجنا ذلك الصغير الذي بدا عليه الرعب بوضوح ، والدم يتدفق من أصابع يده اليمنى ، وقد جرح احد خديه بشكل ظاهر ، وابتل حتى خصره ، وشحب لونه كثيرا . ولكنه ابتسم مع ذلك ، وقال وهو يرتجف :

— يا لله . . . لم اعرف كيف سق..طت !

وتلعثم الاخ الاوسط :

ـــ أنت مجنـــون !

وراح يحتضنه ، ويمسح الدم عن وجهه ، بينما قطب الاكبر وجهه ، وقـــال :

ـــ تعال ، فنحـــن لا نستطيع اخفاء هذا الجرح بـــاي شكل . يحسن بنا أن نسرع الان .

فسألـــت :

ـــ هل ستجلدون ؟

فهز راسه ، ومد يده لي ، وقال :

ـــ انك تركض بسرعة غريبة .

فتمايلت لمديحه ، وقبل ان اصافحه ، راح يقول للاوسط :

ـــ هيا بنا ، والا اصيب بالبرد . سنقول ، بكل بساطة ، انه وقع على الارض . ومن المخجل ان نقول عن البئر شيئا .

فوافق الصغير :

ـــ نعم . سنقول انني وقعت في مستنقع .

ثم مضوا ...

غاب الاخوة الثلاثة ، بعد ذلك ، طـــوال اسبوع عن انظـــاري ... وعندما ظهروا اخيرا كانوا اكثر ضوضاء منهم في أي وقت اخر . وسرعان ما صاح كبيرهم ، عندما بصر بي ، بلطف ونعومة :

ـــ تعال تلعب سوية .

فخرجت اليهم ، وتسلقنا معا عربة عتيقة مهجورة حيث قضينا فترة من الزمن نتعارف . سألت :

ـــ هل ضربتـــم ؟

فأجاب الكبـــير :

ـــ لقد نلنا نصيبنا ، جميعـــا !

كان يصعب علي أن أصدق ان هؤلاء الصبية يجلدون مثلي ؛ واعتبرت ذلك ظلم ، فتألمت من أجلهم . . .

سأل الصغير بتردد :

ـــ لم تصطاد العصافير ؟

ـــ لانها تغرد بصوت حلو رائـــع .

ـــ لا تفعل ذلك بعد الان . دعها احرارا تطير انى تشاء .

ـــ حسنا ، لن افعل ذلك ثانيـــة .

ـــ ولكن ، قبل ذلك ، اصطد واحدا الان واعطنيه .

ـــ أيها تفضـل ؟

ـــ لا فرق ، بل فليكن مغردا فاضعه في قفص .

ـــ ذلك يجب ان يكون بلبـــلا .

فقال الاوسط :

ـــ ستقتله القطة . ولن يتركنا والدي نحتفظ بـــه .

فوافق الكبير بايماءة من راسه وقال :

ـــ هـــذا صحيـــح !

ـــ هل عندكم أم ؟

فأجاب البكـــر :

ـــ كـــلا ، ولكـــن . . .

فقال الاوسط مصححـــا :

ـــ نعم لنا . . ولكن واحدة اخرى ، وليست أمنا ، أمنا ماتت .

فقلـــت :

ـــ هذا النوع من النساء يسمى خالة .

فأما البكر فقال :

ــ هذا صحيـــح !

وغرق ، الثلاثة ، في صمت عميق . . .

كنت اعرف ، من أقاصيص جدتي ، ما هي الخالة ، فلم يعسر علـــي ادراك معنى حزنهم العميق هذا ، وقد جلسوا الان متلاصقين متراكمين مثل صيصان ثلاثه ، صغيرة ، مذعورة . . . وتذكرت قصة تلك الخالة الساحرة التي لجأت الى احط الوسائل غير المشروعة لتحل مكـــان الام الحقيقيـــة ، فحاولت ان أعزي الصبية بقولي :

ــ لا تغتموا ! ان أمكم الحقيقية ستعود ثانية .

فهز البكر كتفيه ، وقـــال :

ــ وكيف تعود وهي ميتة ؟ ان ذلك لن يحدث !

هل صحيح ان الموت ، في مثل هذه الحالات ، لم يرسل من قبل الله ، بل من قبل المشعوذين والسحرة ، وبالتالي لم يكن حقيقيا !

وطفقت أروي لهم بعض حكايات جدتي بحماسة وحمية ، ولكن الولد البكر ابتسم باحتقار ، وقـــال :

ــ لقد سمعنا هذه الحكايات ، انها قصص خرافية ليس غير !...

واصغى اخواه باحترام وهدوء ، وقد قطـــب الصغـــير وجهه ، وزم شفتيه ، ووضع الاوسط ذراعه على ركبته ، واحاط بساعده الاخر رقبة اخيه وهو يجذبـــه في اتجاهـــي .

كان كل شيء ساكنا عنـــد المساء ، وسحب رماديـــة عديدة تحلق فوق السطوح العالية ، عندما ظهر بيننا ذلك الشيـــخ الابيض السالفـــين ، وقد ارتدى معطفا بنيا طويلا يشبه جبة الكهنة ، وغطى راسه بقبعة كثيفة مـــن الفرو . اقترب منا ، ثم سال وقد اشار الي باصبعه :

ــ من هـــذا ؟

فنهض كبيرهم ، واشار براسه الى دار جدي ، وقال :

ـــ هو من هنـــاك .

ـــ ومن طلب اليه المجيء ؟

فنزل الثلاثة حالا عن العربة ، ومضوا في اتجاه البيت .
مرة ثانية ، كالاوز المطيـــع ...

وامسك الشيخ بي بخشونة من كتفـــي ، وقادنـــي عبر الساحة حتى البوابة . كنت اود ان أذرف الدموع من شدة خوفي ، ولكنه مشى بي مسرعا، وبخطوات كبيرة . بحيث وجدتني في الشارع قبل ان اتمكن من البكاء . ووقف بالقرب من البوابة ، وهيأ اصبعه في وجهي مهددا ، وقال :

ـــ اياك ان تتجاسر وتحضر لرؤيتي ثانيـــة !

فصحت غاضبـــا :

ـــ انا لم احضر لاراك انت ، ايها العجوز !

فطالتني ذراعه الطويلة مرة اخرى ، وقادني أمامه على طول الطريق، وهو يكرر ذات السؤال ، فتنهال كلماته مثل ضربات مطرقـــة ضخمة هبطت علـــى راسي :

ـــ هل جدك في الدار ؟

وشـاء حظي العاثر ان يكون جدي في الـــدار ... وقف امام الرجـــل المتوعد ، وقد رمى راسه الى الخلف ، وبرزت لحيته الى الامام ، وقال متلعثما وهو يتطلع بعينين مدورتين كبيرتين كئيبتين :

ـــ ان والدته غائبـــة ، وانا مشغول ، وليس من يعنى به . انـــي استميحك العذر ، يا كولونيل .

فزمجر الكولونيل بصوت تردد صداه في ارجاء البيت كله ، ثم دار على عقبيه ، وابتعـــد ...

وبعد فترة وجيزة كنت مستلقيا في عربة العم بيوتر اخفـــي دموعي ، بعد ان نلت نصيبي من الجلد كما لم اذق من قبل . فسألني السائق ، وهو يقود العربـــة :

ــ اجلدت ثانيــــة ، يا عزيزي ؟ ما هو خطاك في هذه المرة ؟

ولما اخبرته بالامر هب واقفا على قدميه ، وكز باسنانه ، وصاح غاضبا:

ــ لم أصادق جماعة مثل اولئك ؟ انهم من سلالة النبــلاء ، يعقصون كالافعى . . . أرأيت ما نالك بسببهم ؟ ستردها لهم فيما بعد ، من دون ريب؟ اليس كذلـــك ؟

واستمر يهذر على هذا الغرار مدة طويلة ، فاستمعت اليه ــ بادىء الامر ــ في كثير من الود ، ثائرا بسبب ما لحقني من الضرب بسببهم . ولكن وجهه الشبيه بالسلة طفق يرتجف بشكل يبعث على النفور ، فما أسرع ما تذكرت ان اولئك الصغار يجلدون أيضا ، وان ذلك قــد حدث لهم فعلا فيما مضى ، وانهم لم يتعمدوا مضايقتي أبدا ، فهم لا يستحقون اللوم أكثر مني في حال من الاحوال . قلــت :

ــ ليس من سبب يجعلني ارد ذلــك لهم . فهم طيبــون ، وان كــل ما تقول مجرد سخافات ليس غير .

تطلع الي بحدة ، ثم صاح فجأة :

ــ اخرج من عربتــيّ !

فصرخت ، وانا اقفز الى الارض :

ــ يا لك من احمق !

وانطلق يعدو خلفي في الساحة وهو يصيح ، دون ان يستطيــع الى امساكي سبيـــلا :

ــ احمق أنا ؟ اسخيف انا ؟ . . .

وظهرت جدتي على عتبة المطبخ ، فارتميت في احضانها ، بينما راح بيوتر يوضح لها ما جرى بيننا قائـــلا :

ــ ينغص حياتي هذا الكلب الصغير . وهـــو لا يفقه ما يقول ، فينعتني بسائر الاسماء البذيئة ، ويجرؤ على ان يدعوني كاذبا مع اني أكبره بخمس مـــرات . . .

كنت أفقد صوابي عندما أرى الناس يكذبون امامي ، فتعقد الدهشة لساني وتجعلني أقرب الى البلاهة . وهذا ما حدث لي عندئذ ، فوقفت أنظر اليه وقد فقدت القدرة على الكلام . . . ولكن الجدة قالت بلهجة رصينة :

ــ والان يا بيوتر ، انك أنت الذي يكذب . اني واثقة من انه لم يوجه اليك الفاظا بذيئة على الاطلاق .

اما جدي فكان يصدق ذلك السائق . . .

* *

ومنذ ذلك اليوم ، اعلنها السائق علي حربا صامتة شعواء ، فهو ينتهز الفرص ليلكمني في ظهري ، او يصيبني باللجام الذي يلوحه بيده عابثا ، وكأن الامر يحدث صدفة دون قصد منه ، كما افلت طيوري من اقفاصها ، وسلط القط عليها في احد الايام . . . وكان يشكوني ، في كل مناسبة ، الى جدي ، ويهمس في اذنه بأشياء كثيرة مغاليا ابدا في اظهار هفواتي وتعظيمها. وهكذا كنت لا أرى فيه ، من جراء ذلك ، سوى صبي صغير في مثل سني ، يرتدي لباس الرجال الشيوخ .

ورحت بدوري أتفنن في الانتقام منه ، فاحل شرائط صندليه ، وأقرض عصابات الاقمشة التي يستخدمها كجوارب لقدميه ، بحيث تتقطع عندما يشدها ليربطها . ورششت ، مرة ، بعض الفلفل في قبعته ، فظل يدور على عقبيه ويعطس طيلة ساعة كاملة . وعلى العموم ، فقد رحت أبذل ما في وسعي لارد له الكيل كيلين ، فاذا جاء يوم الاحد طفق يتجسس علي النهار بطوله ، ويراقبني بعين ساهرة يقظة لا يغمض لها جفن ، فان ضبطني في حالة من العصيان ، أتحدث مع النبلاء الصغار ، أسرع دون ابطاء يشي بي الى جدي .

لكن اتصالاتي استمرت ، بالرغم من ذلك ، مع اولئك الصبية ، وازدادت أواصرها توثقا يوما بعد يوم ، وهي تمدني بسرور لا يمكن وصفه . وكانت تنهض ، بين حائط منزل جدي وسور آل اوفريانيكوف ، زاوية صغيرة مظللة بشجر الليمون والسرو ، ومغطاة بادغال من شجر البلوط التي حفر وراءها متسعا صغيرا في السور ياتيني الصبية منه ، كل بدوره او اثنين

اثنين ، فنجلس القرفصاء نتحـادث في هدوء وسكينة ، بينمـا يخفر الثالث المكان كيلا يفاجئنا الكولونيل على حين غرة .

وسردوا علي قصة الحياة الكئيبة المفجعة الرتيبة التـي يعيشونها ، فاحزنني ذلك كل الحزن ، وحز كثيرا في قلبي . كنا نتحدث عن الطيور التي نصطادها ، وعن كثير من الامور التـي نملأ حياه الصغار ، ولكنـي أذكر تماما أنهم لم يأتوا أبدا على ذكر والدهم أو امرأة أبيهـم . وكثيرا ما كانـوا يسألونني ببساطة ان أحكي لهم قصة ، فأعيد على مسامعهم ــ بأمانة تامة ــ كل تلك القصص والحكايات التي سمعتها فيمـا مضى ... فاذا نسيت بعض التفاصيل ، طلبت اليهم الانتظار بعض الوقت ، ومضيـت الى المطبخ اتزود من الجدة ما غاب عن ذاكرتي الامر الذي كانت تسر له سرورا عظيما .

كنت أحدثهم ، في أغلب الاحيان ، عن جدتي ... وفي ذات مرة ، ندت عن البكر تنهدة عميقة ، ثم أعلن باكتئاب :

ــ لا ريبة ان الجدات لطيفات جدا . لقد كانـت لنا جدة لطيفة نحن الاخرون وكنا نحبها كثيرا ...

كثيرا ما تحدث بصيغـة الماضي ، ويردد كثيرا ، وبحـزن ظاهـر ، هذه التعابير : « كنا » و « كان لنا » و « ذات مرة » ، حتى ليخيل اليك انه عاش مئات السنين ، لا أحد عشر عاما فقط . وانا أذكر ان يديه كانتا نحيلتين، قد طالت اصابعهما ورقت ، لا بـل كان ــ في مجملـه ــ هزيـلا نحيـلا ، ذا عينين صافيتين هادئتين تثيران في الخاطر صورة لهب القناديـل المحترقة ابدا في الكنائس . ولقد احببت أخويه ايضا ، فقد كسبـا ودي وعطفي منذ اللحظة الاولى ، بحيث يبعثان في قلبي الرغبة الاكيـدة في منحهما ما يحمـل السعادة الى فؤاديهما . ولكن غرامي بالبكر كان أعظم على أية حال ...

كنت استغرق واياهم في الحوار حتى يفوتني ، غالبا ، اقتـراب العم بيوتر منا ... كان ، ابدا ، يفرق بيننا وهو يهتف بنا :

ــ هكذا ؟ معهم ثانية ؟

كنت الحظ انه يزداد عرضة لنوبات التقطيـب والعبوس . وتعلمـت أيضا ان اخمن طبيعة مزاجه من مجرد طريقته في فتح البوابة عند عودته من

العمل . كان من عادته ان يفعل ذلك بتمهل وبتؤدة ، بحيث تصفر المفصلات طويلا بين يديه ، فاذا كان سيء المزاج بعثت تلك المفصلات صوتا حادا يشبه زئير انسان يتألم ويشقى .

وقد غادرنا ابن اخيه الابكم الاصم الى الريف منذ زمن طويل ، سعيا وراء الزواج ... وهكذا امسى بيوتر يعيش وحيدا في غرفة واطئة السقف ، فوق بناء الاسطبل ، لها نافذة صغيرة . وكان قليل العناية بتلك الغرفة حتى غصت بروائح القطران ، والجلد المدبوغ ، والتبغ ، والعرق .

وقد طفق ينام ، في هذه الايام ، دون أن يطفىء القنديل ، الامر الذي أزعج جدي كثيرا .

كان يقول له دوما :

ـ احترس ! والا احرقت المكان ، يا بيوتر .

فيجيب ، وهو يتطلع من طرف عينه متفاديا نظرات جدي :

ـ كلا ، أطمئن ، فلا خطر من ذلك على الاطلاق ! اني أضع الشمعة في الليل وسط حوض من الماء .

اضحت نظراته الى الناس والاشياء مسترقة ، سريعة ، منحرفة ... وامتنع عن حضور حفلات جدتي ، ولم يعد يدعونا الى المربّى ، في حين راح وجهه يجف ، وازدادت فيه الغضون عمقا وعددا ، وطفق يترنح في مشيته ويسحب رجليه سحبا مثل رجل منهوك القوى .

وذات يوم ، بينما كنت وجدي ننهيل الثلج الذي تساقط بغزارة اثناء الليل ، سمعنا مزلاج البوابة بلحن خاص وقح ، ودلف منه الى الساحة شرطي أغلق البوابة خلفه ، واتكأ بظهره عليها ، ثم اشار الى جدي بأصبعه السمينة الرمادية طالبا اليه الاقتراب منه . وعندما حاذاه الجد الصق أنفه الضخم في وجهه ، واسر اليه شيئا جعله يجمجم ، وهو يرتعش :

ـ هنا ؟ متى ؟ لو كنت اتذكر فقط ...

ثم جفل بشكل مضحك ، وصاح :

ـ أيها الرب العلي ! اذلك ممكن ؟

فحذره الشرطي بصوت خفيض :

ـــ صه ! لا تصح هكذا !

تطلع جدي حواليه ، فبصر بي ، فقال :

ـــ احمل المجارف واذهب الى الدار .

فاختبأت في احدى الزوايا أراقبهما يدخلان جناح السائق في الاسطبل . وقد نزع الشرطي قفاز يده اليمنى وهو يقول :

ـــ لقد فهم ذلك تماما ، فهجرحصانه واختفى ...

انطلقت الى المطبخ بسرعة أطلع جدتي على ما رايت وسمعت ، فالفيتها منكبة فوق وعاء العجين ، وراسها المغمور بالدقيق يتأرجح مع حركات يديها ..

قالت بتمهل ، عندما انتهيت من سرد قصتي ، وبقسوة تعنفني :

ـــ لربما سرق شيئا ... اخرج الى الساحة والعب ، فما دخلك في ذلك ؟

رجعت الى الساحة راكضا ، فبصرت بجدي بقف قرب البوابة ، وقد نزع قبعته عن رأسه ، وحلق بناظريه الى السماء وهو برسم اشارة الصليب، مخشوشن الشعر ، تعلو امارات الغضب وجهه ، وترتجف احدى ساقيه بعصبية

صاح ، وهو يضرب الارض بقدمه :

ـــ الم اقل لك ان تذهب الى الدار ؟

ولحق بى الى المطبخ ، وما أن وقعت أنظاره على جدتي حتى هتف بها:

ـــ تعالي ، يا أماه !

مضيا معا الى الغرفة المجاورة حيث قضيا فترة من الزمن يتهامسان وعندما رجعت الجدة الى المطبخ ، ادركت ، من النظرة الاولى ، أن شيئا رهيبا قد حدث ... سألت :

ـــ انت مذعورة يا جدتي ، لماذا ؟

فأجابت بهدوء :

ـــ اطبق فمك ، اتفهم ؟

واطبق على المنزل جو من الضيق والرهبة طيلة ذلـــك النهار ، وظل جدي وجدتي ، على مر الوقت ، يتبادلان نظرات متسائلة قلقـــة ، وكلمـــات مبهمة غير مفهومة ضاعفت من اضطرابي وحيرتي . ثم أصدر الجد أوامره ، بصوت مرتفع ، وهو يسعل :

ـــ أضيئي القناديل كلها ، يا اماه ، امام سائر الايقونات .

تناول طعام الغداء بدون شهية وبسرعة فائقـــة ، فكأنهما ينتظـــران احدا . وكان جدي يسعل ، ويهمهـــم :

ـــ ان ابليس يفوق الانسان قوة . . . انظري الى هذا ، مثلا ـــ رجل دين ، ورع ، تقي ، بكل معنى الكلمة ، ومع ذلك انظري ماذا فعل !

واتانا ، عند المساء ، شرطي اخر . كـــان سمينا ، احمـــر الراس ، اقتعد دكة في المطبخ ، ومضى يغفو عليها ، فيرتفع شخيره في ضجيج عنيف . سألته جدتـــي :

ـــ وكيف اكتشفوا ذلـــك ؟

فأجاب بفظاظة ، بعد لحظة من الصمت :

ـــ انهم يكتشفون كل شيء عندنا بسرعة .

كنت أجلس الى النافذة اسخن في فمـــي قطعة قديمة مـــن العملة كي أطبع بها صورة القديس جاورجيوس ، حامل النشر ، على زجـــاج النافذة المجمد . . وعلى غير انتظار ، علا ضجيج صاخب في الممر ، ثم فتح الباب ، وظهرت بتروفنا على العتبة ، وهي تصيـــح :

ـــ تعالوا وانظروا ماذا يوجد على أرضكم في الخارج . . .

ولم تكد انظارها تقع على الشرطي ، حتى استدارت نحو الباب تسعى وراء الفرار . ولكن رجل الامن امسك بها من قميصها ، وصاح مذعورا :

ـــ تمهلي لحظة ! من انت ؟ وماذا يوجد هناك ؟

فركعت على ركبتيها ، وطفقت تبكي وهي تبتلع كلماتها ودموعها :

ــ لقد خرجت لاحلب البقرة ، وفجأة بصرت بشيء يشبه زوج احذية ي ساحة آل كاشرين . . .

فصاح جدي عندئذ حانقــا :

ــ هذا كذب ، ايتها الفاجرة ! انت لا تستطيعين رؤية شيء في ساحتنا فالسور عال جدا،وليس من ثغرات فيه على الاطلاق . انت تكذبين ! ليس هناك شيء في ساحتنــا .

فناحت بتروفنا ، وهي تمد اليه احدى يديهــا ،.وتمسك راسها باليــد الاخرى لتقول مترنحــة :

ــ آه ، يا الهي ، انه على حق ، فانا اكــذب ! لقد انطلقت احلــب البقرة ، وفجأة رايت آثار اقدام تقود الى السور ، والثلج مبعثــر في بقعة واحدة ، الامر الذي اثار فضولي ، فتسلقــت السور وتطلعت من عليــه ، فرأيته . . . اجل رايتــه . . .

ــ رايت مـ . . . ن ؟

جاءت هذه الصيحة عالية ، طويلة ، لا معنى لها . . .

وعلى حين بغتة ، وكأنهم فقدوا الشعور ، يركضون ويتدافعون خارج المطبخ فياتجاه الساحة . وهنالك ، بين كتل الثلج ، في الحفرة التى خلفها احتراق غرفة الغسيل ، كان العم بيوتــر ممددا ، يستند ظهــره الى خشبة محترقة ، ويتدلى رأسه فوق صدره . وكانت فرجة واسعــة تستقر تحت اذنه اليمنى تماما ، اشبه ما تكون بثغر احمر اللــون ، ذى حواش مزرقــة تبرز كالاسنان . اغلقت عيني في خوف ورهبة ، فشاهدت ، من خلال اهدابى، سكين العم بيوتر التي طالما رايته يقطع الجلود بها ، تتدلى من على ركبته ، وقد انشلت بالقرب منها اصابع يده اليمنى المحترقة الملتوية . اما اليد اليسرى فكانت مدفونة في الثلج الذي ذاب تحت الجسد الصغير ، الغارق عميقا فى المحيط الابيض النبر الناعم ، يبدو طفليا اكثر منه في اي وقــت مضى ، وقد تلطخ الثلج عن يمينه فرسم صورة حمراء غريبة اشبه بالطير ، بينما ظل عن يساره نقيا ، لامعــا ، لا دنس فيه ، يمتد ناعمــا براقا كعهدي به دومــا .

وكان الراس المنحني يرتاح بما اوتي من قوة على الصدر الذي ظهر عليه ، من خلال اللحية المجعدة المشعثة ، صليب نحاسي احاطت به خيوط عديدة من الدم المتجمد .

واصابني الدوار لشدة اضطراب الاصوات حولي ، فبتروفنا تزعق دونما انقطاع ، والشرطي يصيح بفالي ان يذهب الى مكان ما ، وجدي يصرخ بكل ما أوتي من قوة :

ـ اياكم ان تمسحوا اي اثر .

ولكنه عبس فجاة ، وشخص الى الارض تحت قدميه ، وخاطب الشرطي في صوت عال يتضمن الامر :

ـ لا فائدة من كل هذا الصياح ، ايها الضابط ! ذلك عمل الله ، دينونة الله ، وانت تأتينا بمهمتك الحمقاء هذه . تبا لك !

فصمت الجميع ، وهم يتنهدون ويرسمون اشارات الصليب ، ويحدقون طويلا في الرجل الميت .

وقفز اخرون من فوق السور ، قادمين من ناحية منزل بتروفنا . كانوا يقفون على الارض فيغمغمون بشيء مبهم ، ثم يأتون عدوا عبر الساحة دون ان يثيروا ضجة تذكر ، حتى رمقهم جدي بحنق ، وصاح كمن فقد الامل :

ـ انكم تستحقون ادغال توت العليق ، ايها الجيران ! الا تخجلون من انفسكم ؟

وامسكت جدتي بيدي ، وقادتني حتى المنزل . . . حين سألتها :

ـ ماذا فعل ؟

فأجابت همسا :

ـ اما رأيت ؟

ظل اناس غرباء ، طيلة ذلك المساء ، وحتى ساعة متاخرة من الليل ، يملأون المطبخ والغرفة المجاورة . وكان الشرطي يصدر أوامره ، وهناك اخر اشبه بأحد الشمامسة يسجل بعض الملاحظات في دفتر صغير ، وهو يكح باستمرار كالبطة :

ـــ ماذا ؟ مـــاذا ؟

قدمت جدتي الشاي للجميع ... كان يجلس الى طاولـــة المطبخ رجل منفوخ الجسم ، طويل السالفين ، ملأت البثور وجهه ، يقول في صوت متكسر :

ـــ ان احدا لا يعرف اسمه الحقيقي . الشيء الوحيد المعروف عنه انه جاء من ايلاتما . اما ذلك الابكم الاصم فلم يعد أبكم او اصم اكثـــر منكم او مني . لقد تكلم واعترف بكل شيء . وكذلك اعترف شخص اخر ـــ لانهم كانوا ثلاثة ـــ كانت مهمتهم ان يسرقوا الكنائس ، ذلك كان اختصاصهـــم منذ امد بعيد جـــدا ...

فهتفت بتروفنا ، محمرة الوجه ، وهي تتصبب عرقا :

ـــ يا الهـــي !

اضطجعت في سقيفة المطبخ، انظر اليهم من عل ، فبدوا لي ـــ جميعا ـــ قصارا ، غلاظا ، قبيحين ...

١٠

خرجت باكرا صباح يوم سبت الى حديقة الجارة بتروفنا لاصطاد بعض الطيور ، ولكن وقتا طويلا انقضى وتلك المخلوقات الطائرة امام عيني ، وكأنها تتعمد مضايقتي ، فتتمخطر بعذوبة وانطلاق فوق الثلج الفضي المتجمد ، او تطير بين الادغال ، وتتمايل على الاغصان المكسوة بالجلد المفزير اشبه بأزهار زاهية تتألق بين الاضواء الزرق المنعكسة على غبار الثلج المتساقط . . . لقد كان ذلك كله على نصيب وافر من الروعة والجمال حتى اني لم احس اسفا او خيبة أمل من جراء محاولاتي الفاشلة للامساك بها . ثم انى ، على العموم ، لست بالصياد الماهر ، بل اسر بالطريقة التي اصطاد بها اكثر مني بالنتيجة ، واحب ان أراقب الطيور ، واتأمل أسلوب حياتها اكثر من ان احوز عليها واملكها .

حقا ! ما ابهى واحلى ان تجلس وحيدا الى حافة حقل يمعج بالثلج ويموج ، ترهف السمع الى مناغاة الطيور في سكون أيام الشتاء البلورية ؛ في حين يرتفع ، في الافق البعيد ، رنين اجراس « ترويكا » تعبر الطريق ركضا ، تلك هي قبرة الشتاء المحزن الكئيب تغني . . .

وجمعت شباكي واقفاصي ، عندما احسست بالقشعريرة تخترق العظم مني ، والصقيع يدب الى أذني ، وتسلقت السور المفضي الى حديقة جدي ، ومضيت مسرعا في اتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ، وموجيك ضخم يقود من خلالها ثلاثة خيول أسرجت الى مزلجة واسعة مغلقة . وكانت سحب كثيفة من اللهاث تتصاعد من الاحصنة ، والفلاح يصفر مرحا ، ولكن قلبي

انقبض على حين بغتة دون سبب واضح . سألتــه :

ــ بمن جئت الينـــا ؟

فاستدار ورمقني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده

ــ لقد جئت بالكاهــن .

فلم يثر ذلك اهتمامي ــ اذا جاء الكاهن فلا ريــب زيارتنا ، بل زيارة بعض المستأجرين سوانـــا .

وصاح الفلاح ، وهو يهز عنان الجياد يحثهـــا على الفضاء برنين اجراسهـــا :

ــ هيا ، اسرعي .

راقبتهم يبتعدون ، ثم اغلقت البوابة ، ودخلت الدار ... ولم اكد ابلغ المطبخ ، حتى تناهى الى سمعي صوت امي العميق يرتفع في الغرفة المجاورة:

ــ حسنا ، ماذا انت فاعل الان ؟ ربما ترغب في الاجهاز على ، اليس كذلــك ؟

فالقيت بالاقفاص ارضا ، واسرعت الى الممر دون ان اخلع معطفي . لكن جدي امسك بي عند عتبة الباب ، وحملق في بعينين وحشيتــين ، وبلع بصعوبة شيئا ما كان عالقا في حلقه ، ثم صاح بصوت أجش :

ــ لقد رجعت امك ... فاسرع اليها ! انتظر !..

وهزني بعنف بحيث لم اتمالك نفسي الا بجهد كبير ، ثم دفــع بي ناحية البــاب ، وقـــال :

ــ ادخل ، ادخـــل !

اصطدمت بالباب ، ووقفت عنده لحظة مترددا حائرا ، ترتعش اصابعي انفعالا وبردا ، فأعجز عن الوصول الى مقبض الباب والامساك به . وعندما فتحت الباب اخيرا ، وقفت على العتبة مذهولا ، منعقد اللسان ، فهتفت أمي:

ــ آه ، هـــا هو ذا ! يا للسماء ! الـــم تعرفنـــي ؟ ما هـــذه الثيـــاب

التي برندبها !... انظرى الى أذنيه المتجمدتين بردا ! اعطيني شيئا من الدهن – اسرعي ، يا اماه !

وانتصبت في وسط الغرفة منحنية فوقي ، تخلع عني ثيابي تجعلني ادور امامها كالمحور . كان جسدها الكبير متدثرا برداء احمر ، ناعم ، دافىء ، عريض كمعطف الرجال ، ذي صف من الازرار السود الكبيرة يمتد منحرفا من الكتف حتى طرفه ... انا لم اشاهد قط مثل ذلك الثوب من قبل !

بدا لي وجهها اصغر منه قبلا ، وانصع بياضا أيضا . اما عيناها فقد اتسعتا وازدادتا غورا ، وشعرها اضحى اكثر بريقا ذهبيا منه في اي وقت اخر .. كانت ترمى بالثياب التى تخلعها على ناحية العتبة ، وشفتاها الحمراوان تنقبضان ازدراء ، وهى تقول في نغمة عاتية :

– حسنا ، لم لا تقول شيئا ؟ الست مسرورا ؟ تفو ، يا للقميص الوسخ !

وفركت أذني بدهن الاوز ... آلمني ذلك ، ولكن تلك الرائحة المنعشة اللطيفة التي كانت تفوح منها واستنى عن شدة الم وخففت منه . فالتصقت بها ، وتطلعت عميقا في عينيها ، دون ان اقول شيئا لشدة اضطرابى وانفعالي .

وسمعت جدتى تقول ، ردا على ملاحظات امى ، بصوت مهدد :

– لقد افلت من كل رقابة ، ولم بعد يخاف حتى من جده ! آه ، فاريا ، فاريا ...

– كفاك عويلا ! ان كل شيء سيسير على ما يرام .

كان كل ما يحبط بى يبدو ، اذا ما قيس بوالدتى ، صغيرا ، هرما ، بائسا ، لا بل خيل الى انى ، انا ايضا ، أداني جدتي العجوز سنا وهرما . وضمتنى امى بقوة بين ركبتيها . وطفقت تمسح على رأسي بيدها الدافئة :

– ان شعرك لفي حاجة الى المقص .. وقد حان وقت ذهابك الى المدرسة . اتريد ان تتعلم ؟

– لقد تعلمت كثيرا حتى الان .

ـــ ما يزال هناك اشياء كثيرة يجب ان تتعلمها . لكن ، يا لك من فتى ذي باس وحيلـــة .

وضحكت ضحكة غنية قوية ، وهي تلاعبني . . .

ودخل الجد الى الغرفة ، غاضبا ، مشعث الشعـــر ، محمر العينين . . فدفعتني امي عنها بحركة بسيطة ، وسألت في صوت عميق :

ـــ حسنا ! ماذا علي ان أصنع ، يا ابت ، أارحل ؟

فوقف قليلا الى النافذة يحك الجليد بأظافر يده ، دون ان ينطق بحرف واحد . كان الجو خانقا ، متوترا ، فكأنه يرهف السمع بكل ذراته ، وهو على استعداد للانفجار لدى أول صدمة . وامتلأ جسدي بأسره ، كما هي الحال دوما في مثل هذه الحالات واللحظات ، عيونا وآذانا ، وتوسع صدري كثيرا ، واحسست رغبة لا تقاوم في البكـــاء .

قال جدي ، في صوت يكاد يختنـــق :

ـــ اخرج من هنا ، يا الكسي !

فسألت امي ، وهي تجرني نحوها ثانية :

ـــ ولم يخـــرج ؟

ـــ انك لن ترحلي . امنعك عن ذلـــك !

فنهضت والدتي ، واخذت تتمشى في الغرفة . ثم قالت ، وقد وقفـــت وراء ظهـــره :

ـــ اصغ ، يا ابـــت .

ـــ اخرسي !

فعادت تقول بهدوء :

ـــ انني لا اسمح لك ان تصرخ في وجهـــي !

فصاحت الجدة ، وهي تنهض عن الاريكة وتهز أصبعها محذرة :

ـــ فارفــــارا !

وغرق جدي يضعف في احد المقاعد ، يجمجم بينه وبين نفسه :

ـــ ما هذا ؟ من انا ؟ ماذا تسمين ذلــك ؟

وعلى غير انتظار ، طفق يزمجر كحيوان مثخن بالجراح :

ـــ لقد جلبت على العار ، هذا ما فعلته ، يا فاريــا !

فقالت جدتي تخاطبنـــي :

ـــ اخرج من هنــا .

مضيت حزينا الى المطبخ ، وتسلقت الموقد حيث بقيــت فترة طويلــة استمع الى ما يجري في الغرفة المجاورة ـــ كانوا يتحدثون بحدة مرة ، ثــم يخيم عليهم الصمت مرة اخرى ، كانوا يتحدثون عن طفل ولدته امي وتركته في رعاية بعض الناس . ولكني لم افهم ما الذي يثير جدي الى هذا الحد ، اهو غاضب لان امــي ولدت بدون اذنه ام لانها لم تحمل الرضيع اليه ؟

واخيرا ، دلف الى المطبخ ، احمر اللون ، اشعث الهنــدام ، مضطرب البال ، منهوكا ، تأثره جدتي وهي تمسح الدموع المترقرقــة على وجنتيها بطرف قميصها . وارتمى على كرسي ، معتمدا عليها بذراعيه ، منحني الظهر ، يعض شفتيه الشاحبتين . وجثت الجدة على ركبتيها بالقرب منه ، وهــي تقول بصوت حار خفيض :

ـــ اغفر لها ، يا أبتاه ! محبة بالمسيح ، اغفر لها ! ان لكل حصان كبوة ، وهناك كثيرات غيرها زللن . أو لا تحدث مثل هذه الامور بين النبلاء ايضا ، وحتى بين التجار كذلك ؟ انظر الى المرأة فيها واغفر لهــا ، فليس احد منا معصوما عن الرذيلة . . .

فاستند الى الجدار ، يحملق في عينيها ، وهو يردد ناشجا :

ـــ اوه ، نعم ، بالطبع ! لم لا ؟ انت على استعداد لان تسامحي كل انسان وكل شيء . تفو ! تبا لــك !

ثم انحنى نحوها ، وأمسك بها من كتفها ، وراح ينهرها والكلام يسيل همسا من بين شفتيه :

ــ ولكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء ، اليس كذلك ؟ ها نحن اؤلاء على حافة القبر ، وهو ينزل العقاب بنا . لقد بلغنا ايامنا الاخيره فاذا بها فارغة من السلام ، والفرح ، ومن كل ما كنا نطمح اليه … سنموت شحاذين ، تذكري كلماتي ، شحاذين معدمين !

فأخذت جدتي يده في يدها ، وجلست بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

ــ وما اهمية ذلك ؟ ولم كل هذا الخوف من أن تكون شحاذا ؟ اذن ، سنصير شحاذين ، وتستطيع انت ان تبقى في البيت ، بينما اخرج انا لاستجدي … ولن نعيش جائعين عريانين ، فكفاك تعذب نفسك بمثل هذه الاوهام !

ونفخ بمنخريه فجأة ، ونطح الهواء براسه كالتيس ، ولف ذراعه حول عنق جدتي ، والتصق بها ، صغيرا ، رثا ، باليا ، وقال متأوها :

ــ ايتها الحمقاء ، ايتها الحمقاء اللعينة ! انت الانسان الوحيد الذي بقي لي على الارض . انت لا تأسفين على شيء ايتها البلهاء ، لانك لا تفهمين شيئا تذكري فقط ما عملنا من اجل اولادنا ! افلم ارتكب المعاصي في سبيلهم ؟ والان ، في النهاية ، ماذا فعلوا لنا ، لو انهم يردون لنا شيئا يسيرا مما عملته من اجلهم !..

وهنا لم اعد احتمل مزيدا ، فقفزت عن الموقد وانا اتصبب عرقا ودمعا ، وركضت اليهما ، وانا ابكي فرحا لان امي قد عادت ، ولانهما تبادلا هذه الكلمات اللطيفة الجميلة ، اسفا لانهما سمحا لي بمشاركتهما احزانهما عانقاني ودللاني ، واغرقاني في دموعهما ، وهمس جدي في اذني كمن يعتذر :

ــ هانذا هنا ايضا ، ايها الوغد الصغير ! انك لن تحتاج الي بعد الان ، بعد عودة امك ، انا ، جدك ، الشيطان الهرم ، اليس كذلك ؟ حتى ولا جدتك ، تلك العجوز التي لا تعرف شيئا سوى تدليلك وافسادك . الا تبا لك!

وابعدنا عنه باشارة من يده ، ثم نهض واقفا وقد تمالك نفسه …

صاح غاضبا :

ـــ الجميع يتركوننا ! وكل يذهب في الطريق الذي يريد ، لا يعرف الا مصلحته الخاصة .. حسنا ، نادوها . اسرعوا !

فغادرت جدتي المطبخ مسرعة ، بينما انحنى جدي ناحية الايقونات ، وهو يهمهم منحني الراس :

ـــ ايها الرب الغفور ـــ هل ترى ماذا أفعل ؟ هل ترى ؟

وضرب صدره بقبضة يده بعزم ، فكان لذلك زنين قوي لم احبه . فكنت، على العموم ، ابغض تلك الطريقة التى يخاطب الله بها .. كان أبدا يتباهى ويفخر بشيء ما ... وجاءت أمي ، فملأت الغرفة بوجودها الذي كنت اشتاقه وجلست الى الطاولة على الدكة بين جدتـي وجدي ، وكـان ثوبها العريض ينحدر عن كتفيها ، وراحت تروي لهما بهدوء ووقار قصة ما ، وهما يصغيان اليها في صمت وسكون . كانا يبدوان بالنسبة اليها ، فكأنها هي الام وهما ولداهـــا !

كنت مضطجعا في السقيفة ، فسرعان ما استسلمت ، منهوك القوى من حوادث النهار ، للنوم الذي طغى علي بسرعة ...

ارتدى الشيخان ، ذلك المساء ، ثيابهما الفاخـرة ، ومضيا لحضـور صلاة الغروب . غمزتنا جدتي جذلانة لتلفت انتباهنا الى جـدي الذي كان يتألق في بزة رئيس نقابة الصياغين المؤلفة من سروال مخملي ومعطف مـن جلد السنور ، ثم همست في اذن امي كمن يكشف سرا :

ـــ انظري الى ولدك ، يا له من تيس صغير :

فضحكت امي في غبطـة ...

وعندما خلوت واياها في غرفتنا ، جلست على الاريكة وقد ثنت احدى ساقيها تحت جسدها ، ونادتني ، وهي تنقر باصبعها على الاريكة المجاورة لها:

ـــ تعال ، تعال واجلس الى جنبي . حدثني كيف عشت حياتك ؟ حياة رديئة ، اليس كذلـك ؟

ترى ، كيف كانت الحياة ؟ لست ادري !...

ـــ أيجلدك جـــدك ؟

ـــ لم يعد يجلدني كثيرا .

ـــ صحيح ؟ حسنا ، حدثني عن كل ما نشاء ، هيا . . .

لم احس شوقا الى الحديث عن جدي ، فرحـــت أروي لها ان رجـــلا لطيفا جدا سكن الغرفة التي نحن فيها الان ، وكيف لم يحبه أحد من سكان الدار ، وكيف طرده جدي اخر الامر . وبدا لي ان تلك القصة لم ترق لوالدتي التي قالـــت :

ـــ حدثني عن أمور اخرى .

فحدثتها عن الصبية الثلاثة ، وكيف طردني الكولونيل من ساحته .

قالت ، وهي تحتضنني :

ـــ يا له من رجل خسيس !

واستكانت نفسها ، فراحت تتأمل الارض بنظرات من عينين ضيقتين ، وهي تحك راسها . . . سالتهـــا :

ـــ لماذا ينقم جدي عليـــك ؟

ـــ أنا مذنبة في نظـــره .

ـــ كان يجب ان تحملي الطفل اليه . . .

فجفلت ، وقطبت جبينها ، وعضت شفتها ، ثم اطلقت ضحكة عالية . . . قالت ، وهي تحتضنني ثانيـــة :

ـــ أيها الطفل الصغير ! اياك ان تتفوه بأية كلمة عنـــه مرة اخرى ، اتسمع ؟ ولا كلمة ـــ بل اياك ان تفكر في ذلك على الاطلاق .

وظلت ، بعض الوقت ، تتفوه بكلمات هادئـــة ، جافة ، مبهمـــة ، لم اع منها شيئا ، ثم نهضت تذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، وهي تنقر بأصابعهـــا على ثغرها ، وتحرك حاجبيها الغليظين .

كانت شمعة تحتـرق على الطاولة وتذوب ، فتنعكس خيالاتهـا فـي المرآة ، بينما ظلال وسخة ترنجف على الارض ، والقنديل الازلي يلتهب فـي زاوية الايقونات ، والنافذة المغطاة بالجليد تضيء في ضوء القمر بلمعان فضي براق . وأجالت والدتي ناظريها حولها ، كما لو كانـت تفتش عن شيء في الجدران الفارغة والسقف العالي ، ثم سألت :

ــ متى تذهب الى فراشك ؟

ــ بعد قليـل .

فأجابت ، وهي تتنهـد :

ــ هذا صحيح ، لقد غفوت قليلا بعد ظهر اليوم .

سألتها بعد قليـل :

ــ اترغبين في الرحيل ؟

فأجابت في دهشة :

ــ الى أيـن ؟

ثم رفعت راسي ، وحملقت طويلا في عيني بحيـث لم استطع لدموعي احتباسا . . .

ــ ما بالـك ؟

ــ ان رقبتي تؤلمنـي .

ولكن قلبي كان إكثر ايلاما ، فقد أدركت انها لن تستطيع العيش في ذلك البيت طويلا ، بل ستغادره حتما مرة أخرى .

قالت ، وهي تلعب بطرف السجادة بقدمها :

ــ انك ستغدو شبيها بوالدك في يوم ما . هل حدثتك جدتك عنه ؟

ــ نعـم . .

ـ لقد كانت تحب مكسيم كثيرا . كانت مغرمه به . وكان ، هو الاخر، مولعـــا بهـــا .

ـ انا اعلم ذلك .

والقت نظرة على الشمعه ، وعبست ، ثم نفخت على الشعلة الضئيله فاطفأتها . . . وما عتمت ان قالت :

ـ هذا افضـــل .

كان ذلك افضل من دون ريب ، فقد بدت الغرفة اكثر وداعـــة ونظافه عندما خمد النور . وحلت شعاعات ضوء القمر الزرق محل الاخيلة الوسخة على الارض . بينما طفقت شرارات ذهبية تتمايل على زجاج النافذة وتتراقص كريشـة في يد فنـــان .

ـ اين كنت تعيشين قبل مجيئك الى هنا ؟

فذكرت اسماء بلدان عديدة . وكانها تستعيد في ذاكرتها ماضيا سحيقا غابت حوادثه عن بالها منذ زمن بعيد ، وهي تدور طوال الوقـــت في الغرفة كطائر حبيس ليس يدري افلاتا ، ثم سألت :

ـ من اين حصلت على هذا الرداء ؟

ـ صنعته بنفسي . اني اصنع كل شيء بنفسي .

كنت اسر للغاية حين اراها تختلف عن الجميع كـل الاختلاف ، فـلا يؤسفني منها الا قلة حديثها ، فهي لا تتكلم الا كي تجيب على اسئلتي .

وجلست ، مرة ثانية على الاريكة قربي ، وبقينا هكذا طويلا صامتين ، ملتصقين ببعضنا بشدة حتى رجع الشيخان من الصلاة تفوح منهمـــا رائحة الشمع والبخور ، وتعلو وجهيهما سيماء الرفق ، واللطف ، والاكبار . . .

وكان العشاء احتفاليا ، يليق بحدث عظيم الاهمية ، لم نتحدث خلاله الا نادرا بتحفظ شديد ، فكأننا نخاف ايقاظ شخص عزيز مـــن نومه الخفيف الذي استسلم لـــه . . .

ولم تمض أيام قليلة حتى اخـــذت والدتـــي على عاتقها مهمة ثقافتـــي

« الدنيوية » فابتاعت لي بعض الكتب ، كان أحدها «مبادىء القراءة الروسية» الذي تعلمت فيه ؛ خلال بضعة أيام ، حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية . لكن أمي كانت تريدني حفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك بدء عذاب مشترك لنا نحن الاثنين .

وهذه هي اول المقطوعات الشعرية التي كان علي أن احفظها :

« طريق تهـب عليها الريـاح ،

تجـوز الحقـول ودور البشر !

وما كسر الفأس الحجارة فيهـا

ولكـن حوافـر خيـل تمـر ».

كنت ، كلما تلوتها ، اقول « النباح » عوضا عن «الرياح» ، و «الكأس» عوضا عن « الفأس » و « فرافر » عوضا عن « حوافر » ... فتحتج والدتي بقولهـا :

ــ ولكن فكر قليلا ، كيف يمكن ان يهـب « النباح » ، أيهـا الغبي ؟ قل « الريا ح » ، هذا ما يجب ان تقول !

فهمت ذلك ، ولكنني ظللت اقول «النباح» اثناء تلاوة الدروس ، فتغضب والدتي غضبا شديدا ، وتلقبني بالعنيد الغبي ، فأجد هذه الكلمـات قاسية جارحة ، واروح احاول جهدي الا اخطىء اللفظ مـرة أخرى ... وكنـت ، كلما رددتها في قلبي ، لا اخطىء فيها ابدا ، ولكن لا ابدأ بتلاوتها بصوت عال حتى أخلط بين الكلمات من جديد . وابتدات أخيرا اكره ذلك الشعر المقيـت فشرعت اشوهه عمدا ، بأن اجمع عددا من الكلمات التي لها نفس النغمة الى بعضها البعض ، واغتبط عندما تفقد تلك الاشعار بذلك كل معنى لها .

ولكن تلك التسلية كلفتني غاليا ، فقد سألتني والدتي ، ذات مرة ، في نهاية احد الدروس ، ان اسمعها تلك الابيات . فرحـت اغمغم عاليا دون قصد أو وعي منـي :

« على الطريق الطويلة ، السهيلة ، الهزيلـة ،
لا كاس ، ولا طاس ، ولا ناس ، ولا راس !... »

وما ادركت ما انا فاعل الا بعد فوات الوقت : فقد نهضت امي ، وهي تعتمد يديها على الطاولة ... سألت . وهي تلفظ كل كلمة على حدة :

ـــ من اين جلبت كل هـــذا ؟

فاجبت . وقد سيطر علي رعب شديد :

ـــ لست ادري صدقيني : لست ادري .

ـــ أوه ، بل انت تدري . أخبرني !

ـــ لقد قلت ذلك عرضا .

ـــ لمـــاذا ؟

ـــ لمجرد التسليـــة .

ـــ امض الى الزاويـــة !

ـــ اية زاويـــــة ؟

لم تجب ، ولكنها رمقتنى بنظرة افقدتني صوابى تماما ؛ فلم أعد ادرى ما افعل ، وماذا تريد منى ان افعل .. كانت فى زاويـــة الايقونات طاولـــة مستديرة تحمل اناء يفبض بزهور جميلة واعشاب مجففة ؛ وفي زاوية اخرى تقوم دكة عليها سجادة صغيرة ، في حين يشغل الزاوية الثالثة احد الاسرة. اما الزاوية الرابعة والاخيرة التي يقوم فيها الباب فغير موجودة على الاطلاق ... قلت ، وقد بدا البأس علـــى :

ـــ لست ادري ما تريدين مني ان افعل !

فغاصت في احد المقاعد وهى تحك ، جفنيها وخديها :

ـــ الم يأمرك جدك ابدا بالوقوف في الزاوية ؟

ـــ متـــى ؟

فضربت الطاولة بقبضة يدها مرتين ، وصاحت :

ـــ في يوم من الايـــام !

ـ كلا ! لا اذكر ذلك مطلقــا

ـ الا تعلم ان الوقوف في الزاوية عقاب ؟

ـ كلا ! ولماذا يكون عقابــا ؟

فصاحت بصوت اشد ارتفاعا :

ـ تعال الــي !

فسألتها بعد ان مضيت اليهــا :

ـ لماذا تصيحين في وجهــي ؟

ولماذا تتعمد تشويه الاشعار التي احفظك اياها ؟

فرحت اشرح لها ، بكل ما اوتيت من قوة ، انني اتذكر القصيدة كما مكتوبة عندما اغلق عيني ، حتى اذا جربت القاءها بصوت عــال ، صد مني كلمات اخرى دون ارادتي ، فسألت بهدوء نسبي :

ـ الست تسخر مني الان ؟

فاقسمت انني صادق . . . ثم رحت ، على الفــور ، اتساءل ان صادقا ام لا !. . وعلى غير انتظــار ، اخذت اتلو الابيات بتؤدة ، فاذ لا اخطيء فيها ابدا ، الامر الذي ادهشني وسحقني في وقت واحد . احسـ بوجهي يتورد ، وباذني تلتهبان وتمتلئــان دما ، وبطنــين مزعج يدوي ؛ دماغي ، ووقفت هكذا تجاه امي وقد اهلكني الخجل الشديــد ، ارى ـ خلال دموعي ـ وجهها يسود اسفا وكمدا ، وحاجبيها ينخفضــان وتـ تطبقــان . . .

سألت ، في صوت عال مرة اخرى :

ـ ما معنى ذلك ؟ يبدو انك كنت تتعمد ذلك فعلا !

ـ لست ادري . . . لم اكن اقصده . .

فقالت ، وهي تهز راسهــا :

ـ ما اصعبك ! اخرج من هنا !

وراحت تطلب مني ان احفظ كل يوم قطعة جديدة من الشعر ، فتزداد ذاكرتي تمردا ، بينما تتضاعف الرغبة في تحريف تلك الاسطر الموزونة ، وينمو الشوق الشرير لاستبدال بعض الكلمات بغيرها وتشويهها . وكنت اتوصل الى ذلك دون صعوبة ، فتهجم الكلمات الغريبة الى فكري اسرابا ، تأخذ — دون كلفة — مكان الكلمات الاصلية . وكانت حافظتي احيانا ترفض استيعاب أبيات كاملة مهما بذلت من الجهد العنيد في سبيل ذلك — مثلا :

« منذ الصبح وحتى هبوط الغسق ،
يمر — على الدرب — جمع طريح !
يستعطون شيئا باسم المسيح ! . . .

فكنت انسى الشطر الثالث منها على الدوام واستبدله بـ :

« ويودون خبزا يسد الرمق » .

وتغتاظ أمي لهذا الانكفاء في ذاكرتي فتلجأ الى جدي تحدثه بالامر ، فيتوجه اليها هذا قائلا في غضب :

— خبيث ، شيطان ، يفعل ذلك عمدا . انه يعرف جميع الصلوات احسن مني ، وله ذاكرة كالحجر ، اذا انحفر فيها شيء لم يقتلع منها ابدا . يجب ان تجلديه !

وجاءت جدتي تثني على رأيه :

— انه يتذكر القصص والخرافات جيدا ، وكذلك الاغنيات والاغاني الشعرية ، أليس كذلك ؟

كان كل ذلك صحيحا لا مراء فيه . . . شعرت اني الملوم ، ومع ذلك كنت كلما ابدأ في حفظ قصيدة جديدة تأخذ مفردات أخرى تدب كأسراب من الصراصير ، وتصطف من ذاتها الواحدة تلو الاخرى في أبيات اكثر او اقل تناسقا :

« يأتي الى بيتنا في الصباح !
أناس كثيرون ينتظرون . . .
يصلون . . . ويبتهلون
ويبكون مثل زئير الرياح !

وكنت اعيد على جدتي ، عندما ارقد الى جانبها ليــلا في السقيفة ، كل ما علق بذهني من دروس ذلك النهار ، وكل ما نفتقــت عنه مخيلتي من ابداع خاص ، فتضحك احيانا ، وتزجرني احيانا اخرى بقولها :

— ارأيت ، انك تستطيع ان تفعل ما تريد حين تريد ! ولكــن ، يجب عليك الا تهزأ بالفقراء لان الله معهــم ... ان المسيح نفسه كان فقيرا ، وكذلك بقية القديسين .

فأجيب متمتمــا :

— « انــي أبغض الفقــراء ،
وابغض ايضــا جــــدي !
فاغفــر لــي يا ربــي !...
ألطــــير فــي الهـــواء ،
لافــر من عنــق جــدي ،
أم انــزوي في جــب ؟!.. »

قالــت بحــدة :

— لبت لسانك يقلع من جذوره ، ايها الوقح الشرير ! ماذا يحدث لو سمع جدك هــذا ؟

— فليسمــع ...

فراحت ترجوني بلطــف :

— لماذا تظل تضايق امك المسكينة هكذا ؟ يكفيها ما تعانيــه الان حتى تزيد الطين بلــة بخبثــك ...

— وما نوع همومهــا ؟

— اخرس ! انك لا تستطيعان تفهم مثل هذه الامور !

— انا اعرف ان جدي ...

ـــ لقد أمرتك ان تخرس !

كنت تعيسا يطفح قلبي بشعور أقرب ما يكــون الى اليأس ، فاريــد ـــ لسبب اجهله ـــ كتمان ذلك الشعور وعدم اظهاره ، فــلا ازداد الا جراة ووقاحة وتمردا ! وتكاثرت دروس والدتي واشتدت صعوبة على مر الايام . لم يكن يعسر علي فهم الحساب ، وان كنت بالمقابل لا أطيق الاملاء ولا افقه معنى لقواعد اللغة . والــذي كان يغيظنــي اكثر من كل شيء اخر هــو الشعور بشقاء والدتي وادراك بؤسهــا في دار أبيها . كانت تزداد تجهمــا يوما بعد يوم ، فتهيم عيناها وراء شيء غريب ، بعيد ، غير منظور ، او تجلس الى النافذة ساعات طويلة تحملق الى الخارج في صمت وسكون ، تتراءى لى حين اشخص الها انها تذبل شيئا فشيئا وتتلاشى . لقد كانــت ، في الايام الاولى بعد وصولها ، سريعة الحركة ، تطفح نشاطا واندفاعــا ، أما الان فقد تربعت دائرتان سوداوان تحت عينيها ، واصبحت تقتصــر من ظهورها بيننا ، فتقضى النهار بطوله في قميص طويل اشعث غير مبكل الازرار ، دون ان تسرح شعرها او تصففه ... وكان يحز في قلبي ان أراها على هذه الحال من الاهمال ، هي التى كانت بالنسبة لى دوما حسنة جميلة ، بل كنت اشعر انها اجمل انسان في الوجود كله .

وفي اوقات الدروس كانت لا تنظر الي ، بل تثبت نظرها في الجدار ، او تبعث به من خلال النافذة ، وتطرح على الاسئلة في صوت متعب منهوك ، بدون مبرر ، الامر الذي كان يحزنني ويجرح مشاعــري ، فتصيح في وجهي دون انقطاع ، الا مر ا لذي كان يؤلمني ويجرح مشاعرى . ان من واجب الام ان تكون عادله ، اعدل من بقية الناس ، مثل الامهات في قصص جدتي الخرافية ... وكانت ، في فترات متتاليات ، اسالهــا :

ـــ الست سعيدة بيننــا ؟

فتجيب بحدة :

ـــ هذا ليس من خصوصياتك . اهتم بشؤونك الخاصة .

وكنت ارى ايضا ان جدي يهــىء امرا تخافه جدتى وامي . وكثــيرا ما كان يقفل الباب على أمي وعلى نفسه في غرفتها ، حيث يتناهى الى سمعي زعيقه اشبه بصفرات آلة الراعي نيكاتور الخشبية المخوفة ... وقد صاحت امي ، في احدى هذه المناسبات ، بصوت عال جدا سمعه جميع من في البيت:

«١٣»

ـــ هذا لن يكون ابدا ، ابـــدا !

واغلقت الباب بشدة ، فشرع جدي يعوي ...

كان الوقت مساء ، وجدتي جالسة في المطبخ تخيط لجدي قميصا ، وهي تغمغم بينها وبين نفسها بكلمات مبهمة غير مفهومة . وعندما اغلق الباب بشدة ، ارهفت سمعها وهي تصيح :

ـــ آه ، يا الهي ! ماذا حدث ؟

وفجاة ، اندفع جدي داخل المطبخ ، وتوجه مباشرة الى زوجه يلطمها على راسها ، ويكز باسنانه ، ويزعق وهو يحمل يده المجروحة :

ـــ متى تتعلمين ضبط لسانك ، ايتها الساحرة المجوز ؟

فأجابت بهدوء ، وهي تعيد ترتيب شعرها :

ـــ يا لك من احمق ! اتعتقد انك ستعلمني ضبط لساني عن الكلام ؟ تاكد انني سأطلعها على كل شيء اعرفه من مشاريعك وخططك ...

فرمى بنفسه عليها ، وانهال على راسها ضربا مبرحا وهي ساكنة ، لا تقاوم ابدا ، ولا تجرب ان تدفعه عنها ، بل تردد بعناد :

ـــ هيا اضربني ، ايها الاحمق ! اضرب ، اضرب ...

ورحت انا ارميه ، من على السقيفة ، بالوسادات والاحرمة والاحذية، وكل ما طالته يداي ... ولكنه ، وقد اعماه الغضب ، لم ينتبه لشيء من ذلك مطلقا . وسقطت جدتي على الارض ، فاستمر يرفسها على راسها حتى تعثر وسقط على الارض ، راميا معه سطلا من الماء . وسرعان ما نهض وهو يبصق ، ويتلفت يمنة ويسرة قبل ان يندفع خارج المطبخ مسرعا الى غرفته في الطابق العلوي . ونهضت جدتي بدورها وهي تتأوه وتئن ، وجلست على الدكة ، وراحت تعلق الدبابيس في شعرها المشعث ... اما انا فقفزت عن السقيفة الى الارض ، وما كادت تراني حتى صاحت في غضب:

ـــ اجمع هذه الوسادات والاشياء الاخرى ، وارجعها الى مكانها فوق . جميل والله ان ترمينا بكل هذه الاشياء هكذا ! قلت لك الف مرة لا تهتم بما

لا يعنيك ... وذلك الشيطان الهرم . ما باله قد فقد عقله على هذه الصورة الوحشيــة ؟

وعلى حين غرة ، ندت عنها صرخة خافتة ، وتغضن وجهها . ونادتني وقد احنت رأسها ودلتني باصبعها :

ــ انظر هنا ، ما الذي يؤلمني بكل هذه الشدة ؟

فرفعت شعرها الثقيل افتش فيه حتى عثرت على دبوس غارز في فروة رأسها . سحبته ، فوجدت دبوسا اخر ... وهنا شعرت بالضعف يجتاح جسدي بكامله ، فقلــت :

ــ يحسن ان انادي امي ، انا خائــف !

فصاحت ، وهي تلوح بيدهــا :

ــ ماذا تقــول ؟ تنادي امــك ؟! اشكر الله لانها لــم تر ذلــك او تسمعه ، وانت تريد ان تناديها ! اخرج من هنا !

وراحت تبحث باصابع مطرزه ماهرة ، عن الدبابيس المدفونة في شعرها الكثيف الرائع . وجمعت شجاعتي وقــواي ، واعنتها في ســحــب دبوسين اخرين من جلدة رأسها .

ــ ايؤلمك ذلــك ؟

ــ قليلا ! سأستحم غدا واغسل الالم كله .

ثم راحت تملقني بحنــان :

ــ لكن ، اياك ان تخبر امك بما حدث لي ، ايها العصفور الصغير ... يكفي ما هي فيه . انت لن تخبرها ، اليس كذلك ؟

ــ كلــلا !

ــ حذار ان تنسى وعدك ! والان ، فلنرتب كل شيء معا . اتستطيع ان ترى شيئا ما على وجهي ؟ كلا ؟ هذا حسن ! ان ما حدث سيظل سرا بيننا .

وبدات تمسح الارض ، فقلت من صميم قلبي :

ــ انت قديسة ــ يعذبونك ويضربونك ولا تلقين اليهم بالا .

ـ ما هذا الهراء ؟ قديسة يا له مـن مكان جميـل للبحث فيه عـن قديسة !

ظلت تغمغم طويلا وهي تزحف على يديها وركبتيها ، بينما قبعت انا على عتبة الباب ابحث عن طريقة انتقم بها من جدي على تصرفه ذلك المساء ...

كانت هذه هي المرة الاولى التي يقسو فيها جدي علي جدتي حتى تلك الدرجة ، في حضوري على الاقل ... فرحـت أتصور ، في ظلمـة الليل ، وجهه الملفوح المتأجج ، وشعره الاحمر يتموج حواليه . كـان قلبي يحترق غيظا وانا اتالم لعجزي عن تصور الانتقام اللائق .

وبعد يومين ، دخلت غرفته في الطابق العلوي لسبـب ما ، فوجدته متربعا على الارض ، مكبا على صندوق مفتوح يعبث فيه ببعض الاوراق ، وقد وضع على كرسي بالقرب منه تقويمه الكنائسي الذي يحبه كثيرا ، وهو مؤلف من اثني عشرة ورقة من اللون الباهـت السميك قسمت الى مربعات بعدد أيام الشهر ، وفي كل مربع منها صورة لوجه القديس الذي يوافق عيده ذلك النهار . كان جدي يقدر ذلك التقويم ويحرص عليه كثيرا ، فلا يسمح لي بالقاء نظرة عليه الا في حالات استثنائية نادرة ، عندما يكون راضيا عن عملي او سلوكي . وكنت أمعن النظر في تلك الملامح الصغيرة الباهتة الجذابة ، وعاطفة غريبة تتأجج في صدري . كنت اعرف سيرة حياة بعضهم : كريـك واوليتا ، والشهيدة فارفارا ، وبندلامون ، وغيرهم ايضا .. وكنت أحب ، بصورة خاصة ، قصة القديس الكسي ، رجل الله ، وكذلك تلـك الاشعار الرائعة التى غالبـا ما كانـت جدتى تتلوها وتلحنها على مسمعي بنغمـة خاصة تهز مشاعري . كنت انظر الى هؤلاء الشهداء أحيانـا ، فاتعزى حين أفكر ان بعض الناس ، في كل عصر ، قد اضطهدوا من أجل ايمانهم ...

غير انني قررت ، في تلك اللحظة بالذات ، ان أمزق ذلـك التقويم . فوقفت أترقب الفرصة ، حتى اذا مضى جدي الى النافـذة يقرا في ورقـة زرقاء مزينة برسوم مختلفة ، أسرعت فاختطفـت ثلاث وريقات من ذلـك التقويم ، ثم وليت الادبار حتى المطبخ حيث تناولت المقص مـن على طاولة جدتي ، وتسلقت السقيفة وشرعت اقص رؤوس القديسين . ولم اكد اطيح بأول صف منهم حتى حز في قلبي اتلافهم على هذه الصورة ، فشرعت اقص الورق على مستوى الخيوط التـي تفصلها الى مربعات . ولم اكد انتهـي من قص السطر الثاني حتى ظهر الجد على عتبة الباب ، وقال :

ـ من سمح لك ان تسرق التقويم ؟

وعلى غير انتظار ، لمح المربعـات الصغيرة مبعثـرة علـى الارض ، فاختطفها ورمقها طويلا ، ثم رماها والتقط سواها ، حتى اذا ادرك ما حدث ارتعش فكه ، وارتجفت لحيته ، واشتد تنفسه بحيـث أطاح بالاوراق تطير في الهـواء .

ـ ماذا فعلت ايها الشقي ؟

وقف اخيرا ، واخذ يجذبني من قدمي عن الموقـد ... ولكني أفلـت منه ، وقفزت في الهواء ، فالتقطتني جدتي بين ذراعيها ...

صرخ ، وهو يكيل الضربات لجدتي ولي ايضا :

ـ ساقتل ... !

وظهرت والدتي فجأة ، فوجدت نفسي في الزاويـة وهي تقف أمامـي تحمينـي ...

صاحت ، وهي تجرب ان تصد سيل اللكمات التي تنهـال من قبضتي جـدي :

ـ ماذا تفعل ؟ عد الى صوابك !

فتهالك جدي على دكة قرب النافذة يقول ، وهو ينتحب :

ـ لقد قتلتموني ، جميعكم ضدي ـ كلكم !

فجاء صوت أمي الخافت الضعيـف :

ـ الا تخجل من نفسك ؟ انت ابدا تسخر من الجميع بتمثيلك هذا !

فابتدأ يصرخ ، ويرفس الدكة بقدميـه ، وقد اغلـق عينيـه بشدة ، وارتفع راس لحيته نحو السقف بشكل يبعث على السخرية ، وبدا لي انه خجل حقا من ذلك الدور الذي مثله بحضور أمي ، وان هذا ما جعله يغلق عينيه ... قالت امي تهدىء من روعه ، وهي تلتقط الاوراق المبعثرة :

ـ سالصق لك هذه القطع الى بعضها على قطعة مـن القماش ... فيصبح التقويم أحسن مما كان عليه واكثر متانة . انظر اليه ، لقـد اهترأ

وتمزق هذا التقويم . ولم يعد ينفع مطلقـا .

كانت تحدثه بنفس اللهجة التي تتوجه بها الي عندما كنا نعصى علـي فهـم شرحها . لكـن الجد نهض فجـاه ، واصلـح من وضـع قميصـه وصدرينه بترو زائد واحتيال عظيم ، ثم سعل ، وقال :

ــ عليك بالصاق هذه الاشياء اليوم بالذات . سأجيئك ببقية الاوراق الباقية عندي .

واتجه الى الباب ، ولكنه استدار على العتبة وقال ، وهو يهز اصبعه المعوج مشيرا الـي :

ــ أما هو فيستأهل الجلـد !

فوافقت أمي بهزة من رأسها وقالت :

ــ نعم ، لا ريب في ذلـك .

ثم سألتني ، بتمهل :

ــ لماذا فعلت ذلـك ؟

ــ فعلت ذلك عمدا . واذا هو ضرب جدتي ثانية لاقطعن له لحيته

فهزت جدتي رأسها ، وهي تخلع قميصها الممزق . . .

قالت ، وهي تبصق باشمئزاز :

ــ كان يجب ان تمنع لسانك عن الكلام كما وعدتني . ليت هذا اللسان ينقطع حتى يكف عن الثرثرة بكلام بذيء !

فرنت أمي اليها ، ثم استدارت الي ، وسألت :

ــ متى ضربهـا ؟

فقاطعتها جدتي ممانعـة :

ــ الا تخجلين ، يا فارفارا ، اذ تطرحين على طفل صغيـر مثل هذه الاسئلـة ؟ ذلك ليس من شأنك !

فصاحت أمي ، وهي سعانقها بحرارة :

ــ آه ، اماه ، ايتها الحبيبـــة !

ــ هم ، يا لها من أم ممتازة بالنسبة اليك ! هيا ، دعيني اذهب ...
ونظرت كلتاهما الى الاخرى لحظة في صمـــت ، ثم مضت كل منهما في سبيلها ... وكنت استطيع ان اسمع الى جدي يروح ويجيء في المر ويتمشى بعدم استقرار .

• • •

تصاحبت امي ، منذ اليوم الاول لوصولها ، مع زوجة الضابط اللطيفة، وامست نزورها كل مساء تقريبا . وهناك كانت تلتقي ببعض آل بيتلينغ ــ زمرة من السيدات الجميلات ، وفريق من الضباط الشجعان . ولكـــن ذلك لم يرق لجدي ، فكان يلوح بملعقته دوما في اتجاههـــم ، وهو مكب علـــى الاكل في المطبخ ، ويقول معلقا بتأفف :

ــ انهم يحيون حفلة اخرى الليلة ، لعنة الله عليهم ! هذه ليلة ثانية لن اجد النـــوم سبيلا فيهـــا .

وما اسرع ما طلب الى الجيران اخلاء الشقة . ثم جلب بعد رحيلهم ، من مكان لا يدري به أحد ، شحنتين من الاثاث البالي العتيـــق ، ووزعه في الجناح الفارغ ، واحكم قفل الباب ، وهو يقول :

ــ اننا لن نحتاج الى اولئـــك المستأجرين بعـــد اليوم ، بل انا الـــذي سأستقبل الضيوف من الان فصاعدا .

ولم يكد يوم الاحد يطل حتى شرع الزوار يتوافدون علينا . وكانت من بينهم أخت جدتي ، ماتريونا ايفانوفنا ، وهي غسالة عريضة الانـــف ، كثيرة الجلبة ، ذات شعر ذهبي ، تلبس رداء مـــن الحرير مخططـــا ... وكـــان يصحبها ولداها : فاسيلي ، وهـــو رسام شاب ، لطيـــف المعشر ، طيـــب القلب ، طويل الشعر ، يلبس رداء رماديا ، وفيكتـــور ، وهو فتى ذو رأس كرأس الحصان ، ووجهه صغير تغطيه بقع كبيرة من النمش ، لم يكد يبلغ الممشى ــ حيث شرع ينزع عنه معطفه ــ حتى وصل الى اذني صفـــيره وترنمه بهذه الكلمـــات :

ـــ اندريه ـــ بابا ... اندريه ـــ ...

فادهشني منه ذلـك وارعبني في الوقـت ذاته دون ان ادري سـببـا ...

وجاء الخال ياكوف ايضا يحمل قيثارتـه ، يصحبه ساعاتـي الرأس ، أعور ، يرتدي معطفا طويلا اسود اللون يجعلـه على هيئة الرهبان . وكان يقبع في احدى الزوايا يبتسم ، وقد أمال رأسه واستند الحليقة المتشققة الى أصبع واحده ، يـتـطلـع بعينـه الوحيـ كل شـيء حوله بحدة خاصـة ، قليل الكلام ، يردد على الدوام هذه الجما

ـــ أرجوك ، لا تتعب نفسك ، فكل شيء سيان ...

عندما تطلعت فيه ، للمرة الاولى ، تذكـرت بغتة ذلـك الزمن (وكنا ما نزال نعيش في شارع نوفايا) عندما سمعت الطبـول تقرع بالشر والويل في الطريق العام ، ورايت عربة سوداء عالية ، يحيط بها والناس ، تتحرك منحدرة من السجن حتى الساحة العامـة ، وقـد فيها ، على دكة صغيرة ، رجل يغطي رأسه بقبعة مستديرة ويـداه بسلسلة من الحديد تصعد اصواتا غريبة كلما مشى... وكانت لوحة سودا من عنقه ، وقد كتب عليها شيء ما بأحرف بيضاء كبيرة ، انحنى رأس عليها فكأنه يقرأ المكتوب فيهـا ...

ـــ هوذا ولـدي !

قالت أمي ذلك ، وهي تقدمني الى الساعاتي ، ولكني نفرت الى مذعوراً ، وقد شبكت يدي خلف ظهري .. فقال هذا ، وقـد انسحـ حتى اذنه اليمنى بطريقة مرعبة :

ـــ ارجوك ، لا تتعبي نفسك ...

وامسك بي من حزامي ، وجرني اليه ، وادارني امامه بحركة سـ ماهرة ، ثم قال ، وقد افلتنـي :

ـــ انه في صحة جيدة ، انه قوي !

واتخذت مجلسي على مقعد من الجلد يتسع للرقاد فيه ـــ وكان

يفتخر دوما بأن ذلك المقعد قد خص الامير روزينسكي فيما مضى من الايام – ورحت اراقب من تلك الزاوية كيف يجرب الكبار عبثا ان يمرحوا ، وكيف تتبدل تعابير وجه الساعاتي دون انقطاع ، الامر الذي اثار استغرابي وارتيابي ... كان يبدو ان وجهه النحيل ، المكسو بالشحم ، يلين كالشمع الاصفر ويذوب ، فاذا ابتسم الرجل انحرفت شفتاه الغليظتان الى اليمين ، وانتقل انفه الصغير مثل قطعة صغيرة من اللحم المقدد في قاع صحن وسخ . وكانت اذناه الكبيرتان المنفرجتان تتحركان بدورهما بشكل مثير للضحك ، فترتفعان تارة مع حاجب العين السليمة ، وترتميان تارة على الخدين المتعظمين فيخال لي انه يستطيع لو اراد أن يغطي بهما أنفه .

وفي بعض الاحايين كان يخرج من فيه ، بعد ان يصعد زفرة عميقة ، لسانا اسود ، صغيرا ، مدورا كالقرص ، فيرسم به عدة دوائر وهو يرطب شفتيه الغليظتين المبللتين .. وجدت ذاك مدهشا اكثر منه مضحكا، فلم استطع ان ارفع عيني عنه أبدا .

تناول الضيوف الشاي ممزوجا بالروم الذي كانت تفوح منه رائحة البصل المحروق ، واحتسوا ، فيما احتسوا ، الاشربة التي تهيؤها جدتي والتي كانت ذهبية اللون ، او خضراء ، او سوداء معتمة كالحة كالزفت ... واكلوا من معجناتها المشوية المغطاة بالقشطة ، كذلك بعض الكعك الممزوج بالعسل حتى انتفخوا ، وتصببوا عرقا ، وراحوا يزفرون بشدة وهم يشكرون جدتي على كرمها . وبعدما شبعوا ، جلسوا بتراخ في مقاعدهم ، وقد توردت وجوههم وزهت الوانها ، وراحوا يسالون الخال ياكوف في تكاسل ان يعزف شيئا على قيثارته ، فانحنى هذا عليها ، وشد من أوتارها ، ثم شرع يغني بصوت يشبه عويل الثكلى :

« لقد لهونا هنا لنملأ الارض غناء ..
وجاءت من « كازان » يا لها من حسناء
جاءت تفتش عن صاحب لهو وهناء ! »

وجدتها اغنية حزينة جدا ، وكذلك وجدتها جدتي من دون ريب ، اذ قالت :

– غن شيئا اخر ، يا ياكوف – اغنية حقيقية لطيفة . اتذكرين تلك الاغاني التي كان الناس يغنونها في الماضي ، يا موتريا ؟

فاجابت المسالة في لهجة طروب ، وهي تمسك طرف ثوبها :

ـ ان اسلوبا جديدا طرأ على الاغاني في هذه الايام ، يا عزيزتي .

فحدج خالي جدتي بعينين نصف مغلقتين وكأنها بعيدة عنه جدا ، ثم تابع الانشاد بنغمته الحزينة وكلماته البشعة ...

كان جدي منهمكا في مناقشة سرية مع الساعاتي ، وهو يبرهن شيئا ما على أصابعه . وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحية والدتي ، ويهز رأسه ، بينما تأخذ قسمات وجهه المائع بالارتجاف في خبث كثير .. أما أمي فكانت جالسة بين الاخوين سيرجييف كالعادة ، تتحدث بهدوء وتؤدة ووقار الى فاسيلي الذي كان ينتهد ، ويقول :

ـ هه ! يجب ان أفكر في ذلك !

فيبتسم فيكتور ابتسامة ماكرة ، ويسحب قدميه على ارض الغرفة ، ثم يروح ينشد فجأة في صوت حاد رفيع :

ـ اندريه ـ بابا ... اندريه ـ ...

فيتوقف الجميع عن الحديث ... ويرمون بأبصارهم اليه ..

قالت والدته بانفة :

ـ لقد أخذ ذلك عن المسرح . انهم يغنون هكذا هناك .

قضينا أمسيتين أو ثلاثا فقط من هذه الامسيات ... لشد ما ارهقني فيها ـ وانا اذكر جيدا ـ ملل لا يطاق . ثم جاءنا ذلك الساعاتي ، ذات يوم أحد ، عند الظهيرة ، بعد خدمة القداس الاخيرة مباشرة . وكنت جالسا في غرفة والدتي اساعدها في استخراج اللآلىء من ثوب مطرز عتيق ، حين فتح الباب بغتة على مصراعيه ، وظهر وجه جدتي المذعور لحظة قصيرة كانت كافية لان تتمتم فيها :

ـ فارفارا ، لقد جاء !

فلم تجفل والدتي ، ولم يتقلص في جسدها طرف واحد ... ثم فتح

الباب ثانية ، بعد اقل من دقيقة واحدة ، وظهر وجه جدي على العتبة وهو يقول في وقار عظيـــم :

ـــ ارتدي ثيابك وتعالي ، يا مارفارا !

فســألته والدتي ، دون ان تقف أو تدير نظرها اليه :

ـــ ولكن الى أيـــن ؟

ـــ تعالي يباركك الله ، وكفاك نقاشـا . انه رجــل مستقيم ، يتفــن عملـــه ، وسيكون أبا طيبا لالكسي ..

كان جدي يتحدث باهتمام غير معهود ، وهو يضرب وركيه بيديه دون انقطاع ... بينما طفق مرفقاه يرتعشان وكان يديه ترغبـــان في الامتداد الى الامام ، وهو يجاهد ليمنعهما من ذلك ... قالت امي بهدوء :

ـــ لقد سبق وقلت لك ان ما تخطط له لن يكون .

فاسرع جدي اليها ، وقد مد ذراعيه الى الامام منــه كرجــل ضرير . وصاح بصوت جاف ، وهو يرتعش من ام راسه حتى أخمص قدميه :

ـــ تعالي ، والا جررتك جرا ـــ من شعرك !

ـــ ستجرنـــي ؟

سألت والدتي وهي تنهض ، مربدة الوجه ، وقد ضاقت فتحة عينيهـــا وشع فيهما تهديد مرعب ... واسرعت تنضو عنها معطفها ، ثم تنورتها .

قالت حين اضحت عارية وليس ما يستر جسدها سوى قميصها :

ـــ حسنا ، جرنـــي !

فكشر عن أسنانه ، وهز قبضتيه ، وصاح :

ـــ ارتدي ثيابك ، يا فارفارا !

فدفعته والدتي ، ومضت الى الباب ، وزعقت :

ـــ حسنا ، هيا بنـــا !...

همس من أطراف شفتيـــه :

ــ سألعنــك !

ــ لا اخافك ولا اخاف لعنتك

وفتحت الباب ، ولكن جدي امسك بها من طرف قميصهـــا وسقط على ركبتيه . . . وانخرط باكيا ، وهو يقول بصوت لا يكاد يسمع :

ــ ستهلكين ، يا فارفارا ! أيتها الشيطانة الماكرة ! لا تجلبي العـــار علينـــا . .

وأرسل انينا مفجعا ، فكأن الما مرهقا يعتصر فؤاده :

ــ اماه ! تعالي وانظري !

كانت جدتي ، في ذلك الحين ، قد سدت الطريـــق على أمي وراحـــت تدفعها الى الغرفة بحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة ، وهي تهمس من بين اسنانهـــا :

ــ ايتها الحمقاء فاريا ! ارجعي ، يا قليلة الحياء !

عندما اصبحت امي في وسط الغرفة ، اسرعـــت جدتي تغلق البـــاب بالمزلاج ، ثم استدارت نحو جدي ورفعته عن الارض بيدها الواحدة ، بينما هزت اليد الاخرى في وجهه متوعدة :

ــ اف منك ، انت ، ايها الابليس العجوز ، ايها المخلوق الغبي ؟

واجلسته على الاريكة كلفته من الخر ق ، منحني الراس ، فاغر الفم ، وهي تهتف بوالدتـــي :

ــ البسي ثيابك ، انـــت !

فقالت والدتي ، وهي تلتقط ثيابها عن الارض :

ــ اني لن اذهب اليه ، هل تسمعان ؟

ودفعتنى جدتي عن الدكـــة :

ــ اسرع وهات وعاء من الماء . . . هيا ، انطلق !

كانت تتحدث همسا ، لكن بهدوء وبلهجة الامر .. اسرعت عبر الممر لانفذ طلبها ، ومن هناك استطعت ان اسمع خطوات تسير جيئة ورواحا ببطء وخطوات ثقيلة في الغرفة المواجهة ، بينما بلغني صوت امي تصيح في غرفتها :

ــ سارحل غدا !

مضيت الى المطبخ ، وجلست الى النافذة كالمشدوه . كان جدي يئن ويتأوه ، وجدتي تغمغم بشيء ما في سرها ، واصطفق احد الابواب في عنف . ثم خيم السكون والرهبة على كل شيء من جديد ... وفجأة ، تذكرت الغاية التي جئت من اجلها ، فملأت طاسة بالماء وخرجت الى الممر حيث التقيت بالساعاتي يسير متدلى الرأس وهو يدعك قبعته المصنوعة من الفرو ، ويطلق اصواتا جافة فارغة ... وكانت جدتي تتبعه ، وقد صلبت ذراعيها على صدرها ، وهي تنحني له دون ان يراها ، وتقول في صوت خفيض :

ــ انت تعرف ذلك جيدا ــ فالحب ليس بالامر الذي يجبر الانسان عليه جبرا !...

وتعثر الساعاتي على عتبة الباب ، ثم دلف منه الى الساحة ، بينما رسمت جدتي اشارة الصليب ، ووقفت هنالك لحظات يسيرة ترتجف فيها كل ذرة ... ترى ، هل كانت رجفتها ناشئة عن الضحك ام البكاء ؟.. لست ادري ! لاني لم استطع ، في ذلك الحين ، ان اسبر غور نفسها ...

ركضت اليها اسألها :

ــ ما بالك ؟

فاختطفت الطاسة من بين يدي بعنف حتى اراقت بعض الماء على جوربي ، وقالت :

ــ من اين رحت تستقي هذا الماء ؟ اقفل الباب !

واستدارت راجعة الى غرفة والدتي ، بينما دلفت انا الى المطبخ ورحت استمع ، من هناك ، الى تأوهاتهما وتنهداتهما المستمرة فكأنهما تدفعان من مكان الى اخر ، حملا ثقيلا يفوق قواهما ...

كان النهار بديعا رائعا ، واشعة شمس الشتاء المائلة تخترق زجاج

النافذتين المتجلد . وكانت المائدة مهيأة للغـداء ، تلتمـع عليها الصحـون النحاسية ، وزجاجتان تحتوي احداهما شراب الكفاس الذهبـي ، والثانية فودكا جدي المخضرة من كثرة الجعة غير المختمرة فيها ، ومن زهـر الربيع المضاف اليها لتعطير رائحتها . وكانت كوة صغيرة تبعث وميضا من الثلج يبهر النظر من خلال مساحات ضيقـة من الجليـد الذائـب على زجاج احـدى النافذتين ... كان ذلك الوميض يتلألأ على الاسطحة ، ويتألق على القبعات الفضية البرّاقة التي تكلل عواميد السيـاج واعشاش العصافير . وكانـت طيوري الاسيرة تمرح في اقفاصها الفياضة بأشعة الشمس ، والمعلقة علـى اطـراف النافـذة : فالبلبـل الاليف يزقـزق جذلان مرحـا ، يصفـر ، بينما شرع الحسون يردد اغنية من اغانيه الجميلة .. لكن هـذه الموسيقى الحلوة ، وذلك التألق الذي يبعثه النهار الفضي ، لم يحمـلا الي شيئا مـن الغبطة على الاطلاق . كان الغم يملأ نفسي فأرغب عن التمتع بجمـال ذلك النهار الرائع وعن كل شيء اخر في الوجود ... واردت ان اطلـق سراح الطيور للتمتع بالحرية والسلام ، ولم اكد اتناول الاقفاص حتى ظهرت جدتي في المطبخ تزمجر ، وتلطم خديها ، وتصيح وهي تركض الى الموقد :

ـ لعنكم الله جميعا ، واخذتكم العفاريت ! آه ، يا لـك من عجـوز حمقاء ، يا اكولينـا !

واخرجت من الفرن فطيرة كبيرة ، وضربـت باصابعها على قشرتهـا المحترقة ، ثم بصقت على الارض :

ـ لقد احترقت حتى صارت رمادا ! وانا التي اردت ان اسخنها فقط ! تفو ، يا اينها الشياطين ، هلا تحطمتم جميعا وذهبتم هباء ! وانت ايها البوم، لماذا تقعد محملقا بعينين كبيرتين ؟ اود لو اهشمكم قطعا كآنيـة الفخار ..

وشرعت تبكي وهي تقلب الفطيرة من جهة الى جهـة ، وتلمس القشر الجاف ، وتسقيه بدموعها الغزيرة ...

ودخل جدي وامي الى المطبخ ، فرمت جدتي ذلك التلف على الطاولة

بشدة فتراقصت الصحون وصدر عنها ضجيج صاخب ..

ــ انظرا ما حدث ، وكل ذلك بسببكما ، حملكما الشيطان !

فارتمت والدتي عليها ، وقد اسقردت هدوءها ومرحها ، تعانقها وتواسيها وترجوها ان تنسى كل ما حدث ... بينما راح جدي يرنو حواليه، تعبا ، متغضن الوجه ، وهو يأخذ مجلسه الى المائدة ، ويعقد حول عنقه ، وينظر شزرا بعينيه المنتفختين ، ويغمغم :

ــ حسنا ، فلننس ذلك ! لقد اكلنا فطائر لذيذة من قبل . ان الله بخيل بعض الشيء ، يأخذ منك مقابل دقائق من السعادة سنوات من الشقاء، وهو لا يؤمن بالفائدة .. اجلسي ، يا فاريا... وانسي ما حدث !

كان يبدو وكأن مسا من الجنون أصابه ... ظل يتحدث ، طوال الغداء ، عن الله ، وعن « آهاب » الملحد ، وعن البلايا والشدائد التي تقع على عاتق رب البيت ؛ فقاطعته جدتي بشدة تقول :

ــ هيا تناول غداءك ، ولا تتحدث كثيرا !

وضحكت أمي ، وبرقت عيناها الصافيتان ...

سألتنى ، وهى تربت على كتفى :

ــ حسنا ، هل جزعت كثيرا مما حدث ؟

كلا ! لم اخف كثيرا ! ولكنني اشعر الان بالقلق والضيق ، ولا استطيع ان افهم ماذا حدث ...

ظلوا يأكلون طويلا وكثيرا ، كما هى العادة أيام الاحاد والاعياد ، حتى ابتدأ الملل ينال منى .. وصعب على أن أصدق ان هؤلاء هم انفسهم الذين كانوا ، لنصف ساعة مضت ، يصيحون في وجوه بعضهم ، يهيجون نقمة ، ويغلون غضبا ، وهم على أهبة القتال في كل لحظة .. وكذلك لم أستطع ان أصدق انهم كانوا جادين فيما ذهبوا اليه ، وان ذلك كلهم بعض العناء .. لقد اعتدت صراخهم ، وبكاءهم ، وذلك النزاع الذي لا يفتأ يتكرر ، كي يعود فيخمد بسرعة غريبة ، حتى لم أعد القي الاهتمام كما كنت افعل من قبل .

ولكنني أدركت ، بعد زمن طويل ، ان الروسيين المجبريـــن على حيا فقيرة فارغة كانوا يفتشون عن تسلية لهم حتى في الحزن نفسه ، فيلعبون بـ كالاطفال ، ولا يحسون الخجل من مصائبهم الا في القليل النادر . . .

وعندما تكون الحياة رتيبة ، يمسي الحزن نفسه عيدا وحدثـــا مرحا بهما - وحتى الحريق يصير تسلية لذيذة . . . وكذلك الجرح البسيط ، في وجـ خال من كل معنى ، يمسي زينة جميلة رائعة . .

* * *

١١

اضحت والدتي ، بعد ذلك الحادث ، قوية ، منتصبة ، وراسا للبيت كله ، بينما استسلم الجد الى الصمت ، والتواضع ، فكأنه لم يعد هو هو ، وفقد شيئا مهما من نفسه ...

ولم يعد يبرح البيت ابدا ، بل يجلس في الطابق العلوي يقرأ في كتاب غريب مبهم يدعى « مذكرات والدي » .. كان يحفظ ذلك الكتاب في صندوقه الضخم تحت « القفل والمفتاح » ، وكثيرا ما لاحظت انه يغسل يديه قبل ان يأخذه من مكانه .. كان الكتاب صغير الحجم ، جلدي الغلاف أصفره ، قد كتب على صفحته الاولى الزرقاء هذه العبارة بحبر باهت اللون : « الى النبيل فاسيلي كاشرين ، مع أخلص التحيات واجزل الشكر ... » . وكانت هذه الكلمات مذيلة باسم غريب ينتهي بصورة منمقة حلوة تمثل عصفورا يطير ... وكان جدي يفتح الغلاف الجلدي الثقيل بعناية فائقة ، ويضع نظارتيه الفضيتين ويرنو طويلا الى تلك العبارة وهو يتلمس أنفه ليصلح من وضع نظارته . ولقد سألته ، اكثر من مرة ، عن ماهية ذلك الكتاب ، فكان يجيب بصورة مثيرة وقد قطب ما بين حاجبيه :

ــ ليس لك من حاجة الى معرفته الان . تريث قليلا ــ وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطفي السنوري أيضا .

أصبح يقتصد من كلامه مع والدتي ، واذا خاطبها فبصوت حلو لطيف، اما أن تحدثت هي ، فهو يصغي اليها بانتباه ، ويتمتم بصوت غير مفهوم ، ويومىء بيده ، ويطرف بعينه كما كان يفعل الخال بوتر تماما ...

كانت الصناديق تعج بكثير من الثياب الغريبة الملونة ، قمصان حريرية

مزركشة ، وصدار من الساتان والفرو ، واثواب من البروكار طويلة لا اكمام لها ، مطرزة بالفضة ، وقبعات مزينة باللؤلؤ ، ومناديل ، واربطة عنق براقة الالوان ، وعقود من احجار مختلفة الالوان .وكان يحمل ذلك كله الى غرفة والدتي ، ويرمي به على الطاولة والمقاعد ويقول ، عندما يرى الى والدتي تعجب بالحلى وتدهش :

— في ايام صباي كانت الثياب اثمن منها اليوم واجمل ! كانت الثياب اثمن ، اما الناس فكانوا يعيشون ببساطة ومحبة وود اكثر منهم في هذه الايام . ولكنى اعتقد ان ذلك الزمن لن يرجع ثانية ، فجربي هذه الاشياء واختاري ما يعجبك منها . . .

وذات يوم ، نزلت امي عند رغبته ، ومضت الى الغرفة المجاور وارتدت ثوبا طويلا يضرب الى السواد ، مزخرفا بخيوط من الذهب ووضعت على راسها قبعة جميلة مزركشة . . . قالت ، وهي تنحني لجدي

— ابروقك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فلهث جدي ، واشرق وجهه ، وراح يدور حولها وهو يحرك ذراعيه كمن يمشي سكرانا ويهمهم :

— آه ، فارفارا ! آه لو كنت ثرية فقط ، وكان هنلك اناس وجهاء فيم حولنا !

وقد شغلت والدتي غرفتين اماميتين في المنزل ، حيث كانت تستقبل كثيرا من الضيوف . وكان الاخوان مكسيموف اكثر الزوار ترددا علينا . كان احدهما يدعى بيوتر ، وهو ضابط طويل القامة ، جميل الطلعة ، ذو لحية عريضة شقراء ، وعينين زرقاوين ، جلدني جدي في حضوره يوم بصقت على راس ذلك الشريف الاصلع ، وكان الاخر يدعى يفجيني ، شاب مديد الجسم ايضا ، ولكنه شاحب الوجه ، ذو ساقين طويلتين ، ولحية سوداء مدببة وعينين كبيرتين تشبهان الخوخ البري ، يرتدي دوما بزة خضراء ذهبية الازرار ويضع شارات مذهبة على كتفيه الضيقتين . وكان من عادته ان يدلل بشعره الطويل المتموج من فوق جبهته العالية الى الخلف ، وهو يبتسم بتواضع ظاهر ، ثم يروح يروي في صوت ابح حديثا ما يفتتحه ابدا بهذه العبارة التي لا تتغير :

ــ انت ترين ، يخيل الي ان . . .

فتهبه والدتي كل سمعها ، وعيناها نصف مغلقتين ، وتقاطعه في اغلب الاحيان ضاحكــة :

ــ انت ما تزال طفلا ، يا يفجيني فاسيليفيتش ! واني ارجـو ان تغفر لي قولي هذا . . .

فيوافق الضابط الكبير ، وهو يضرب براحة يده على ركبتــه زيادة في التاكيــد :

ــ نعم ! طفل ! انه لكذلك تماما !

مرت عطلة عيد الميلاد في حبور صاخب ، فكان الضيوف يجتمعون عندنا كل مساء وقد ارتدوا ثيابا زاهية جميلة ، كانت ثياب أمــي دائما ازهاهــا وابهاها ، ثم يخرجون جميعا من الدار ليقوموا ببعض الزيارات . . .

كان البيت ، في كــل مرة يخرج فيها ذلــك الجمع المرح مــن الباب ، يبدو وكأنه يغوص في الارض ، ويغرق في لجـة من الكآبة والسأمة ، ويسبح في صمت خانق ثقيل . . . وعندئذ كانت جدتي تجوس خـلال الغرف كـأوزة هرمة ترتب كل شيء ، وتعيد النظام الى نصابه ، بينما يقف جدي وظهره الى ترمبد الموقد يتدفأ ، وهو يهمهم بينه وبين نفسه :

ــ حسنا ، حسنا ، سترى الى اين ستقودها هذه الطريــق التي تسير عليها الان بدون وعي . .

ولم تكد فترة عيد الميلاد تنقضي حتى أخذتنــي أمي مع ساشا ، ابــن الخال ميخائيل ، الى المدرسة . . . وكان هذا الاخير قد تزوج للمرة الثانية ، فلم يكد يمضي على زواجه بضعة ايـام حتى اخــذ ساشا ينال مر العــذاب والضرب من خالته التي ابغضته بسرعة عجيبة ، فاقترح جدي ــ نزولا عند الحاح جدتي ــ ان يتكفل به . وواظبنا على المدرسة مدة شهر واحد فقط . ولست اذكر ، من كل ماتعلمته طوال تلك المدة ، الا شيئا واحدا ، وهــو انه لا يكفي عندما اسال عن اسمي ان اجيب : « بشكوف » . . . بل يجب ان اقول : « اسمي بشكوف » . . . وكذلك فانني لا اتمكن من ان اخاطب المعلم

هكـذا : « لا تصرخ في وجهي على هذا الشكل ، يا استـاذ ، فلست اخاف منـك !... » .

وسرعان ما حقدت على المدرسة ... بينما هام بها ابن خالي شغفا ، وصاحب عددا من الطلاب لا بأس به .. ولكنه غفا ، ذات يوم ، اثناء الدرس وانطلق يصيح في نومه : « كلا ! لا أر ... يد ! » .. وعندما استيقظ ، استأذن في مغادرة الصف ، ولكن الطلاب سخروا منه بقسوة .. وفي صباح اليوم التالي توقف عن المسير ونحن في طريقنا الى المدرسة ، بعد ان تجاوزنا خندق ساحة سينايا ، وقال لي كمن يفشي سرا :

ــ ستتابع الطريق من دوني ، فانا لن اذهب الى المدرسة هذا النهار . انى افضل الانطلاق في نزهة ...

وجلس القرفصاء ، ودفن كتبه في الثلـج ، ومضى ... كنا في كانون الثاني والنهار مشرق ، والارض تلمع بما اسبغت عليها اشعة الشمس من نور وضياء .. وداخلني احساس بالغيرة من ابن خالي ولكني صررت علـى اسناني وتابعت الطريق في اتجاه المدرسة محبة بأمي ... وطبيعي ان كتب ساشا المدفونة في الثلج سرقت ، فاصبحت له بذلك ذريعة حقيقيـة للامتناع عن الذهاب الى المدرسة في اليوم التالي ... وفي اليوم الثالـث ، اكتشف جدي تصرفات ساشا وسلوكه الغريب .

وقدم كلانا للمحاكمة : جلس جدي وجدتي وأمـي وراء الطاولة فـي المطبخ ، يقومون بالتحقيق . واني لاذكر ، حتى الان ، اجوبة ساشا السخيفة على اسئلة جدي .

ــ لماذا لم تذهب الى المدرسة ؟

ــ لقد نسيت موقعها .

ــ نسيـت ؟

ــ نعم ، وقد فتشت عنها طويلا ...

ــ كان يجب ان تتبع الكسي ، فهو يعرف الطريق .

ــ لقد اضعت الكسي

ــ اضعت الكسي ؟

ــ نعــم .

ــ وكيف يمكن ذلــك ؟

فكر ساشا لحظة ، ثم قال متنهـــدا :

ــ كانت هنالك عاصفة ثلجية فلم استطع رؤية اي شيء على الاطلاق .

فضحك الجميع . . . لان الطقس كان رائعا صافيا مشمسا ذلك النهار . .

ولم يستطع ساشا نفسه ان يمتنع عن الابتسام قليلا ، ولكن جدي كشر عن اسنانه ، وقال في خبث كمن يوقع بعدو :

ــ الم تستطع ان تمسك بيده او بحزامه ؟

ــ لقد فعلت ، ولكن الريح عصفت بي وابعدتني عنه . . .

كان يتحدث ببطء بلهجة من فقد الامل كله ، فاثقلت علي تلك الاقوال الخرقاء وذلك الكذب الذي لا فائدة ترجى منه ، ولم استطع ان افهم لعناده معنى او سببــا . . .

نلنا نصيبنا من الجلد ، ثم استاجروا لنا احد عمال المطافــيء ، وهو شيخ متقاعد ذو ساعدين ملتويتين ، ليصحبنا الى المدرسة ، كانت مهمته ان يحتاط كيلا يضل ساشا الطريق الى المدرسة او يحيد عنه . ولكن عبثا فلم نكد نحاذي الخندق في اليوم التالي حتى خلع ابن خالي أحد حذائيه ورمى به عن يساره ، ثم خلع الحذاء الثاني ورمى به عن يمينه ، وشرع يدب في الساحة بجوربيه . . . واسرع الشيخ يسعى وراء الحذائين وهو يزمجر . . وعندما التقطهما ، عاد بي الى الدار مرتجف الاوصال ، بادي الرعب . . .

ظلت امي وجدتي ، طوال ذلك اليوم ، تفتشان في البلدة عــن الهارب حتى وجدتاه ، عند المساء ، في حانة شيركــوف بالقــرب من الدير يسلــي الجمهور برقصاته . . . عادتا به الى البيت ، ولكنهما لم تنزلا به عقابا لشدة الاضطراب والقلق اللذين اثارهما فيهما صمته العنيد . واستلقى بجانبي في السقفية ، يضرب الفضاء بقدمه ، ويقول بهدوء وانسجام :

ـــ ان امراة ابي لا تحبني ، وجدي لا يخبني ، فلم ابقى بينهم ؟ ساعرف من جدتي اين يعيش اللصوص ، واهرب اليهم ... وعندئــــذ ستعلمون كل شيء .. فلنفر معا ، ما رايــك ؟

كان الهرب مستحيلا بالنسبة الي ، فقد كنت اهدف ، في ذلك الحين ، الى غاية اخرى في الحياة ، وهي ان اصير ضابطا ذا لحية كبيرة شقراء ، الامر الذي يضطرني الى متابعة التحصيـــل ، والمواظبـــة على المدرســة . وعندما اوضحت لابن خالي مشروعي ، غرق في التفكير برهة ، ثم اجاب وقد استصوب رايي قائـــلا :

ـــ هذا حسن ايضا ! فعندما تصبح ضابطا اكون انا زعيما للصوص ، فيجب عليك اذن ان تقبض علي ... وسيقتل احدنا الاخر ، او يأخذه اسيرا . وانا لن اقتلك مهما كلف الامر ...

ـــ ولا انا ايضا .

وقد تم قرارنـــا على ذلك ...

دخلت جدتي ، وتربعت على الموقد ، وطفقت تحدثنا :

ـــ حسنا ، ايها الفأران الصغيران ! آه ، يا يتيمي الصغيرين ، يا فرخي اللطيفـــين !

وراحت تكيل الانهام ، في عطفها العميق علينا ، لامــــراة اب ساشا ، والعمة ناديجدا السمينة ، ابنة صاحب الخان .. وادى بها ذلـــك الى فضح جميع الخالات ، سائر ازواج الامهات دون تفريق ، ومن ثم روت لنا قصة الراهب الحكيم ايون الذي قاد خالته امام كرسي دينونة اللـــه ، وهو لم يزل صبيا بعد ، قالت :

ـــ « لقد كان ابوه صياد اسماك في البحيرة البيضـــاء ، ومرتعا لفساد امراته الخبيثة الثعلبة التي اغوته بشرب الخمرة حتى سكر ، وسقته المخدر حتى استغرق في النوم ، ثم القت به وهو نائم في قارب من خشب السنديان ، قارب ضيق جدا حتى ليماثل تابوت الميت ، وبعد ذلك تناولت بيديها المجاذيف المصنوعة من خشب الحور ، وجذفت به في عرض البحيرة حيث كانت الامواج تتلاحق هادئة باهتة ، تنتظر فعل تلك المرأة العاهرة ... وهنـــاك مالت عن القارب ، وهزته بعنف ، وقلبته دون من يشهد على ما تقترفه يداها ، فغرق

زوجها كالحجر عميقا في الماء ، بينما سبحت زوجته سريعــا حتى شاطــيء الغابة ، وهناك ارتمت على الارض تعول وتنوح بمرارة ، وتتظاهر بالحــزن على فقدانه ، هو الذي قتلته بكل تلك الوحشية .

« وسمعها اناس ، واشفقوا عليها ، وبكوا محنتها ونصيب الارملــة الذي حل بديارها ، وقالوا لها : « وااسفاه ! انت صبية بعد حتى تترملي ، وشقاؤك سيكون مريرا مضنيا ، ولكن يد الله تسير حياتنــا جميعا ، وهو الذي يأمر بموتنا او حياتنــا » . . .

« كان ابن زوجها اينوشكا الشخص الوحيد الــذي لم يصدق دمــوع خالته ، فراح يشتمها هامسا بصوت منخفض ، وقد وضع يده على قلبها : «ايه» انت يا امراة الخبث والمكر والدهاء ! يا طائر الليل الطافح احتيالا وخديعة ، لست اؤمن ، انا ، بدموعك هذه التي تسكبينها باسراف ، فالقلــب في صدرك ينبض بفرح عظيم . فلنتجه اذن نحو مقعد الدينونة السماوي ، نحــو الرب الاله ، وقوى السمــاء ، وليأخــذ احدنا سكينا مسنونة يلقي بها ، بقــوة وعزم ، في اتجاه السماء ، فان كنت انا ملوما فلاذبح بهــا ، وان كنت انت ملومة فلتذبحي بهــا » .

« فاستدارت اليه خالته ببطء ، وتفرست فيه بعينــين تلمعان حقــدا وكراهية ثم هبت واقفة باعتزاز وشموخ ، وردت عليه في لهجة انتقام وتشف: « يا لك من مجنون ، قد ولدت قبل ان يحين اوانك ! انت يا من قاعك بطــن الانسانية المفترسة ، ما هذا الكلام الذي تقول : والذي يسطره عليك خيالك المريض ؟ ما هذه الأكاذيب التي يثرثر بها لسانك وينشرها ؟! » .

« وسمع الناس الذين تجمهروا هناك كل تلك الاقــوال ، وادركوا أن وراء الاكمة ما وراءها ، فراحــوا ينطلعــون في صمت ، مثقلي القلــوب ، ويأتمرون بصوت خافت حول ذلك الحــادث الغريب ، ثم تقــدم منهم صياد عجوز وانحنى الى كل الجهات احتراما للبشر اصدقائه واقربائــه ، ومن ثم تفوه بهذه الكلمات المثقلة جميعا بالتعظيم والتكبــير : « آتونــي أيها الناس الطيبون بالشفرة الحادة .. وانظروا الي هنا ، امسك بها بكلتا يدي ، والى السماء اقذف بها ، وسوف تقتل ذلك الذي تصرف شرا !... » .

« وحملوا السكين الى الرجل الطاعن ، يلوح بالنصل فوق رأسه الكثيف

الشعر ، فاذا بها تنطلق في القبة الزرقاء الصافية كالعصفور الطائر ، وتختفي .. وانتظر القوم طويلا عودتها ، انتظروا وشخصوا الى المرتفعات البلورية ، رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وقد تزاحموا بعضهم فوق بعض ، ووقفوا هناك في صمت وسكون ... كذلك كان الليل ساكنا هادئا .. وما لبث احمرار الفجر المشرق ان سيطر على البحيرة ، وكذلك احمرت الخالة وهي تمد بصرها في الفضاء ما استطاعت ... ولكن السكين ، على حين غرة: انزلقت من العلاء في مثل سرعة السنونو واندفعت في قلبها عميقا .. عندئذ، سقط الناس الاتقياء على ركبهم جاثين يصلون الى الله في تواضع وانسحاق: « فليكن الرب مباركا من أجل عدالته ! » ... ثم اقترب الصياد من ايون ، واقتاده بعيدا الى أحد الاديرة ،بعيدا جدا على ضفاف نهر يدعى كيرجنت ، قرب مدينة كيتيج العظيمة .

. . .

استيقظت في الصباح وقد امتلأ جسدي بقعا حمراء صغيرة ... انه الجدري !..

نقلوني الى غرفة خلفية في الطابق العلوي ، حيث بقيت زمنا طويلا مستلقيا في سرير قيدوا لي ذراعاي وساقاي بعصابات عريضة ، عاميا عن كل ما يحيط بي ، احلاما مزعجة ، كاد يقضي علي في نهاية احدها . وكانت جدتي الشخص الوحيد الذي يزورني ، تطعمني بالملعقة فكأني طفل صغير ، وتقص علي خرافات واساطير لا تنتهي ... وذات مساء — بعد ان تحسنت حالي قليلا وسرت في طريق الابلال ، بحيث فكت اللفائف والرباطات عن ساقي وذراعي ، وان ظلت أكمام سترتي مربوطة بحيث تمنعني من حك وجهي بأصابعي — تأخرت جدتي عن زيارتي كما تفعل دوما ، فازعجني ذلك وانذرني بالويل والثبور ... وعلى حين بغتة ، خيل الي انني اراها مستلقية على ارض الغرفة المغبرة ، ووجهها الى التراب ، وقد تباعد ذراعاها ، وذبح عنقها من الوريد الى الوريد مثل عنق الخال بيوتر تماما بينما دلفت من بين الظلال المعتمة قطة كبيرة راحت تزحف في اتجاهها ، وعيناها الشرهتان الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريهما دون انقطاع .

قفزت من السرير ، وحطمت النافذة المزدوجة بقدومي وكتفي ، والقيت بنفسي على تلة من الثلج تحت النافذة ... كانت والدتي تستقبل بعض

الزوار ذلك المساء ، بحيث لم يسمع اي انسان صوت الزجاج وهو يتحطم . . . وبقيت فترة طويلة مضطجعا على الثلج دون ان يدري احد بي . سليم العظام . وان آلمني كتفي بشدة ، في حين جرحني الزجاج في مواضع عديدة من جسدي ، كما فقدت القدرة على استعمال ساقي ، وبقيت ثلاثة اشهر مضطجعا في غرفتي عاجزا عن الحركة ، اصغي الى الفوضى التي شملت حياة الدار . والى صوت صفق الابواب غير المنقطع ، ومجيء الناس ورواحهم الدائمين .

كانت عواصف الثلج تهب خارج المنزل عنيفة عاتية ، والريح تثور خلف باب الطابق العلوي وتسفر ، ثم تخترق المدخنة وهي تولول باكتئاب ، او تلطم مصاريع النوافذ وهي تزمجر بقسوة . كنت أرهف السمع في النهار الى نعيب الغربان ، أما في الليالي الساكنة فالى عواء الذئاب المرعب يصلنا من الحقول البعيدة ، ونفسي تنضج مع تلك الموسيقى المتوحشة وتنمو . . . ومن ثم هل الربيع ، خجولا هادئا ، يلح بالوصول يوما بعد يوم ، واطل من النافذة بعينيه المتألقتين الفرحتين ، فبدات القطط تموء على السور وتلعب ، واصوات هادئة حلوة تخترق الجدران وتبلغني : من قرقعة قطع الجليد ، ودحرجة الثلج عن الاسطحة ، الى رنين اجراس العربات التي كان طنينها يتخذ تلك الصلابة التي اعوزته في الشتاء . . .

ولم تنقطع جدتي عن زيارتي لحظة واحدة . . . أمست تشرب بكثرة في المدة الاخيرة ، تشتم من كلماتها رائحة الفودكا اكثر فأكثر . لا بل شرعت تحمل معها ابريقا كبيرا من الشاي ، ابيض اللون ، تخفيه تحت سريري محذرة اياي وهي تطرف بعينها :

— اياك ان تخبر جدك العفريت بهذا ، ايها العصفور الصغير !

— لم تشربين الخمرة ؟

— اصمت ! ستعرف ذلك عندما تكبر . . .

وعندها تأخذ جرعة من فم الابريق ، وتمسح فمها بكم قميصها ، تستدير نحوي وهي تبتسم بغبطة :

— حسنا ، ايها الصبي اللطيف ، عمن كنت أحدثك بالامس ؟

— عن والدي .

— وأين توقفت عن الحديث ؟

فأذا اخبرتها ، شرع الحديث الموزون يتدفق طوال ساعات عديدة . . .
كانت هي التي بداتني ، دون سؤال مني ، الحديث عن والدي ، ذات يوم كانت فيه منهوكة القوى ، رزينة ، تعيسة :

ــ لقد رايت اباك في حلم ليلة البارحة ــ كان يرسل من فمه صفير لطيفا . وهو يخب وسط الحقول ، حاملا في يده عصا من شجر الجوز ، يعدو وراءه كلب منقط الجسم تدلى لسانه الاحمر حتى بلغ الارض . . . . ام مكسيم سافاتيفيتش ما برح يزورني كثيرا في أحلامي في هذه الايام الاخيرة وانا اجهل سبب ذلك . . . يبدو ان روحه تهيم متألمة . .

ظلت طوال اسابيع متتالية تحدثني عن والدي فتروي لي عنه قصص تضاهي ، في اهميتها ، سائر قصصها الاخرى . كان والدي ابنا لاحد الجنو الذين رقوا الى رتبة ضابط بعد خدمة طويلة ، ولكنه نفي بعد ذلك الم سيبريا لتعسفه في معاملة مرؤوسيه . وهناك ، في بعض اصقاع سيبير المجهولة ، ولد والدي ، فعاش حياة شاقة عسيرة . . . وطفق ، وهو لما يز طفلا بعد ، يدبر المحاولة تلو المحاولة كي يدشر من المنزل . . . وقد اخذ والد ذات يوم ، كلبا من كلاب الصيد ، عدا يفتش عنه في الغابات فكأنه أرنب بري هارب . . . وقد ضربه ، مرة اخرى ، بعد ما عثر عليه ، ضربا مبرح حتى انتذه الجيران منه وخبأوه في دارهم . . . سألت :

ــ ايضربون الصغار دوما ؟

فاجابت بهدوء :

ــ اجل ، دوما !

توفت والدة ابي وهو طفل صغير بعد ، ولم يكد يتجاوز التاسعة حت لحق بها ابوه ايضا ، فتبناه عرابه الذي كان نجارا ، وضمه الى معمله ف مدينة « برم » وطفق يعلمه مهنة النجاره . ولكن والدي سرعان ما و الادبار هاربا . . اخذ ، في اول امره ، يقود العميان في الاسواق ، حتى ذ اخيرا الى نيجني نوفجورود ، عندما جاوز السادسة عشرة من العمر ، و يشتغل نجارا عند متعهد للمراكب يدعى كولشين . ولما بلغ العشرين ص مشهورا في صنع الغرف الخشبية وتنجيد المفروشات . . . وكان الدك الذي يعمل فيه يجاور منزل جدي في شارع كوفاليكا . . .

ضحكت جدتي ، وقالــت :

جسم نحيف ، وساقان رشيقتان .. وهكــذا فقد كنا ، ماريــا وانا ، نلتقط توت العليق في الحديقة .. وفجأة تطلعت الى السور ، يا لطيف ! هذا والدك يقفز من فوقه فبكاد ان يفقدني صوابي . وجاء يعــدو في اتجاهنا بين شجر التفاح ، ماردا فتيا يرتدي قميصا ابيض اللــون ، وسروالا مخططــا ، عاري القدمين والرأس ، يحزم شعره الطويل الى الخلف بقطعة من الجلد . وماذا تظنه جاء يفعل ؟ لقد جاء يطلب يد امك ! وكنت قد شاهدته عدة مرات من قبل يتجول تحت النافذة ، فأشرع افكر في نفسي كل مــرة أراه فيها : « ما اروعه هذا الفتى ؟ » . وهكذا قد اتجهت اليه ، عندمــا اتاني ، وقلــت : « لم اخطأت الصراط المستقيم ، يا قلبي ؟ » فيقول ، وقد ركع على ركبتيه : « اكولبنا ايفانوفنا ، هاانذا ، وها هي ذي روحي بكليتها ترتمي عند قدميك . وها هي ذي ماريا ، فساعدينا على الزواج ، حبا بيسوع ! » . حقا ، ان هذا ليس بالامر البسيط ! بهت ، ولم اعد استطيع للكلام سبيلا .

« تطلعت ، فرأيت امك الخبيثة مختفية وراء شجــرة تفاح ، محمــرة الوجه كالتوتة ، وهي تشير له بيديها ، وعيناها طافحتان بالدمــوع . قلت : الوجه كثمرة التوت، وهي تشير له بيديها، وما هذا الذي اخترعتماه ؟ هل فقدت شعورك ، يا فارفارا ؟ وانت ، انت ايها الشاب ، هــلا فكرت فيما تفعــل ؟ افلست تتطلع الى اكثر مما تستطيع ان تبلغ ؟ » . كان جدك عظيم الثراء في تلك الايام — ولم يكن قد قسم شيئا من التركة بين اولاده بعد — يملك أربعة منازل ، وما لا يحصى من المال ، واتباعه يحترمونه كل الاحتــرام بالاضافــة الى ذلك . وقد منحوه ،منذعهد قريــب ، بدلة وقبعــة مزخرفتــين بالقصب احتفالا بالعام التاسع لترأسه المعمل . آه ، ولكنــه كــان متعجرفا عظيــم الكبرياء في تلك الفترة ! وهكذا ، فقد قلت ما يجب ان اقول ، واوصالي ترتعش طوال الوقت خوفا وفرقا ، وقلبي يتمزق حسرة عليهما ، اذ كان اليأس باديا على محياهما ، يكاد ان يقتلهما . وعندئذ نهض والدك ، وقال : « انا اعرف من ان فاسيلي فاسيليفيتش لن يعطيني ماريا بمحض ارادته، ولذلك فلا بد لي من ان اخطفها اذن . وهنا نحن في امس الحاجــة الى مساعدتك » ... مساعدتي ، تصور ذلك ! طردته ، ورفعت يدي أهم بضربه ، ولكنه لم يتحرك قيد انملة . قال : « تستطيعين رجمي بالحجارة اذا شئت ، ولكن يجب ان تساعديني ! اني لن ارجع عن رايي ! » . وهنا تقدمــت فارفارا نحــوه ،

وربتت بيدها على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجين منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار . . . وكل ما نحتاج اليه هو الاكليل فقط » . . . وعندئذ تهالكت على الارض فكأني تلقيت منهما ضربة قاضية ! آه ، يا الهي ! . . .

واهتز جسد جدتي بالضحك . . . ثم تنشقت قبصة من السعوط . مسحت الدموع من عينيها ، وتابعت وهي تتنهد :

— ما زلت صغيرا بعد لتدرك بين العشرة البسيطة بين رجل وامراة ، وبين الزواج . انما فاعلم فقط انه أمر فظيع ان تلد الفتاة بدون زواج . يجب ان تتذكر ذلك عندما تشب فلا تلقى بالفتيات في مثل هذه المتاعب . تلك خطيئة عظيمة تسال عنها ، لانك ستجعل الفتاة تعيسة شقية ، والطفل دون اب شرعي . يجب الا تنسى ذلك ابدا ! يجب ان تشفق على تلك المراة ، وان تحبها بكل جوارح قلبك ، وليس لمجرد المتعة فقط . وهذا درس عظيم اعلمك اياه وعليك الا تنساه .

وغرقت في التامل لحظة قبل ان تتمالك نفسها ، وتتابع قصتها من جديد :

— اذن ، ماذا عليك ان تفعل في مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسيم على رأسه ، وجررت ماريا من جدائلها ، ولكن والدك قال لي عندئذ شيئا على جانب عظيم من الحس السليم : « ان الضرب لا يصلح المسالة ! » . واضافت امك : « يحسن ان تجدي لنا مخرجا من هذا المازق ، ثم تضربيننا » . وهنا قلت له : « الديك شيء من المال ؟ » . فاجاب : « لدي منه القليل ، ولكني ابتعت به خاتما لماريا » . فسالته : « ايساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فاجاب : « كلا ، بل مائة من الروبلات تقريبا » . . . وقد كانت الاشياء ، في تلك الايام رخيصة جدا ، والمال يكلف كثيرا . نظرت الى والدك ووالدتك وهما يقفان هناك امامي — انهما صبيان صغيران لا اكثر ! واحمقان ايضا ! قالت والدتك : « لقد اخفيت الخاتم تحت احد الواح الارض حتى لا يقع نظرك عليه . نستطيع ان نبيعه » . انهما لطفلان حقا ، اليس كذلك ؟ حسنا ، لقد قررنا ان يتم الزواج خلال اسبوع ، وكان علي ان اتفاهم مع الكاهن على ذلك . لكن اواه ، لكم بكيت آنذاك ، وارتعش قلبي واقشعر خوفا من جدك ، ولكنه كان يحب ماريا ويحنو عليها . . . حسنا ، لقد رتبنا اذن كل شيء . .

« غير انه كان هناك عدو لابيك — وهو رجل حقود شرير من رؤساء

العمال، ظل مدة طويلة يراقبهما فاستطاع ان يعرف عنهما كل شيء . حسنا، لقد البست ابنتي الوحيدة أجمل ما عندي من ثياب وأبهاها ، وخرجت بها من البوابة ... وهناك ، خلف أحد المنعطفات ، كانت ترويكا تنتظر ، فركبتها . وأرسل مكسيم صفيرا خافتا من بين شفتيه.. وها هما يمضيان ... عدت ادراجي الى الدار ، ودموعي تسح على خدي ... واذا ذلك الوغد اللئيم يقترب مني بمكر وخبث ، قائلا : « انني رجل طيب القلب ، ولست أريد تحطيم سعادتهما . انما سأسألك ان تعطيني خمسين روبلا فقط ، يا اكولينا ايفانوفنا ! » كنت لا املك شيئا ، فأنا أبغض المال ولا اوفر منه شيئا قط ، وهكذا فقد اجبته في حمق : « انني لا أملك مالا ، ولن أعطيك شيئا ! » . فأجاب : « اذن عدبني بأن تدفعي لي » . فصحت : « اعدك ؟ ومن أين اجيء بالمال ان وعدتك ؟ » . فأجاب : « أيعسر عليك ان تسرقيه من زوج ثري مملؤ به ؟ » . يا لي من بلهاء ! كان علي ان أجره الى نقاش طويل ، واحتال عليه ،ولكنني بدلا من ذلك بصقت في وجهه ، ومضت في سبيلي ، فتبعني حتى الساحة ، ويا للفضيحة التي اثارها !

واغلقت عيناها ، بينما ارتسمت على شفتها ابتسامة جوفاء :

— انني ، حتى هذا اليوم ، ارتجف فَرَقَهً كلما تذكرت ما تلا ذلك من لؤم وحماقة . لقد راح جدك يزمجر مثل وحش مفترس كاسر — تلك صفعة شديدة محزنة بالنسبة اليه . كان من عادته ان يشخص الى فارفارا ويتباهى بانه سيزوجها من نبيل ، من سيد عظيم . واليك النبيل — اليك السيد الذي اختارته ! ولكن مريم العذراء تعرف اكثر منا من هم الاشخاص الذين يلائمون بعضهم بعضا ... وراح جدك يعدو عبر الساحة وكأن النيران تلتهم جسده ، ينادي ياكوف ، وميخائيل ، والسائس كليم ، ورئيس العمال صاحب الوجه الذي يعج بالنمش، ورأيته يحمل هراوة ضخمةورباطا من الجلد، في حين تناول ميخائيل بندقيته ... كانت خيولنا قوية طويلة النفس ، اما عربتنا فكانت خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من دون ريب ! » .

« ولكن ملاك فارفارا الحارس الهمني في الوقت نفسه ، فتناولت سكينا وقطعت بها الحبل عند العريش ، وفي اعتقادي انه سينقطع في الطريق. وهكذا كان ... فقد انهارت مقاومة الحبل ، وكاد يقضي على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا الى الوقوف بعض الوقت ، كي يصلحوا الحال ، حتى

اذا بلغوا الكنيسة اخيرا كانت فاريا ومكسيم واقفين امام بابها ، وقد تم زواجهما ... شكرا للـــه !

« حسنا ، عندئذ رمى رجالنا بانفسهم على مكسيم ، ولكنه كان شجاعا متين البنية ، وقليلون هم الذين يتمتعون بالقوة التي كان يتمتع بها مكسيم . . وهكذا فقد طوح بميخائيل والقى به أرضا مرضوض الـذراع ، واتبعه بكليم سريعا ، بحيث ارتجف جدك وياكوف ورئيس العمـال ، ولـم يجسروا على الاقتراب منه ... ولم يفقد مكسيم زمام أعصابه ، بالرغم من غضبه الشديد . . وهكذا ، فقد توجه الى جدك قائلا : « ارم هذه الهراوة هناك ! فأنا فتى محب للسلام ، وماأخذته صار لي بنعمة من الله ، وليس لاي انسان الحق في ان يسترده مني . وهذا هو كل ماأسألكم ايـاه ! »

« وعاد رجالنا ادراجهم ... جلس جدك علـى العريش ، وصـاح . « وداعا ، يا فارفارا ! فانت لست ابنتى بعد الان ، ولست ارغب في رؤيتك مرة اخرى ، وسواء عندي ان اراك حية او ميتة من الجوع! » ورجع الى الدار حيث انهال علي سبابا وضربا ، ولكنني لذت بالصمت ولم اتفوه بكلمة البتة .

« كنت أعرف ان ذلك سيمر سريعا ، وان ما يجب ان يكون سيكون . قال لي : « انظري يا اكولينا ، اياك ان تنسى ان ابنتك قد ذهبت الى الابد — وهكذا لم يعد لك ابنة على الاطلاق ، لا هنا ولا في اي مكان اخر ، اتفهمين؟ » . أما انا فكنت افكر في نفسي دونما انقطاع : « استمر في الكذب والهراء ، ايها الاحمر الراس ! لا بأس عليك ! ان غضبك الان يغلي ، ولكن ذلك لن يطول ... فالغضب كالجليد ، لا تمسه الشمس الا ويذوب !.. »

كنت استمع اليها ضيق الانفاس .. كـان ، في قصتهـا امور عديـدة تدهشـني — فقد روى لي جدي زواج امـي بصورة تختلف كـل الاختلاف عن رواية جدتي له .. لقد عارض في الزواج حقا حسب ادعائه ، ولم يسمح لامي ان تدخل منزله بعد ذلك ، ولكن الزواج — كما يقول — لم يكـن سريا ابدا ، بل كان هو نفسه حاضرا فيه . وترددت في الاستفسار من جدتي عن الحقيقة لانني فضلت ان استمع الى روايتها التي كانت اكثر خيالا وبهجة ...

وراحت تتارجح الى الامام والخلف في مقعدها ، وهي تتكلم ، وتبالغ في حركاتها كلما بلغت مقطعا مؤلما او مخيفا من قصتها ، وترفع احدى ذراعيها

فكانها تتقي صفعة من يد خفية . وكثيرا ما كانت تغلق عينها فيرتجف حاجباها الغليظان ، بينما تلعب ابتسامة دافئة فوق غضون وجنتيها . وكنت أحيانا ، اتاثر من تلك الطريقة العمياء التي تسامح بها كل شيء ، ولكنني كنت اتوق ، في احيان اخرى ، الى ان استمع اليها تصيح بكلمات احتجاج بذيئة قاسية .

ــ حسنا ، لقد بقيت طوال اسبوعين او اكثر اجهل كل شيء عن مكان فاريا ومكسيم ، ومن ثم ارسلا الي طفلا يخبرني عنه ... وفي يوم السبت التالي خرجت من الدار وكأنني في طريقي الى الكنيسة لحضور صلاة الغروب ، ولكنني لم امض اليها ، بل اسرعت اليهما ... كانا يعيشان بعيدا جدا في جناح صغير في أحد منازل ناحية سيوتيسكي . وكان يعيش في باحة الدار عدد كبير من العمال ... كانت الدار قذرة ، لا تنقطع الضوضاء فيها ابدا ، ولكنهما لم يأبها لذلك ، بل كانا يلعبان ويمرحان مثل قطتين سعيدتين : وقد حملت اليهما بعض الهدايا ــ شيئا من الشاي ، والسكر ، والقمح ، والمربى ، والطحين ، والفواكه المجففة ، وقليلا من المال ايضا ــ ولست اذكر مقداره ــ كل ما استطعت أن اسرق من جدك ــ ولا جنحة في السرقة ان كانت في سبيل الغير ! ولكن والدك رفض ان يأخذه ، بل قال متأثرا : « وهل نحن شحاذان ؟ » . بينما راحت فاريا تضرب على الوترة نفسها : « لماذا حملت كل هذه الاشياء ، يا اماه ؟ » . اعطيتهما كل ذلك ، وقلت موبخة حانقة : « انني أم ارسلها الله اليك ، ايها الغبي ! اما انت ، ايتها المجنونة الصغيرة ، فانني أمك الحقيقية ، اين كتب ان المرء يستطيع اهانة أمه ؟ فاذا ما اهان أمه مرة ههنا ، على الارض ، جعل العذراء تبكي هناك في السماء ... » . وعندئذ حملني مكسيم بين ذراعيه وشرع يدور بي في الغرفة ــ حتى راح يقفز بي ويركض ــ فقد كان كالدب قوة ! وراحت فاريا تتبختر في الغرفة منتفخة كالطاووس معجبة بزوجها مزهوة بقوته ... وطفقت تتحدث في اعتزاز عن « بيتهما » ، وكأنها مربية عجوز . لقد كدت انفجر ضحكا ! اما الفطائر التي قدمتها مع الشاي ؟ ان ذئبا يحطم اسنانه دون ان يستطيع قضمها ... والجبن البيتي ؟ انه اشبه بالحصى ...

« وهكذا سارت الامور زمنا طويلا ... وكنت انت على وشك ان تطل على الوجود ، ومع ذلك فجدك ما يزال بالصمت معتصما ــ انه مخلوق شرس ، ذلك المارد العجوز ! ولم انقطع عن زيارتهما ، الامر الذي لم يخف عنه ، وان كان يتظاهر بانه لم يلحظ شيئا ... وكان اسم فاريا ممنوعا في

الدار ، فلم يأت أحد قط على ذكرها ، حتى ولا انا أيضا ... ولكنني كنت اعرف تماما ان قلب الاب لن يظل قاسيا .. وسرعان ما جاء الوقت المناسب ... كان ذلك في امسية عاصفة ، والريح تجلد النوافذ بوحشية وهي تعوي مثل قطيع من الذئاب ، والمدخنة تتأجج ، وجميع شياطين الجحيم قد افلتت من محابسها ، وقد اضطجعت وجدك جنبا الى جنب لا نستطيع الى النوم سبيلا ... نهضت ، على حين غرة ، وقلت له : « ما اتعس الفقراء في مثل هذه الليالي ! لكن اولئك الذين تثقل الخطيئة وجدانهم لاكثر تعاسة ايضا ! » . فقال جدك على غير انتظار : « كيف حالهما ؟ » . فقلت : لا بأس بها ، ليست سيئة ابدا ! » . فسأل : « عمن تظنني اسأل ؟ » . قلت : « عن ابنتنا فارفارا ، وصهرنا مكسيم ! » . فصاح : « وكيف خمنت ذلك ؟ » . قلت : « كف عن هذه المهزلة ، يا أبتاه ! لقد حان ان نترك هذه اللعبة — فهي لا تسعد احدا !» فصعد زفرة طويلة ، وقال : « آه ، انتم ايها الشياطين ! أيتها الشياطين الحمراء النارية ! » . ثم سأل : « وماذا عن ذلك المجنون الغشيم ؟ » — يعني والدك — « لقد اقترنت بأحمق ، اليس كذلك ؟ » . قلت : « احمق ! ان الاحمق هو ذلك الذي لا يشتغل ، بل الذي يعيش على نفقة الاخرين ! هلا القيت نظرة على ولديك ياكوف وميخائيل — لو فعلت رأيت انهما وحدهما الاحمقان المجنونان ! من ذا الذي يعمل ويكسب المال لهذه الدار ؟ انت ! وهما ؛ اتظن انهما يساعدانك حقا ؟ » . وهنا شرع يكيل الشتائم لي ، ووصفني بالحمقاء ، والبهيمة ، والكلبة ، والشمطاء ، والمخرفة ، والله وحده يدري ماذا ايضا . ولكنني لم انبس ببنت شفة ابدا ، حتى قال اخيرا : « كيف خدعت برجل شاب لا يعرفه احد ، لا يدري انسان من أين جاء ؟ » . ولكنني اعتصمت بالصمت حتى تعب من الحديث ، وعندئذ قلت « يحسن ان تذهب وترى بنفسك كيف يعيشان ، فان حياتهما لحلوة بديعة ! » . فقال : « ذلك شرف لا يستحقانه . فليأتيا هما الى هنا ! » . حسنا ، لقد رحت ابكي فرحا عندما قال ذلك ، بينما طفق هو يحل جدائل شعري — وكان يحب ان يلهو به على الدوام — وهو يتمتم : « حسنا ، كفاك بكاء ، أيتها البلهاء العجوز ! اتظنين انني بدون قلب ؟ » ... كانت روحه طيبة ، جدك هذا ، قبل ان يملك عليه مشاعره الظن بانه اذكى من الجميع واحصف — لقد أصبح منذ ذلك الحين غبيا ابله ..

« وهكذا قدما لزيارتنا — امك وابوك — في يوم الفصح ، احد التسامح

العظيم .. كانا كبيرين جدا ، نظيفين ، جميلين ! ووقف مكسيم قبالة جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال مكسيم : « لا تظن يا فاسيلي فاسيليفيتش ، اني جئت لاطالبك بالمهر . كلا ، ابدا ! بل جئت لاقدم احتراماتي الخالصة لوالد زوجتي فقط » . فسر جدك لذلك ، وضحك ، وقال : آه ، ايها الوغد الكبير ! حسنا ، كفانا هراء ! لقد حان الوقت لتعيشا في دارنا » . فقطب مكسيم حاجبيه ، وقال : « ان ذلك يتعلق بفاريا ، وسأفعل ما ترغب هي فيه ، انه سواء عندي » . . . وعندئذ شرعا في الجدال ثانية ـ ولم تكن هناك اية قوة تستطيع ان تمنعهما عن ذلك . . رحت اشير لوالدك هذا بطرف عيني ، واضرب على قدمه من تحت الطاولة ، ولكنه لم يكف عن النقاش لحظة واحدة ! كانت له عينان ساحرتان ، صافيتان ، مشعتان ، وحاجبان اسودان فوقهما . احيانا يعقد حاجبيه فوق عينيه ، فترى على وجهه تعبيرا قاسيا ، كالصخر ، وفي مثل هذه الاحوال لم يكن يعير اذنا صاغية لاحد غيري . كنت احبه كثيرا ، احبه اكثر من اولادي ، وهو يعرف ذلك ، فيرد الى العاطفة نفسها . وقد اعتاد ان يحتضنني ، او يحملني بين ذراعيه ، ويدور بي في الغرفة قائلا : « انت الام الوحيدة التي لي ، مثل امنا الارض . وانا احبك اكثر مما احب فاريا ! » . وكانت امك في ماضي الزمان الغابر ، شيطانة خبيثة ، صغيرة جميلة ، وكانت ترتمي عليه وتصيح : « كيف تتجاسر وتقول هذا ، يا . . . يا صاحب الاذنين الشبيهتين بالملفوف ؟ » . ثم نركض ثلاثتنا بعضنا في اثر البعض ، في ارجاء الغرفة . . ونمضي وقتا طيبا جميلا ! . . كانت تلك اياما سعيدة ، يا صغيري ! وكان يرقص كما لا يستطيع انسان ان يرقص ويجيد عددا من الاغاني الحلوة التي تعلمها من العميان الذين يستعطون .

« اجل ، لقد انتقلا الى الشقة المطلة على الحديقة الكبيرة ، وهناك ولدت انت ـ عند الظهيرة . . . لقد رجع والدك ليتناول غداءه ، واذ انت هنا في هذا العالم ! لقد كاد يجن سعادة وهناء ! اما والدتك ـ فقد كاد ان يقتلها بمداعباته فكأن مجيء طفل الى العالم اصعب ما في الوجود على الاطلاق . ولقد حملني على كتفيه ، ومضى بي عبر الساحة لانبيء جدك بولادة حفيد آخر له . . . وقد غرق جدك في الضحك . »

« واسفض خالك مكسيم كثيرا ـ كان لا يقرب الخمرة ابدا ، حاد اللسان ذكيا ، ماهرا في استنباط جميع انواع الحيل والالاعيب ، تلك الحيل التي كلفته غاليا فيما بعد ! وذات مرة ، خلال فترة الصوم الكبير ، هبت

ريح صرصر عاصفة ، وانطلق فجأة صفير رهيب ونباح شديد في المنزل ، حتى ذعر الجميع وفقدوا صوابهم ... واسرع جدك يعدو في الدار مهرولا يحاول اضاءة مصابيح الايقونات ، ثم جثا يصلي .. وفجأة ، سكن كل شيء ، الامر الذي كان اكثر رهبة وهولا ... وقد خمن خالك ياكوف الحقيقة ، فقال : « هذا من صنع مكسيم ! » . وكانت تلك الحقيقة بعينها ، فقد اخبرنا مكسيم فيما بعد كيف صف مجموعة من زجاجات مختلفة الانواع والاحجام على نافذة الطابق العلوي ، بحيث راحت الريح تصرصر في داخلها . وهدده جدك قائلا : يحسن ان تاخذ حذرك ، يا مكسيم ! والا رجعت الى سيبيريا اذا لم تكف عن الاعيبك هذه . »

« وهجم علينا شتاء بارد قارس ، اتت معه الينا الذئاب من السهول المجاورة ! فهذا كلب يفقد اليوم ، وهذا حصان يعدو خائفا مذعورا ، وهذا حارس ثمل في يوم ثان قد نالته الذئاب بالعض حتى أشرف على الهلاك . وكان أبوك يتناول بندقيته ، ويملأها خرطوشا ، ثم يخرج في ظلمة الليل كي يعود بذئب أو ذئبين ، فيسلخهما ، ويضع زجاجا في محاجرهما حتى ليخال لك انهما ذئبان حقيقيان ... وفي ذات ليلة ، خرج خالك ميخائيل الى الشرفة اقضاء حاجة ما ، فاذا به يعود ادراجه عدوا على حين غفلة ، وقد جحظت عيناه ، ووقف شعر راسه ، وتدلى لسانه حتى اصبح عاجزا عن اصدار اي صوت . كان سرواله الذي فكت ازراره متدليا فوق قدميه وهو يتعثر به ويغمغم : « الذئب ، الذئب ! »

« وهرول كل من الحاضرين يتناول اي سلاح يقع تحت يده ، وخرجوا مسرعين الى الرواق ، كان هناك ذئب يمد راسه من تحت درجات السلم . انهالوا عليه ضربا واطلقوا النار ، ولكنه ظل ثابتا في مكانه لا يتحرك ... وتقدموا منه كي يجدوا انه حيوان فارغ بستره جلد ذئب قد صنعت اطرافه في درجات السلم . وقد ثار جدك عندئذ ولم يعد يعي ما يقول . وسرعان ما طفق ياكوف يشارك اباك حيله ، فكان مكسيم يقص صورة رأس من الورق المقوى ويرسم فيها عينين وأنفا وفما ويلصق بها بعض خيوط الكتان بدلا من الشعر . ومن ثم كان يذهب وياكوف عبر الشارع بلوح بلعبته امام نوافذ المنازل المجاورة . وكان الجيران يذعرون وتعلو اصواتهم بالصياح والعويل ...

« وفي احيان اخرى ، كانا يلتفان بالشراشف البيض ويتنزهان في الساحة الكبيرة .

« وفي يوم من الايام القينا الرعب في قلب الكاهـــن الذي هـــرول الى الحارس يطلب النجدة منه ، غير أن الحارس ذعر بدوره ، ولم يعد يعي كيف يصفر بصفارته الضخمة طالبا النجدة . وهكذا كانا لا ينقطعان عن الاعيبهما هذه قط ، دون ان ينفع فيهما نصح ولا تأنيب . وقد اشرت عليهما مرارا ان يكفا عن هذا السلوك ، وكذلك فعلت فاريا ، ولكنهما لم يعيرا اقوالنا اذنـــا صاغيه . . . كان مكسيم يسخر بنا ويقول : « انه لمن المضحك جدا ان يتطلع المرء الى الناس وقد فقدوا صوابهم وولوا الادبـــاء راكضـــين لسبب تافـــه سخيف ! » ولم يكن هناك من سبيل الى تبديل رأيه وجعله يكف عن صبيانيات كهـــذه . . .

« ولكن سوء سلوكه هذا كاد ان يقضي عليه . لقد كان الخال ميخائيل وضيع النفس حقيرا حقودا مثل أبيـــه تماما . . . وهكـــذا جعل جل عملـــه الخلاص من ابيـــك . .

« وفي يوم من ايام الشتاء ، في اوائله بالضبط ، بينما كانوا راجعين من بعض الزيارات ــ وكانوا أربعة : مكسيم وخاليك ، والشماس الذي خسر وظيفته فيما بعد لانه ضرب سائق احـــدى العربات حتى الموت ــ وفيمـــا يهبطون شارع يامسكايا ، اقنعوا والدك بمرافقتهم الى بحيرة دوكوف مدعين انهم يريدون ان يتزحلقوا هناك ، ولكنهم عندما بلغوا البحـــرة القوا به من خلال حفرة في الجليد ــ اعتقد اني قصصت عليك ذلك فيما مضى ! . . »

ــ ما الذي يجعل خالي شريرين هكذا ؟

فاجابت جدتي وهي تتناول شمة من السعوط ، وفي صوتها بحة :

ــ انهما ليسا بشريرين ، بل هما ابلهان . . ان ميشكا خبيـــث ولكنه احمق في نفس الوقت ، اما ياكوف فلا يزيد عن كونه انسانا بسيطا ابله ، بكل ما في الكلمة من معنى . . . حسنا ، لقد دفعا به الى الحفرة ، ولكنه عندمـــا طفا على سطح الماء من جديد ، وتعلق بحافة الجليد ، اخـــذا يدوسان على اصابعه بأحذيتهما ، ومن حسن الحظ انه كان صاحيا وهما ثملان . . فدبر الامر بطريقة ما ، كي يبقى في وسط الحفرة ، لا يظهـــر راسه الا لتنفس ، وهما يرميانه بالجليد دون ان يصيباه ، حتى تركاه اخرا وابتعدا ، وهمـــا يخالان انه سيغرق من دون مساعدتهما ، بيد انه نجح في الخروج من الماء ، وركض مباشرة الى مركز الشرطة الذي يقوم في الزاويـــة ، كما تعلم . . .

وكان رئيس الشرطة يعرفه كما يعرف سائر افراد العائلة ، فسأله عما حل به ..

ورسمت جدتي اشارة الصليب على وجهها ، وهمست بامتنان وشكر :

فليهب الله السلام لروحه ... ارح يا رب نفس مكسيم سافاتيفيتش مع قديسيك فهو يستاهل ذلك ! انه لم يخبر الشرطة بشيء مما حدث ، قال: « ان الذنب ذنبي ، فقد ذهبت ثملا الى البحيرة وسقطت من خلال الحفرة ». ولكن رئيس المركز لم يصدقه لانه ، باعتقاده ، كمايعلم ، لا يسكر ابدا ... وفركوا جسمه بالفودكا ، في المخفر ، والبسوه ثيابا جافة ، ودثروه بمعطف من الفرو وجاؤوا به الى الدار ، رئيس المركز وشرطيان اخران . ولم يكن ياكوف وميخائيل قد رجعا الى الدار بعد ، كانا يتنقلان من حانة الى حانة طوال الوقت ... ولم نتمكن ، امك وانا ، ان نعرف مكسيم الا بصعوبة ..

« كان ازرق اللون ، محطم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد ظهر على فوديه شيء يشبه الثلج وان لم يذب فيما بعد . كان شعره قد شاب وامسى ابيض اللون ... وشرعت فارفارا تصيح :

« ـــ ما الذي فعلاه بك ، يا مكسيم ؟ ..

« واخذ رئيس المركز بطرح عليه الاسئلة دون انقطاع ، فاحس في صميم قلبي ان الامور لا تسير على ما يرام . وتركت امر رئيس المخفر لفارفارا ، بينما رحت احاول ان استخلص الحقيقة من مكسيم ، الذي همس : « اذهبي وابحثي عن ميخائيل وياكوف واخبريهما ان يقولا اننا خرجنا معا من شارع بامسكايا ، فذهبا هما من طريق بوكرونكا ، بينما سلكت انا درب بريادبلني واخبريهما بحذر من ان يجعلا الامر يلتبس علبهما ، والا وقعنا في متاعب مع رجال الشرطة » .

« فذهبت الى جدك ، وجعلته يهتم برئيس المركز بينما انتظر انا عند البوابة » . ورويت له الحادث كما وقع تماما ... ارتدى ثيابه ، وهو يرتجف رعبا ، ويغمغم : « كنت اعرف ان مثل هذا الامر سيحدث » . ولكنها كذبة ظاهرة ، فهو لم يكن يدري شيئا .

« اما ياكوف فكان شديد السكر ، وقد سرع يتمتم : « انني لا اعرف شيئا . انه ميشكا الذي يكبرني سنا ! انا لا اعرف شيئا » . واستطعنا

اخيرا ان نهدىء من نائرة رئيس المركز الذي كان رجلا شجاعا في الحقيقة ، توجه الينا محذرا وهو يغادرنا : « احذروا جيدا ، فان حدث شيء ما فانـــي اعرف على من سأضع اللوم بعد الان ! »

« وعندئذ اتجه جدك الى مكسيم ، وقال له : « شكرا لك ، يا بني . أي انسان اخر يتصرف بطريقة اخرى . اني اعرف ذلك حق المعرفة . وشكرا لك ، يا بنيتي ، لانك جئت مع هذا الرجل الى داري ! » .

« ان جدك يستطيع عندما يشاء ان يقول اشياء حلوة كهذه — وهو لم يعد أحمق ولم يغلق قلبه الا مؤخرا فقط . وعندما انفردنا نحن الثلاثة شرع مكسيم ينتحب ، بل بهذي فيما يبدو قائـــلا :

« — كيف يصنعان بي مثل هذه الامور ؟ . . ماذا فعلـــت لهما ؟ لماذا يفعلان ذلك ، يا امـــاه ؟

« فكأنه طفل صغير ، والحقيقة ان بعضا مـــن ذكرياته وطفولته كـــان متأصلا في طبيعتـــه . . .

« وعاد يسأل : « لماذا ؟ » وكان كل ما استطعت ان افعله هوالجلوس الى جانبه والعويل معه . . . لقد كانا ولدي بالرغم من كل شيء ، فلا اتمكن الا ان ارثي لهما . . اما امك فقد انتزعت كـــل الازرار من قميصهـــا وجلست هناك مشعثة الشعر ، فكأنها قد خرجت من قتال حامـــي الوطيس ، تلطـــم خديها وراحت تصيح : « فلنذهب ، يا مكسيم ! ان اخوي عدوان لنا ، وانـــا اخاف منهما ، فلنهرب ! » . ولم احتمل منها مثل هذه الاقوال . قلت : « لا ترمي زيتا على النار ! يكفي ما يملأ الدار من الدخان ! » . وهنا ارسل جدك هذين المجنونين كي يطلبا الصفح والغفران ، ولكنها لطمت ميشكا على وجهه، وقالت : « اليك الغفران الذي تستحقـــه ! » . اما أبوك فلـــم يفتأ يسأل : « كيف يمكن ان ترتكبا مثل هذا العمل ؟ كان يمكن انتقعداني عن العمل دوما! وماذا استطيع ان افعل دون اصابعي ؟ » . . . واخيرا تم الصلح بطريقة ما، وظل ابوك بعد ذلك طوال سبعة أسابيع تقريبا مريضا ملتزما الفراش ، يردد دون انقطاع وهو قابع في فراشه : « فلنذهـــب الى مدينـــة اخرى ، يا ماما ! اني أكاد أن أختنق ههنا ! » . وسرعان ما ارسل بعد ذلك الى استراخان حيث طلب الى أبيك ان يبني قوس النصر . وأبحر على ظهر أول مركب بخاري مر بنا في الربيع . وكان الفراق محزنا جدا بالنسبة الي ، مثل فراق الروح ،

وكذلك كان أبوك كئيبا يحاول ان يقنعني بمرافقتهما دون جدوى ... امـــا غارفارا فكانت سعادتها تتجاوز كل حدود وهي لا تحاول اخفاءها ابدا ... يا لها من امرأة قليلة الحياء ... وهكذا كان .. » .

وارتشفت جرعة من الفودكا انبعتها بقليل مـــن السعوط ، ثم قالت وهي تشخص من النافذة الى الفضاء الواسع :

ـــ بلى ! لم نكن ، والدك وأنا ، قريبين بالدم .. ولكن قرابـــة الروح كانت تجمعنا بل كانت متأصلة فينا منذ نعومة الاظفار ...

وكان جدي يدخل الى الغرفة، على غير انتظار غالب الاحيان، ويفاجئها اثناء الحديث ، فلا يلبث ان يرفع وجهه ويستنشق الهواء ، ويرنو بريبة الى جدتي ، ويصغي لحظة ويتمتم :

ـــ اكذبي ، اكذبي !...

وكان يسألني ، أحيانا ، فجأة :

ـــ لقد كانت تحتسي الخمرة هنا ، يا الكسي ؟

ـــ كـــلا !

ـــ انت تكذب ! اني ارى ذلك من عينيك !

ويغادر الغرفة مشككا مرتابا ... فتغمز جدتي بنظـــرة حادة قامتـــه المبتعدة ، وتردد بهمس :

ـــ امض مع السلامة ، ولا تخفنـــا !

وفي ذات يوم ، انتصب في وسط الغرفة ، وقد ثبت عينيه في الارض ، وقال بتؤدة وتردد :

ـــ مامـــا !...

ـــ مـــاذا ؟

ـــ اتعرفين كيف تسير الامـــور ؟

ـــ اجل أعـــرف .

ـــ وماذا تظنــين ؟

ـــ انه القضاء ، يا أبناه ! الا تذكر ما اعتدت ان تقول عن ذلك الانسـان الكامل الرائع ؟

ـــ اه . . ه . . آه !

ـــ حسنا ، يبدو انك على حق .

ـــ ولكنه صعلوك .

ـــ ذلك يعنيها وحدها .

ويخرج جدي ، فسألت وقد أحسست بمصيبة عاتية :

ـــ عم تتكلمـــان ؟

فتأففت وراحت تهز برأسها ثم قالت :

ـــ انك تريد ان تعرف كل شيء ، اليس كذلك ؟ فاذا احطت بكل شيء انت صغير ، ماذا يبقى كي تعرفه عندما تكبر ؟

ضحكت . . وهزت رأسها . . .

ـــ آه ، ايها الجد ، أيها الجد ! انما أنت ذرة من الغبار تافهة ! لا تقل شيئا ما يا الكسي ! ولكن الحقيقة ان جدك قد فقد كل شيء ـــ حتى اخر فلس يملكه . لقد استدان منه احد النبلاء مبلغا كبيرا من المال يزيد على الالاف ، ثم غدر الدهر بذلك النبيل فافلس . . .

وغرقت في تفكير عميق ، معتصمة بالصمت مدة طويلة ، بينمـا علت كآبة قاتمة الابتسامة المشرقة المرتسمة على وجهها . . . سألتها :

ـــ فيم تهدسين ؟

فأجابت ، وهي تشد راحتيها :

ـــ أفكر فيما أقص عليك . حسنا ، ما رأيـك في قصة يفزتيجنيـا ؟ هـاك هـي :

« في ذلك الزمان كان يعيش بفزتيجنيا الشماس ، وكان يعتقد انه أكثر اشعاعا من منارة البحر ، واكثر توقد فكر حتى من الكاهن او القيصر واشد ادراكا .. وأما من ناحية التجار — فلاتسل عن تجاوزه لهم في الذكاء وقوة الاراده ... كان يتمخطر كالطاووس ، وعيناه جاحظتان مثل بوم عجوز ... وكان يعلم الجيران ، من الصباح الباكر حتى حلول الظلام .. ولا يجد شيئا في الوجود صالحا ابدا !

— اذا تطلع الى برج ما ... فهو كثير الانخفاض !

واذا ركب عربة ... فهي شديدة الابطاء !

واذا أكل تفاحة ... فهي فجة غير لذيذة !

واذا جلست في اشعة الشمس .. فهي كثيرة الحرارة !..

واتسعت عينا جدتي في محجريهما . وانتفخ خداهـا . فاتخذ وجههـا اللطيف طلعة من الغباء مضحكة ، بينما راحت تتشدق قائلة :

— ... وهو يقول دوما : « كنت أستطيع ان اصنع هذا . لو أردت. بطريقة افضل بما لا يقاس ... ولكني ، كما تعلمون ، لا أستطيع ان أضيع وقتي جدا بدون فائدة . » ..

وتوقفت لحظة عن الكلام ، ثم استطردت في صوت منخفض :

— وذات ليلة زارته بعض الشياطين ، فتقول لـه : « انت تـرى ان الاشياء هنا كلها فاسدة ! فما رأيك لو اضفتنا في الجحيم — فالنـيران هناك تحترق بلهيب غريب ! » . ولم يكد الشماس يلبس طاقيته حتى ركبه اثنان من الشياطين ، بينما امسك به اخرون بمخالبهم ، وراحوا يقرصونه ويدغدغونه بأظافرهم ، ويدفعون به في اللهب المتأجج قائلين : « حسنا ، يا بفزتيجنيا ، انت مسرور من المجيء الينا ؟.... » . وشرع يدور عينيـه وهو يحتـرق. أمارات الحكمة ظلت بادية على وجهه ، بينما انقلبت شفته بازدراء ، وهـو يقول : « ان نيران جهنم تثير كثيرا من الدخان ! » ...

وختمت قصتها بشهقة طويلة ، ثم ضحكـت ، واستدارت نحوي وقد تبدلت تعابير محياها :

— انه لم يسلم ذلك الاخرق ، فقد كانت له صفات غير طبيعيه ، مثله مثل جدك تماما ! اجل ! . لقد حان وقت النوم الان . . .

ونادرا ما كانت تأتي أمي لرؤيتي في الطابق العلوي ، فاذا فعلت فلكي تتفوه ببعض كلمات مضطربه متلاحقة ، ثم تعجل بالرحيل دون تأخير . . . كانت تزداد بهاء وتزيد من عنايتها بلباسها . . . وكنت أجدها محاطه بالغموض مثل جدتي تماما . هذا الغموض الذي كنت احذره واشعر به . . . وتناقص اهتمامي بالاقاصيص التي تسردها علي جدتي — لا بل ان الاقاصيص عن والدي أيضا لم تستطع ان تشتت ذلك الذعر المبهم الذي طفق ينمو كل يوم في تفكيري ويزداد شدة . سألت جدتي :

— ما الذي يقلق روح والدي ويزعجها ؟

فأجابت ، وقد رفعت يدها على عينيها :

كيف لي ان أعرف ؟ هذا من شأن الله ، وليس لنا ان نفهمه نحن الذين على هذه الفانية !..

وفي الليالي التي كنت أحسها طويلة ، حين اضطجع عاجزا عن الرقاد ، أروح أراقب تقدم موكب النجوم البطيء في السماء الزرقاء الضاربة الى السواد ، كنت ابتكر قصصا كئيبة اجعل من والدي بطلا لها . . . وكان والدي فيها وحيدا على الدوام ، يحمل هراوة في يده ، بينما يتراكض في اثره كلب صغير ذو وبر طويل مشعث .

١٢

أفقت ذات مساء بعد غفـوة قصيرة فشعـرت ان ساقـي قد افاقتـا بدورهمـا ... القيت بهما عن حافة السرير ، فاذا هما تعودان الى خدرهمـا وجمودهما مرة اخرى . ولكن الثقة بان ساقى سالمتان وانني سأستطيـع السير عليهما من جديد ، قد ولدت في نفسي قوة غير عادية حتى لفنـي فرح شديد ودفعني الى النداء عاليا .. .وضعت قدمـي على الارض وشددت عليهما بكل قوتى ، ولكنني تعثرت وسقطت ، فرحت اجر نفسي جرا حتى بلغت الباب ، ومن هناك هبطت السلم زحفا ، وانا أتصور المفاجأة التي ستعرو الجميع حين يبصرون بي ...

ولست اعرف كيف وجدت نفسي في حجر جدتي في غرفة والدتي ، ولكننى كنت هناك وقد أحاط بي اناس غرباء في عدادهم امراة مسنة ، نحيلـة القوام ، مخضرة اللون .. قالت هذه المراة بصوت مهيب ، اغـرق في لجته سائـر الاصوات الاخرى :

ـــ اعطيه شيئا من مربى التوت في الشاي ، ولفيه جيدا بالاحرمة ، من راسه حتى اخمص قدميه ...

كان كل شيء فيها أخضر اللون ـــ ثوبها ، وقبعتها ، ووجهها ، وتلـك الدملة النامية تحت عينها اليسرى ، لا بل أن الشعيرات القليلة التـي نتبت منها كانت تشبه العشب الاخضـر كل الشبه ... أرخـت شفتها السفلى ، ورفعت الشفة العليا ، وشخصت الي ولاح لي ان اسنانها خضراء ايضا ، وقد ظلت عينيها بيد اختفت في قفاز أسود ، فسألت متلجلجا مرتبكاً :

ـــ من هي هذه الخضرة ؟

فأجاب جدي في صوت مقيت :

ـــ سوف تكون جدة اخرى لك !

ضحكت امي ، ودفعت يفجيني مكسيموف الى جانبي وهي تقول :

ـــ وهذا أب لــــك !

واضافت بضع كلمات سريعة غامضة ، بينما ضيق مكسيموف عينيه ، وانحنى ليقـــول :

ـــ سأهديك شيئا من الدهان للرسم .

كان النور قويا في الغرفة ، وعلى طاولة تقوم في احدى الزوايا ينتصب شمعدان فضي تحترق فيه خمس شمعات ، استقرت بينهـــا ايقونـــة جدي المفضلة : « لا تبكي ، يا ماما ! » : وكانت اللالىء التي تزين ثوب العذراء في طياته ومضات من النار تطلقها احجار الياقوت الاحمر المصفوفة باعتناء وسط التاج الذهبي الذي يغطي رأس العذراء . وكانت وجوه مدورة تطل من خلال النوافذ السود ، وانوف مسطحة تضغط على الزجاج بصورة غريبة ، وشرع كل ما يحيط بي يسبح ويموج ، بينما انحنت المراة الخضراء فوقي كي تجس ما وراء أذني بأصابعها الباردة ، وهي تدمدم :

ـــ على اية حال ، فهو لن . . .

وقالت جدتي :

ـــ لقد غفـــا . . .

ومن ثم حملتني واتجهت بي الى الباب . . .

والحقيقة اني لم اغف ، بل اغمضت عيني بكل بساطة . . .

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

ـــ لم لم تخبرينـــي ؟

ـــ لا تتكلم الان ،اتسمع؟ لا تقل شيئا .

ـــ خداعون جميعكـــم !..

عندما انحجبني في سريري . دفنت راسها تحت الوساده ، وعرقت في بحر من الدموع . بينما طفق جسدها يرتجف ويتارجح بفعل نشيجها ، وهي لا تفتأ تقول لـــي :

ـــ لماذا لا تبكي ؟ ابك قليلا !

ولكن لم تكن بي رغبة في البكاء .. كان الطابق العلوي باردا مظلما . والفراش يهتز ويضطـــرب لشدة ارتعاشي ، وتلـــك المرآة الخضراء تابى ان تختفي من أمام ناظري . وتظاهرت بالنوم ، فتركتني جدتي وحيدا ..

مرت الايام القليلة التالية على نمط واحد . رتيبـــة مضجرة .. أمـــا والدتي فقد رحلت عنا بعد ان اعلنت خطبتها . فطوق المنزل جو من السكون المرهق الثقيل الوطـــأة .

وفي صباح يوم من الايام ، جاء جدي حاملا ازميلا في يده ، وراح يقتلع المعجون من حول النافذة ، ومن ثم تبعته جدتي وهي تحمل حوضا من الماء ، وبعض الاسمال البالية ... سأل في صوت خفيض :

ـــ اجل ، ايه ، ايتها العجوز !

ـــ ماذا ؟

ـــ انت مسرورة ؟

فأجابته مثلما اجابتني على السلم :

ـــ لا تتكلم الان ، اتسمع ؟ لا تقل شيئا .

كان لهذه الكلمات مغزى خاص ـــ انها تخفي شيئا غريبا بغيضا يعرفه الجميع ، ولكنهم يرفضون البوح به .. ورفع جدي ، بعناية فائقة ، النافذة الداخلية وذهب بها أما جدتي ففتحـــت النافذة الاخـــرى على مصراعيهـــا . امتلأت الغرفة برائحة مسكرة تتصاعد من التربـــة التي ذاب الجليد عنهـــا حديثا ، وشحب لون قرميد الموقد الازرق ارتعشت اوصالـــي عندما تطلعت

الى هذا القرميد ، فانزلقت من فراشي حتى الارض ، لكن جدني حذرتني بقولها :

ــ اياك والسير حافي القدمين !

ــ سأذهب الى الحديقة .

ــ انتظر حتى نزول الرطوبة .

لم أرغب في اطاعتها .. ان رؤية الكبار قد غدت تكدرني الان ...

كانت خصيلات شاحبة من العشب تنمو تشق طريقها من باطن التربة، وبراعم الزهر تزهر في اغصان الاشجار ، والعشب الاخضر الجميل يفرش سطح منزل بتروفنا ، والعصافير تملأ كل فسحة ، والرائحة الذكية المنطلقة في جو تملؤه اصداء خافتة عذبة تسكرني وتبعث في اوصالي نشوة لذيذة ... وكان حشيش بني اللون ، يحيطه الثلج من كل جانب ، يزركش ارض الحفرة التي ذبح العم بيوتر نفسه فيها . ان النظر الى تلك الحشائش مزعج مؤلم ــ فلا هي ، ولا تلك الكتل الخشبية المحترقة كأنها ترنو الى في اسى واكتئاب، لتنسجم مع الربيع الوليد المزدهر ... لا بل ان الحفرة بأسرها ، كانت زائدة في ذلك المكان ، عديمة النفع ، مزعجة ترهق الاعصاب .. واخذتني ، على حين غرة ، رغبة هائجة في ان اقتلع تلك الحشائش ، والقي بها بعيدا وانظف تلك البقعة من الحديقة من كل ما يدنسها ، ثم ابني لنفسي هناك زاوية هادئة نظيفة استطيع ان اقضي فيها فصل الصيف وحيدا ، بعيدا عن سائر من يدعون انهم كبار ... وسرعان ما شرعت في تحقيق هذه الرغبة ، الامر الذي ساعدني على نسيان تلك الحوادث التي جرت في دارنا .. وطبيعي ان حب الاذى لم يبارحني بعد ، لكن حدته كانت تخف يوما بعد يوم .

كانت جدتي وأمي تسألانني باستمرار :

ــ ما بالك تبدو عابسا على غير عادتك ؟

هذا السؤال يزعجني ويضايقني ــ فانا لست ناقما عليهما .. كل ما في الامر ان كل ما يتعلق بالبيت قد أصبح غريبا علي ، وكثيرا ما كانت تلك المرأة الخضراء تنضم الينا على الغداء ، أو الشاي ، أو العشاء ، تتجلى هناك اشبه ببقعة عفنة من سور عتيق ، وقد الصقت عيناها الى

وجهها بخيوط غير منظورة ، فهما تتدحرجان بسهولة في محجريهما العظيمين العميقين تتطلعان الى كل شيء ، وتتفحصان كل شيء ، ترتفعان الى السقف عندما تتحدث عن الله ، وتهبطان الى جوف الارض عندما تتحدث عن الامور الارضية . وكان يبدو ان حاجبيها مصنوعان من خيوط دقيقة خيطت هناك ، فوق عينيها بطريقة عجيبة ، وأسنانها العارية العريضة تلتهم كل شيء يدخل الى فمها دون ادنى صوت على الاطلاق . كانت تمسك بشوكة الطعام بطريقة مضحكة ، وقد برز اصبعها الصغير جانبا بصورة تبعث على السخرية ، فاذا اكلت تحركت اذناها بدورهما عندئذ ، بينما شعرات دملتها الخضراء تهتز وتتأرجح أيضا وهي تزحف كالديدان على جلدها الذي تبعث نظافته على النفور والاشمئزاز ... كانت ، هي وابنها ، نظيفين للغاية حتى لا يجسر انسان على الاقتراب منها ... ولقد حاولت ، عدة مرات ، خلال الايام الاولى من تعارفنا ، ان تحملني على تقبيل يدها الميتة ، التي تفوح منها رائحة الصابون والبخور ، لكني كنت اولي الادبار .. كانت لا تفتأ تقول لابنها :

— ان هذا الصبي يحتاج ، بكل تأكيد ، الى تربية حقيقية لمدة طويلة ... اتفهم يا يفجيني ؟

فلا يفعل يفجيني الا الاطراق براسه خضوعا ، وقد قطب وجهه ، دون ان يقول شيئا ... وفي الحقيقة ، كان الجميع يقطبون وجوههم في حضور تلك المرأة الخضراء .. أبغضت تلك العجوز — وكذلك ولدها — بغضا شديدا مركزا كلفني كثيرا من الجلد ... وفي ظهر احد الايام ، بينما نحن نتناول طعام الغداء ، راحت تحملق بعينيها فيّ وهي تقول :

—يا عزيزي الكسي ، لماذا تأكل بمثل هذه السرعة ؟ ولماذا تبالغ في تكبير حجم اللقمة هكذا ؟ لسوف تختنق ، يا حبيبي !

فأخرجت اللقمة من فمي ، وغرزت شوكتي فيها ، ومددت يدي بها اليها قائلا :

— هاكها ، خذيها اذا كنت متأسفة عليها :

فانتزعتني أمي عن الطاولة انتزاعا ، ونفتني الى الطابق العلوي . ولحقت بي جدتي بعد ذلك ، وانفجرت ضاحكة وهي تشد على فمها باحدى

يديها وتمد الثانية مؤنبة :

ـ يا الهي ، يا الهى ! يا لك من شيطان صغير !

لم ترق لي طريقتها فيوضع يدها على فمها ، فأفلت منها ، وتسلقت سطح المنزل ، وجلست هناك خلف المدخنة ... بلى ، ان بي رغبة لا تقاوم في اهانتهم جميعا ، يصعب علي جدا ان اقاومها . ولكنني كنت مكرها على ذلك .. ففي ذات يوم ، طليت مقعدي زوج امي وجدتي الجديدة بالغراء القاسي ، فالتصق كل منهما بمقعده بطريقة تبعث على الضحك ، ولكن أمي لحقت بي الى الطابق العلوي ، بعدما جلدني جدي ، وجرتني اليها ، وامسكت بي بقوة بين ركبتيها ، وقالت :

ـ لو كنت تعرف كم تحز شيطنتك في نفسي !

وفاضت عيناها بدموع ملتمعة ، وقد ضمت راسي الى خدها الناعم .. لو انها جلدتني ، لكان ذلك اخف وطأة علي ! اقسمت الا اضايق آل مكسيموف ابدا بعدئذ ، بشرط ان تكف عن البكاء فقط . كنت اكره امي باكية . قالت بلطف :

ـ حسنا ، يجب الا تكون خبيثا ! سوف نتزوج عن قريب ، ثم نذهب في رحلة قصيرة الى موسكو ، وعندما نعود ستعيش معي ... ان يفجيني رجل حنون لطيف ، وأنا أعرف انك ستسر بصحبته ... سيرسلك الى المدرسة ، وعندها تصبح طالبا مثله الان ، وبعد ذلك ستمسي طبيبا او اي شيء اخر تحب ... ان الرجل المثقف يستطيع ان يفعل ما يريد .. حسنا ، اخرج الان ...

وكان يبدو لي أن عباراتها التي تكررها دون انقطاع ، هي سلم منحدر يقودني بعيدا عنها الى الاسفل ، الى الظلمة والوحدة والانعزال وهذا السلم لم يكن ليبعث الغبطة في نفسي طبعا ، فاتمنى ان اقول لأمي :

ـ لا تتزوجي .. ساجعلك تعيشين بترف ، انا وحدي ...

ولكنني لم اقل ذلك .. كانت امي تشعرني ، على الدوام ، بعواطف رقيقة ؛ ولكني لم أجد قط الشجاعة الكافية للتعبير عنها ...

كان عملي في الحديقة يتطور من نجاح الى اخر .. فقد نبشت الحشيش واقتلعته ، ومهدت الاطراف المنحرفة للحفر بقطع من القرميد وصنعت في مكان اخر مقعدا مريحا عريضا استطيع ان اضطجع فيه على هواي ، وجمعت قطعا من الزجاج الملون والصحون المكسورة وصففتها في الطين بين القرميد ، فكانت تبرق مثل الايقونات في الكنيسة كلما اشرقت الشمس عليها.

قال جدي ذات يوم ، وهو يتفحص عملي :

ـ رائع منك ان تفعل ذلك ! لكن الحشيش سينمو ثانية ويجتاح كل شيء ـ فقد ابقيت جذوره في جوف الارض . هيا ، آتني بالمعول وسأبيد لك هذا العشب اللعين .

وعندما جئته بالمعول بصق في يديه ثم ضرب المعول بعمق في الارض قائلا :

ـ ارم الجذور بعيدا ، وسأوزع لك الزهور بمعرفتي وسيكون ذلك رائعا حقا ، رائعا جدا ...

وفجأة انحنى على المعول دون حراك ، وظل فترة دون ان ينبس بحرف واحد ... اقتربت منه ، فرأيت بعض الدموع تنهمر من عينيه الصغيرتين كعيني كلب صغير .. سألته :

ـ ما بالك ؟

فارتجف ، ومسح وجهه بيده ، وقال :

ـ ان العرق يبللني .. انظر فقط الى هذا الدود ما اكثره ! وشرع ، مرة ثانية ، ينبش الارض ، ثم قال فجأة :

ـ كل هذا العمل عبث ! فانا سأبيع البيت لاول مشتري ، في الخريف على الارجح ... اني في حاجة الى المال مهرا لامك كي تعيش ، على الاقل ، بصورة لائقة ..

ورمى بالمعول ثم مضى الى زاوية من الحديقة خلف الحمام حيث كان يحتفظ ببعض ادواته ... فرحت انبش الارض ، وما اسرع ما قطعت اصبعا من اصابعي بحد المعول .. ومنعتني هذه الاصابة عن حضور عرس أمي ، فلم أستطع اكثر من مرافقتها حتى البوابة ، ومن هناك رحت أراقبها وهي

تعبر الشـارع مع مكسيموف الذي تشبث بذراعها . كـان راسها مطرقا ، وقدمها تتحسس طريقها بعناية بـين العشب الطري وكانهـا تسير علـى مسامير مدببة ...

العرس كان هادئا .. تناولنا الشاي بعد الاحتفال بصمت ، دون اية بهجة او اقل سرور ... ومن ثم أسرعت امي الى غرفة نومها ، وشرعت في حزم متاعها ، بينما جلس زوجها الى جانبي وقال :

ـــ لقد وعدت ان اهديك شيئا من الدهان ، ولكن الانـواع التي توجد منه هنا رديئة . وأنا لا اقدر ان امنحك دهاناتي الشخصية . سو ف ارسل لك هديتي من موسكو ...

ـــ وماذا افعل بهـا ؟

ـــ الا تحب الرسم ؟

ـــ انا لا اعرف كيف أرسم !

ـــ اذن سأرسل لك شيئا اخر .

ودخلت امي ... لتقول :

ـــ سنعود سريعا ... بعد انتهاء والدك من امتحانه ودراساته سنكر راجعـين ..

كان يطربني ان يتحدثا الى وكأنني واحد من الكبار ، ولكنى استغربت ان يكون رجل ملتح في طور الدراسة بعد . سألت :

ـــ ماذا تتعلـم ؟

ـــ تخطيط الاراضي .

لم أسأل معنى ذلك مع انني لم اكن ادري مـاذا بعني .. كان البيت محاطا بسكون خانق ، فكنت اتلهف لمجيء الليل .. ووقف جدي مستندا بظهره الى الموقد ، ينظر من النافذة بعينين نصف مغلقتين . والمراة الخضراء تساعد امي في حزم المتاع ، وهى تتنهد وتدمدم طوال الوقت . أما جدتي ،

التي كانت ثملة منذ الظهيرة ، فقد اقفل عليها في الطابق العلوي كيلا تشين العائلة بما لا طائل تحته ...

تركتنا امي باكرا ، عانقتني مودعة ، وقد رفعتني بسهولة عن الارض وحدقت في عيني بنظرة لم ار لها عندها شبها من قبل ..

قالت ، وهي تقبلنـــي :

ــ الوداع ! الوداع !

فقال جدي باكتئاب ، وهو ينظر نحو السماء :

ــ اطلبى اليه ان يسمع ما اقوله له .

ــ فتوجهت امي ، وهي ترسم اشارة الصليب على راسي :

ــ يجب ان تطيـــع جدك .

كنت انتظر ان تقول شيئا اخر ، فنقمت على جـــدي لمقاطعته اياهـــا ومنعها عن الاستمرار في حديثها ... صعدت ومكسيموف الى العربة ، لكن ثوبها علق بشيء ما ، فظلت مدة طويلة تعمل منزعجة على تحريره ..

قال جـــدي :

ــ ساعدها ، اما رايت ما حصل .

ولكنني كنت غارقا في الياس لااستطيـــع ان افعـــل شيئا ... ومـــد مكسيموف ، بعناية فائقة ، ساقيه الطويلتين بسرواله الازرق ، بينما ناولتا جدتي بعض الرزم التي كدسها على ركبتيه ، ثم رفع حاجبه الشاحب اللور باضطراب ، وقـــال :

ــ كفـــى !

وركبت المراة الخضراء وابنها البكر الذي كان ضابطا عربة اخرى .. جلست منتصبة القامة كعمود ، في حين حك ولدها لحيته بقبضة سيفه وهو يتثاءب بين الفينة والاخرى ... ساله جدي :

ــ هل انت ذاهب الى الحرب ؟

ـــ بدون شك .

ـــ هذا رائع ! فلا بد من قهر هؤلاء الاتراك .

ومضت العربتان . . . استدارت امي عدة مرات تلوح بمنديلها ، بينما راحت جدتي تبكي بالقرب من الحائط وهي تلوح بمنديلها أيضا ، اما جدي فقد ترقرقت الدموع في مآقيه ، وهو يغمغم بصوت متقطع كلمات غير مفهومه ابـــدا .

جلست على مقعد صغير لا مسند له اراقـــب العربتين تقفزان فـــوق اخاديد الشـارع ـــ وما عتمتا ان انعطفتا في احدى الزوايا ، فخيـــل الي ان هناك شيئا في صدري قد ارتعش ، وان الدموع ستنهمر من عيني .

كان الوقت باكرا ، والشوارع فارغة بعد ، ومصاريع النوافذ ما برحت مغلقة ، لم ار من قبل مثل هذا الفراغ المطبق . . . ومن بعيد ، مـــن بعض الاماكن النائية ، تلاحقت أنغام احد الرعيان يرسلها مـــن مزماره . . . قال جدي ، وقد أمسكني من كتفـــي :

ـــ تعال تناول فطورك ، يبدو ان من المقدر لـــك ان تعيش معي الى الابد مثل عود الثقاب يحك بمشعله . . .

كنا ، جدي وانا ، نعمل في الحديقة منذ الصباح الباكـــر صامتين حتى حلول الظلام ، وهو بحفر التربة ، ويقتلع الاشواك عـــن أشجار التفاح ، ويسحق الدود الذي يعثر عليه هنا وهناك ، وأنا أرتب زاويتي دون انقطاع . . . بتر جدي اطراف الكتل الخشبية المحترقة ، وغرز عصا جديدة في الارض علقت بها اقفاص طيوري . وفرشت مظلات مـــن الحشيش الجاف لاحمي مأواي من الشمس والندى . وهكذا اضحت تلك الزاوية نظيفة معدة للسكن . . . قال جـــدي :

ـــ حلو منك ان تتعلم كيف تنظم أمور حياتك من تلقاء نفسك .

كنت اقدر كثيرا ملاحظاته القيمة عن الحياة . . كـــان يرقد أحيانا على المقعد الذي غطيته بالعشب ، يحدثني على مهل ، فخال لي انه يخرج كل كلمة من فمه بصعوبة فائقـــة :

ـــ انك الآن فصلت عن امك ! ولسوف تلد والدتك أولادا اخرين يكونون

اقرب الى قلبها منك . اما جدتك فقد اخذت ، كما تعلم ، تدمن شرب الخمرة !

ثم يغرق في صمت طويل ، فكأنه يرهف السمع الى شيء ما ، كي يعود فيتابع الحديث وهو يدحرج كلماته الثقيلة ، وبرنو الى البعيد كأنه يستجمع افكاره او كأنه يستلهم شيئا غير منظور :

ـــ هذه هي المرة الثانية التي تعاقر الخمرة فيها ـــ كانت المرة الاولى عندما دعي ميخائيل الى الجندية . لقد اقنعتني يومذاك كي افتديه . يا لهـا من مجنونة ! لعله كان يكون شيئا اخر لو خدم في الجيش ... امـا انا ! فلسوف اموت سريعا . وهذا يعني انك ستبقى وحيدا ، تظل وحيـدا تدبر امور نفسك بنفسك . تعلم ان تعنى بنفسك ، واياك ان تنحني للغير . عش مسالما ، ولكن كن عنيدا ، وامض في طريقك الخاصة دون خوف او هلع ... واستشر ، ولكن افعل ما تعتقد انت انه الافضل ..

قضيت في الحديقة الصيف كله ، عدا ايامه الماطرة طبعا . وكذلك كنت امضي فيه الليالي الدافئة ـــ فقد اعطتني جدتي قطعة من اللباد جعلت منها سريرا لي . وكانت هي ايضا تقضي العديد من الليالي تروي لـي الحكايات التي كنت اقاطعها بهتافات تأييد تارة ودهشة طورا ، فتصيح مثلا :

ـــ انظر ! نجم يسقط ! هذه روح اشتاقـت الى امهـا الارض . ان انسانا صالحا قد ولد في مكان ما من هذه الارض ...

او كانت تقاطع نفسها بنفسها فتقول :

ـــ ها هي ذي نجمة جديدة بعثت ... انظر ! كلها عيون ! السماء ، انها ثوب الله المزركش بالدرر اللامعة .

فيتأفف جدي ، ويقول :

ـــ التقطا انفاسكما ، ايها الابلهان ! سوف تصيبكما بلية ، او ينقض عليكما بعض اللصوص ...

وتنحدر الشمس ، تغمر السماء بلون احمر كانه من النيران ثم تمسى رمادا ذهبيا محمرا فوق رداء الحدائق الخضر . وعندئذ يظلم الكون تدريجيا، وهو يتسع ، بمقدار ما يبتلع الغسق ، ويفنى ، وتذبـل الاوراق المشبعـة بحرارة الشمس على اغصانهـا ، ويطاطىء العشب رؤوسه العديدة ناحية

الارض ، ويمسي كل شيء اكثر طراوه ونعومه ، يبعث اريجا لطيفا كالموسيقى التي تطوف ساعيه من الحقول البعيده توقعها مخيمات الجيش ، ويحمل الليل معه احساسا قويا منعشا مثل حب الام الرؤوم لاولادها ، ومثل مداعبات الام يكون السكون ايضا ، يمسح القلب باطراف مخمليه ، يكنس بعيدا كل ما يجب ان يضيع في عالم النسيان — كل ذلك الغبار الدقيق المحرق الذي تراكم خلال النهار . كان من الروعه بمكان عظيم ان يضطجع المرء ويرنو الى السماء طويلا ، يراقب مولد النجوم ، وكل واحدة منها تفتح ابعادا جديده في السماوات . ان هذه الابعاد المتقهقرة تبدو وكأنها ترفعك بخفة عن الارض ، فلا تعود تعرف ان كانت الارض قد تقلصت واضحت بقدر حجمه ، ام انه هو الذي تمدد بشكل عجيب حتى أصبح واحدا مع كل ما يحيط به . ويزداد السكون وتتكاثف الظلمة .

أنغام اكورديون بعيد ، وضحك امراة عابثة ، وضربات المهاميز على الرصيف ، وعويل كلب ما هي سوى الاوراق الاخيرة التي تتساقط من النهار الذي يموت ويذوب !

وفي بعض الاحايين ، ترتفع أصوات سكرى تتشاجر في الشوارع او في بعض الساحات هنا وهناك ، ثم تتردد ضربات خطوات تعدو سريعة متلاحقة ... أن مثل هذه الاصوات المألوفة جدا ، لا تسترعي أدنى انتباه على الاطلاق ، بيد انني كنت أسمعها لانني لم اكن اعرف بماذا الهو سوى بالانصات الحاد الى كل ما يطرا من اصوات غريبة .

وتستلقي جدتي مستيقظة لساعات لا نهاية لها ، وقد أراحت راسها على ذراعها ، وانطلقت تروي شيئا باندفاع لذيذ ، لا مبالية فيما يبدو ان كنت أصغي لها أم لا ... وكانت تعرف دوما كيف تختار أسطورة تضيف على الليل سحرا وتزيده جمالا وروعة ...

كنت اغرق في النوم وانا اسمع الى كلامها الموزون ، ثم استيقظ وقد غمرت الشمس وجهي ، وملأت أذني أغاني العصافير وتغاريدها ... أن نسيم الصباح يتحرك بلطف تغمره حرارة الشمس بدفئها ، واشجار التفاح تنفض الندى عنها ، والعشب يسترد بهاء لونه الاخضر ، وسائر أصوات الوليد الجديد والوانه تتدفق في روحي كتدفق قطرات الندى ، تحيطني بسعادة هادئة وتغمرني رغبة في النهوض والسير ، والعيش بانسجام مع المخلوقات جميعا ...

كانت تلك اكثر مراحل حياتي سكينه وتأملا . ممسى ذلك الصيف نمى عندي شعور النقة بفواي الخاصه . وبدأت انحاشى الناس ، فلا محدوقى الرغبة ، حين اسمع صراخ أولاد شارع أوفزبابيكوف وهتافهم ، في الانضما اليهم ، وبدلا من أن ابتهج عندما ياتون الى زياري ، اصبحت اخاف من أن يعيثوا فسادا في حديقتي في منزلي - في ماواي ، وهـو اول ما صنعته يداي في حياتي كلهـا . . .

لم تعد أحاديث جدي تثير بي ادنى اهتمام ، خصوصا وقد اضحت اكثر تطويلا وجفافا وشكوى . . . وتضاعفت مشاجراته مع جدتي ، وصار يطردها من البيت ، فتمضي حينئذ الى دار الخال باكوف او الخال ميخائيل . وفي بعض الاحيان ، كانت تغيب عن الدار أياما عديدة ، فيضطر جدي الى اعداد الطعام لنا بنفسه . وهو يلعن ويسب ، ويحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، ويزداد شراسة يوما بعد يوم .

كان يتخذ مجلسا مريحا في بقعة معشوشبة هناك، عندما كان يأتي لزيارتي في زاويتي الخاصة في الحديقة ويروح يراقبني طويلا دون ان ينبس بكلمة واحدة . . . ويسأل فجأة :

ـــ لماذا لا تقول شيئا ؟

ـــ لست ادري .

فيبدأ هو الحديث عندئذ ، وكأنه الاستاذ الذي يلقي درسا :

ـــ نحن لسنا نبلاء كما تعهد . . . ما كان هناك مـن علمنا شيئا على الاطلاق ، فيجـب اذن أن نتعلم لوحدنـا . أن الكتب قد وجدت لغيرنـا والمدارس قد بنيت لسوانا ـــ . . . فواجبنا ان نحصل كـل شيء من تلقـاء انفسنا .

ثم يستغرق في تاملاته ـــ صامتا دون حراك ـــ حتى ليبعث الرعشـة في قلب من ينظر اليـه . . .

باع جدي الدار في ذلك الخريف . .

وقال ، ونحن جلوس الى مائدة الافطار ذات صباح قبل الربيع ، في صوت كئيـب :

ـــ حسنا ، يا ماما ! لقد اطعمتك مدة طويلة فيما مضى : اما الان فقد انتهى كل شيء ـــ يحلو لي ان تكسبي خبزك بنفسك من الان فصاعدا .

أعارته جدتي أذنيها بهدوء تام ، وكأنها تتوقع منه مثل هذا الحديث .. وتناولت علبة سعوطها ، ودفعت قبضة منها في انفها ، وأجابت :

ـــ حسنا ، فليكن كما تريد ، فلا بد ان نتدبر أمرنا على خير وجه .

واستاجر جدي غرفتين مظلمتين صغيرتـــين في قبو منزل عتيق يقع في درب جد ضيقة ... وبينما نحن ننقل أمتعتنا ، تناولت جدتي حذاء عتيقا ذا أشرطة طويلة والقت به تحت الموقد ، ومن ثم جلست القرفصاء وراحت تغمغم قائلـــة :

ـــ تعال ايها العفريت ، تعال أيها العفريت ! أركب في هذا الحذاء وسر معنا الى الدار الجديدة حاملا لنا حظا سعيدا ...

واطل جدي ، وكان في الساحة الخارجية ، من خلال النافذه وزعق :

ـــ انك تاخذينه معك ، اليس كذلك ؟ فلسوف أدق عنقك ، أيتها الكافرة! كيف تجعلين مني مدعاة للسخرية في اعين الناس ؟

فحذرته بقولهـــا :

ـــ ايه ، يا ابتاه ! انتبه ، ذلك يعني حظا سيئا لنا ..

ولكن غضب جدي كان يفوق حدود التصور ، فمنعهـــا مـــن اصطحاب العفريت الى الدار الجديدة ...

وظل ، طوال أيام ثلاثة ، يبيع الاثاث لبعض التجار ، وهو يساوم زاعقا صارخا ويكيل الشتائم دون حساب ... وكانت جدتي تراقبهم من النافذة ، تتاثر تارة ، وتضحك تارة اخرى ، وهي تنادي في صوت منخفض :

ـــ هيا خذوا كل شيء ، حطموا كل شيء ، لا تبقوا على شيء ...

وكنت بدوري اغص بالعبرات ، كلما فكرت في زاويتي في الحديقة ..

لقد عشت ، يرافقني الاحساس بأن شيئا يحاول انتزاعي والقذف بي

بعيدا طوال السنتين التاليين — حتى وفاة أمي .. وسرعان ما جاءت هذه لزيارتنا بعد انتقالنا الى القبو . كانت شاحبــة اللون ، ضامرة القــوام ، وعيناها الكبيرتان تحترقان ببريق من الدهشة ... كانــت تتفحص كل شيء بانتباه مركز ، وكأنها ترى أباها وامها وترانــي للمرة الاولى في حياتها ... راحت تنظر الينا صامتة ، بينما ظل زوجها يسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يصفر ، وقد شبك أصابعه وراء ظهره .

قالت والدتي ، وقد أخذت وجهي في راحتيها الدافئتين :

— يا للسماوات ، لكم نضجت !

وكانت ترتدي ثوبا عريضا ، بني اللون ، بدا لي بشعا وهو ينفتح فوق معدتها .. قال زوجها ، وهو يمد لي يده :

— مرحبا ! كيف حالك ؟

ونفخ بمنخريه ، وغمغم :

— ان الرطوبة شديدة ههنــا !

كانا يبدوان متعبين ، وسخين ، فكأنهما يركضان منذ فترة طويلة ، وكل امنيتهما ان يستلقيا ويستريحا .. وتناولنا الشاي في وجوم ، وجدي يراقب المطر طوال الوقت وهو ينهمر ويدلف الى الداخل من خلال شقوق المصاريع ، ثم سأل أخــيرا :

— وهكذا . فقد خسرتما كل شيء بسبب النار ؟

فأجاب زوج أمي بلهجة من يروي مغامرة حدثت له على حين بغتة :

— كل شيء ! وما انقذنا انفسنا الا بصعوبة قاسية .

— ان النار لا تمزح في الحقيقــة .

واقتربت أمي من جدتي وهمست شيئا في اذنها ، ضيقت له هذه فتحة عينيها وكان نورا براقا قد انحسب عليهما بغتة وازداد وجومهما ...

قال جدي فجأة بصوت هادىء مرتفع :

ـــ لقد سمعت ، يا يفجيني فاسيليفيتش ، بعض الاشاعات التي تقول انه لم يكن هناك نار على الاطلاق ، بل انك خسرت كل شيء في القمار .

فران صمت قاتل ، لا يعكره سوى قطرات المطر تقرع النافذة ...

قالت امـــي :

ـــ ابي ... لماذا ؟...

فزمجر جدي :

ـــ ابتاه ! ماذا ايضا ؟ الم اخبرك ان من الجنـــون ان يتزوج الجيـــل الثالث من الجيل الثاني ؟ حسنا ، اليك ما انتهيت اليه ـــ انه نموذج رائع ، اليس كذلك ؟ ولقد جعل منك نبيلة ، اليس كذلـــك ؟ حسنا ، كيـــف تجدين ذلـــك الان ؟

اندفع الجميع الى الكلام ، وكـــان صوت زوج امي يرتفع فوق جميع الاصوات ، خرجت الى المشى ، وجلست على كومة من الحطب مصعوقا .. هذه الافعى لا يمكن ان تكون امي ـــ انها تختلف عنها الاختلاف كله .. ادركت ذلك عندما كنت في الغرفة ، أما الان وقـــد جلست في الظلمة ههنا ، فاني استطيع ان اتذكر بوضوح كيف كانت من قبل ... وانـــي لاجدني بعد هذا ـــ دون ان أذكر كيف تم ذلك ، في سورموفو ، في بيت جديـــد ، وكانت الشقوق بين قطع الاخشاب محشوة بنبات اخضر يسكنها عددا لا يستهان به من الصراصير . وكانت امي وزوجها يعيشان في غرفتين تواجهان الشارع ، بينما اعيش وجدتي في المطبخ الذي تطل نافذته الوحيدة على السطح . وفيما وراء هذا السطح ، كانت المداخن السوداء تنتصب بشمـــوخ نحو السماء ، تنفث دخانا كثيفا مجعدا تنثره ريح الشتاء فوق الحي بأسره .. وكانت غرفنا غير المدفأة تعج ابدا برائحة ذلك الدخان بينما صفارة المعمـــل تعوي في كل صباح مثل ذئب مفترس .

كنت استطيع ، اذا ما وقفت على دكة صغيرة وتطلعت من خلال زجاج النافذة العلوي ، ان المح بوابات المعمل المضاءة وقد فتحـــت على مصاريعها لتلتهم العمال التهاما . وعند الظهيرة ، كان صوت الصفارة يعلو مرة اخرى، فتنفتح البوابات السود على مصاريعها ، تكشف عن ثغرة عميقة يلفظ المعمل

منها نفس اولئك الناس الصغار ، فيتدفقون في جداول سود على طول الشوارع ، تطردهم ريح بيضاء عن الدور المبعثرة ..

وفي الامسيات كان دخان أحمر اللون قاتمه يتوهج مرفرفا فوق المعمل، مضببا رؤوس المداخن ، باعثا في النفس شعورا فريدا من الرهبة . كانت رؤية ذلك المشهد يوما بعد يوم اثقل من أن نطاق ، فيفيض قلبي بكراهية وحقد مؤلمين ..

كانت جدتي تقوم بسائر اعمال البيت ، فتنهمك منذ الصباح حتى المساء في تحضير الطعام ، ومسح الارض ، وتقطيع الحطب ، حتى اذا هبط المساء سقطت متعبة أعياء وارهاقا . وفي بعض الاحيان بعد تهيئة طعام الغداء ، كانت تلبس معطفا قصيرا ثم تخرج الى البلدة وهي تقول :

ـــ سأذهب لارى كيف يدبر ذلك الشيخ اموره اليومية .

ـــ خذيني معك .

ـــ لسوف تبرد حتى الجمود ، الا تحس بهذه الريح المريعة !

وتقطع مسافة سبعة اميال الى البلدة على طرق ضيقة في حقول من الثلج ، بينما تجلس أمي الحامل في الدار صفراء منتفخة ، ملتفة بشال رمادي مزركش من على طرفيه .. كنت اكره ذلك الشال الذي يشوه جسدها الجميل المتين البنيان ، واكره تلك الزركشة أيضا ، فأود ان امزقها اربا اربا، كما كنت أكره البيت ، والمعمل ، والمنطقة بأسرها . وكانت والدتي تتجول في حذاء عالي الكعبين ، يهتز بطنها المنتفخ كلما سعلت ، وعيناها الزرقاوان تلتمعان بغضب قاس ، أو تشخصان باكتئاب الى الجدران العارية ... وفي بعض الاحيان كانت تتطلع الى الشارع ساعة كاملة ... كان هذا الشارع يشبه فكا سودت السنون بعض اسنانه وشوهتها ، بينما سقط القسم الاخر فاستبدلت بأخرى جديدة لكنها كبيرة جداً بالنسبة الى الفك .

قلت أسال :

ـــ لماذا نعيش في هذا المكان ؟

فأجابت :

ــ اواه ، لا تسأل !

أصبحت تقتصر في حديثها معي ،فلا تخاطبني الا كي تصدر امرا ، أو تطلب الي عملا مــا :

ــ اجلب لي هذا .خذ ذاك . اسرع الى المخزن ...

ونادرا ما كانت تسمح لي بالخروج لالعب ، لانني كنت أعود دوما وقد اعتدى علي رفاقي واشبعوني ضربا ... كان القتال اللذه الوحيدة التي بقيت لي ، فكنت استسلم اليه بكل اندفاع . وكانت أمي تضربني ضربا مبرحا عقابا لي ، فلا يؤثر في العقاب الا كي اضاعف من سخطي ، فأروح اقاتل في اليوم الثاني بوحشية اكثر مني في اليوم الاول ، فتضاعف امي بدورها من قسوة عقابي ... وأنذرتها مرة اني سأعض يدها واهرب اضــرب في الحقول ان عادت الى ضربي ، فدفعتني عنها في دهشة ، وراحت تــذرع ارض الغرفة بخطوانها ...

قالت ، وهي تلهــث :

ــ يا لك من متوحش صغير !

وكان زوج والدتي قاسيا جدا علي . قليل الكلام مع أمــي . كان أبدا يصفر ويسعل ويقف مقابل المرآة ينقر على أسنانه المعوجة . ولقــد أصبح يتشاجر مع أمي أكثر فأكثر ، ينعتها بعبارات شائنة قاسية تثير نقمة في أعماق قلبي . وفي كل مرة يتشاجر واياها ، كان يغلق الباب المؤدي الى المطبخ حتى لا اسمع اقواله ، ولكن أصداء صوته الجاف كانت تبلغني وتصفــع آذانــي بالرغم من كل احتياطاته ...

ضرب الارض بقدمه مرة ، وصاح مزمجرا :

ــ انا لا استطيع ان ادعو أحدا الى الدار بسبب انتفاخ بطنــك ، أيتها البقرة الشمطــاء !

طغت علي دهشة عظيمة وغضب لا مثيل لــه ، فقفزت بعنــف حتى اصطدم رأسي بالسقف بقوة ، وعضضت لساني حتى آذيته ...

وفي أيام السبت ، كان عدد كبير من العمال يأتون اليه يبيعونه بطاقات

الطعام الذي تمكنهم من شراء الحاجيات من مخزن الشركة ... كان المعمل يوزع هذه البطاقات عوضا عن الاجور فيبتاعها زوج امي بنصف ثمنها . وكان يستقبل العمال في المطبخ ، فيجلس الى الطاولة وعلى وجهه سيماء التكبر، ويروح يتطلع في كل بطاقة مقطب الحاجبين :

— روبل ونصف الروبل .

ولم تطل هذه الحياة السوداء المضطربة ، فقــد ارسلوني قبل ان تلد أمي لاعيش مع جدي ...

كان يقطن منزلا جديدا مؤلفا من طابقــين في شارع بيسشانانيــا في كونافينو فوق مقبرة كنيسة نابولنايا . وكانت الغرفة التي يشغلها تطل على الساحة بنافذتين عريضتين .

ضحك حين رآني ، راح يرسل كلاما عاليا حادا متقطعا :

ــ حسنا ! ان المثل يقول : « خير رفيق لك هو أمك ... » . ولكــن في هذه الحال يبدو ان افضل رفاقك هو جدك ، الشيخ ! يا لهم من قوم !

وما كدت استقر في المنزل الجديد حتى أتت اليه أمي وجدتــي بالوليد الجديد . اما زوج أمي فقد خسر عمله في المعمل لاحتياله على العمال ، ولكنه استغاث بأصدقائه، وسرعان ما استلمعملا جديدا بوظيفةمحاسب في محطةللسكك الحديديــة ...

ومرت أيام طويلة قبل ان ارسل ، مرة اخرى ، لاعيش مع امي في قبو ضيق يقع تحت منزل حجري ... ارسلتني امي فورا الى المدرسة ، ولكني بغضتهما هي والمدرسة منذ اليوم الاول ... ظهرت فيهــا ، للمرة الاولى ، لابسا حذاء من أحذية امي ، ومرتديا معطفا فصل من احد قمصان جدتي ، وقميصا أصفر اللون ، وبنطالا طويلا ... وطبيعي ان أكون مدعاة للسخرية بمثل هذا اللباس ، لكنني تفاهمت بسرعة مع زملائي ولكن الكاهن والاستاذ نفرا منــي .

كان الاستاذ أصلع الراس ، اصفر الوجه ، يدخل قاعة الدرس وقد حشا منخريه بالقطن ويتخذ مكانه الى الطاولة ، ويطرح علينــا الاسئلة في صوت أجش ، ثم يقف فيمنتصف الكلمة ليسحب القطن من أنفه ويتفحصــه

وهو يهز رأسه .. كان له وجه مسطح ، نحاسي اللون ، يبدو أن انعكاسات زرقاء مخضرة تتلاعب على صفحته . اما عيناه الصغيرتان ، وهما أكثر ما في وجهه شناعة ، فكان يخيل الي انهما محشورتان حشراً في رأسه حيث لا مكان لهما على الاطلاق .

جلست طوال الايام الاولى في المقعد الامامي ، تماما تحت أنف الاستاذ ، حتى لاخال انه لا يرى احدا سواي ، وانه لا يفتأ يرسل الي الملاحظة تلو الاخرى كأن يقول من خلال اسنانه :

ــ بشكو .. و . ف ! كفى هذرا ! بشكو .. و . ف ! كفى مراوغة ! بشكو .. و .. ف ! لقد ترك حذاؤك ، مرة اخرى ، بعض الوحل على الارض !

كان ذلك اكثر من ان استطيع احتماله ، ولكنني كنت انتقم لنفسي باستنباط اكثر الالاعيب تطرفا .. وفي ذات يوم ، حشوت بنصف بطيخة متجلدة ، وافرغت محتوياتها ، ومن ثم علقتها في مقبض الباب في الممر المظلم . وعندما فتح الباب ، طارت البطيخة في الهواء ، وعندما اغلقه الاستاذ سقطت القبعة على رأسه الاصلع .. وقادني الحارس الليلي الى الدار مع ورقة تأنيب من الاستاذ ، وكان نصيبي الجلد عقابا على تلك الاساءة ...

و في مرة اخرى ، نثرت السعوط في جراره ، فأخذته نوبة من العطيس اجبرته على مغادرة قاعة الدرس التي بعث اليها بصهره الضابط كي ينوب عنه .. وطلب منا الضابط ان ننشد « يا الله أنقذ القيصر » و « آه يا حريتي المباركة » مرات عديدة .. وكلما اخطأ احدنا في اللحن ضربه على رأسه بمسطرة معدنية كانت تحدث ضجة جوفاء تبعث على الضحك ، وان لم تكن تؤلم ابدا .

أما استاذ الدين فكان كاهنا أنيقا في شرخ الشباب ، كث الشعر اجعده ، ابغضني لاني لا املك نسخة من « العهدين القديم والجديد » ولاني اقلد طريقته في الحديث ايضا ...

كان يقول ، عند دخوله قاعة الدرس مباشرة :

ــ بشكوف ، هل اشتريت الكتاب ام لا ؟

ـــ كلا ، لم افعل . نعم ! . .

ـــ وماذا تعني بنعـــم ؟

ـــ كـــلا !

ـــ هيا الى البيت ! نعم ، الى البيت ! فلست ارغب في تعليمك . نعم، لا ارغب ابـــدا !

وما كنت اعترض ابدا على مغادرة المدرسة . فكنت اركض في طرقات الضاحبة القذره اتأمل الحياة الصاخبة من حولي حتى يحين موعد الانصراف من المدرسة .

كان للكاهن وجه رائع كوجه المسيح ، وعينان جميلتان كأعين النساء . . وكانت له يدان صغيرتان ، يخال الى انهما تلاطفان كل شيء تلمسانه ، اكان ذلك الشيء كتابا ، أم مسطرة ، أم ريشة . كان يبدو وكانه يحب كل شيء تقع عليه عيناه ، فينظر اليه على اعتباره شيئا حيا يمكن ان يؤذيه كل احتكاك عنيف . وكان الاطفال مولعين به بالرغم من انه لم كن يعطف عليهم بشكل ظاهر . . . ومع ان علاماتي كانت مرضية للغاية ، فما اسرع ما أنذرت بانني ساطرد من المدرسة بسبب سلوكي . اقلقنى ذلك جدا ، فمما لا ريب فيه ان نتائجه ستكون صارمة قاسية ما دامت امي تزداد عنفا يوما بعـــد يوم ، وتضاعف من جلدي اكثر فأكثر .

ولكن خلاصي من تلك الكارثة تحقـــق على غير انتظـــــار ، فقد زار مدرستنا ، بغتة ، الاسقف . وكان ، على ما اذكـــر ، أحدب الظهـــر . . . وامتلأت قاعة الدرس بجو غير معهود من الحركة والانطلاق عندما دخل ذلك الرجل الصغير مرتديـــا ثوبا فضفاضـــا أسود اللون ، واخـــذ مجلسه الى الطاولـــة . .

قال ، وهو يخرج يديه من كميه الواسعين :

ـــ حسنا ! هلا تحدثنا قليلا ، يا أطفالـــي ؟

وجاء دوري للمثول امام طاولته . . . سألني :

ـــ كم سنة لك من العمر ؟ حقا ؟ يا الله ! يا لك من فتى طويل بالنسبة الى سنك ! لا ريب انك وقفت كثيرا تحت الأمطار !

والقى احدى يديه الصغيرتين الطويلة الاظافر على الطاولة ، بينما امسك باليد الاخرى لحيته الصغيرة ، وهو يحملق في بلطف :

ــ حسنا ، ارو لي اية قصة نحبها من التاريخ الديني .

وعندما اجبته بانني لا املك كتابا ، ومن ثم لا استطيع حفظ دروس الدين ، اصلح من وضع قلنسوته وقال :

ــ كيف ذلك ؟ يجب عليك ان تدرس دروس الدين . الم تسمع بعض القصص في مكان ما ؟ هل تعرف المزامير ؟ حسنا ! والصلوات ؟ والان ، لعلك تعرف حياة بعض القديسين ؟ حسنا ، يبدو انك فتى مثقف اذن !

ودخل كاهننا ، محمر اللون ، وهو يلهث ... وبعد ان باركه الاسقف طفق يحدثه عني .. فقال الاسقف ، وهو يقاطعه باشارة من يده :

ــ انتظر لحظة !

ثم استدار الي ثانية :

ــ حسنا ، لنفرض انك اخبرتنا عن الكسي ، رجل الله ...

وعندما توقفت عن تلاوة الشعر لنسياني بعضه ، قال :

ــ شعر رائع ، اليس كذلك يا بني ؟ عساك تعرف شيئا اخر ــ عن الملك داوود ؟ رائع ! لسوف اكون سعيدا جدا بالاصغاء اليك ...

واستطعت ان الحظ بنفسي انه سعيد جدا بالاصغاء ، وانه مولع بالشعر .. وتركني اتلو الكثير منه قبل ان يقاطعني :

ــ هل تعلمت حرف الهجاء من المزامير ؟ من علمك ؟ جدك الطيب ؟ جدك « الشرير » ؟ حسنا ، انك لا تعني ذلك . ولكنهم اخبروني انك ابدا تسبب بعض الشغب ...

فتضرجت وجنتاي ، ولكني اعترفت بخطيئتي .. واثبت الكاهن والاستاذ هذه الحقيقة الى حد بعيد . فاستمع الاسقف اليهما مطرقا بعض الوقت وقال اخيرا :

ــ اتسمع ما يقولان عنك ؟تعال الى هنا !

ووضع يدا تفوح منها رائحة البخور على راسي ، وقال :

ــ ما الذي يجعلك بمثل هذه الشقاوة ؟

ــ ان المدرسة تبعث على الملل .

ــ تبعث على الملل ؟ في هذا بعض الخطأ ، يا ابني ! فأنت اذا وجدت المدرسة باعثة على الملل ستكون تلميذا كسولا ، ولكن علاماتك تشهد ضد ذلك . يجب ان يكون هناك شيء اخر يضايقك .

واخرج من جبته كتابا صغيرا وكتب :

ــ بشكوف ، الكسي . يحسن جدا لو عدلت عن شيطنتك ، قليل من الشغب لا بأس به ، ولكن الناس لا يتحملون كثيرا منه ، كما تعلم ! الست على حق ، ايها الصغار ؟

فردت عليه جوقة من الاصوات بصوت عال :

ــ بلى ، انك على حق !

ــ وماذا عنكم ؟ اظن انكم لا تسببون الا قليلا جدا من الشغب ، اليس كذلك ؟

فضحك الاولاد :

ــ اوه ، كلا ، بل كثيرا !

وقال في نغمة تعجب ودهشة ، اطلقت عاصفة من الضحك اشترك فيها حتى الكاهن والاستاذ ايضا :

ــ ما اغرب ذلك ! لقد كنت بدوري مشاغبا كبيرا عندما كنت في مثل عمركم ! ما الذي يجعلنا هكذا في رايكم ؟

ضحك الاولاد ، وهو يتابع اسئلته ، الامر الذي زادني مرحا وابتهاجا . ولكنه نهض اخيرا ، وقال :

ـــ من المؤسف ان اغادركم ، ايها الخبثاء ، ولكن ساعة رحيلي قد دنت.

ورفع ذراعه ، ودفع الى الوراء كمه العريض ، ورسم اشارة الصليب قائـــلا :

ـــ فليمد الله في حياتكم ، ويهدكم سواء السبيل ، باسم الاب والابـــن والروح القدس . وداعا !

فصاح الاولاد :

ـــ وداعا ، يا صاحب القداسة ! عد الينا سريعا !

ـــ سأعود ، سأعود سريعا ! وسأحمل لكم بعض الكتب .

ثم استدار الى الاستاذ :

ـــ فليمضوا الان الى منازلهم .

واعترض سبيلي في المشى ، وقال في صوت خفيض :

ـــ عدني الا تسبب اية متاعب في المستقبل ، اتعــد ؟ انا افهم لمـــاذا تفعل ذلك طبعا ! حسنا ، الى اللقاء !

كنت شديد الانفعال ، يشتعل في صدري احساس غريب ، حتى انـــى أصغيت بانتباه وطيبة خاطر الى الاستاذ الذي استبقاني بعد انتهـــاء الدرس وطفق يكرر لي أن من واجبي بعد الان ان أكون كالحمل وداعة ولطفا .

وخاطبني الكاهن ، وهو يرتدي معطفه :

ـــ ومن الان فصاعدا يجب ان تواظب على دروسي . نعـــم ، هذا ما يجب ان تفعل . . . ولكن ، اهدأ ! نعم ، ابق هادئا !

تحسنت الامور في المدرسة ، ولكن حادثا وقع لى في البيت بعث في الجو نفورا واشمئزازا . . فقد سرقت روبلا من أمى ، دون ان اقصد هذه الجريمة او اتعمدهـــا . . .

خرجت أمي ذات مساء الى مكان مـــا ، وتركتني وحيـــدا مع الطفـــل الرضيع ، فتناولت كتابا ، أحد كتب زوج أمي ـــ « ملاحظات طبيب » لاني

لم اجد شيئا افعله افضل من ذلك . وقد وجدت بين صفحات ذلك الكتاب ورقة من فئة الروبل الواحد ، واخرى من فئة العشر روبلات . واغلق علي فهم الكتاب ، ولكنني عندما اطبقته راودتني فكرة السرقة فجاة باني استطيع بذلك الروبل ان اشتري ليس « تاريخ الدين » فحسب ، بل و « روبنسون كروزو » ايضا .

كان عدد اخر من الطلاب قد قراوا روبنسون كروزو ، فراحوا جميعا يمتدحون ذلك الكتاب . وعزمت أن احصل على روبنسون كروزو حتى أستطيع أن أقول ، بعد قراءته ، انه رديء لا ينفع شيئا .

وجئت المدرسة في الغداة احمل « تاريخ الدين » ومجلدين صغيرين من قصص اندرسون الخرافية ، وقليلا من الخبز الابيض ، وأوقية واحدة من اللحم المقدد . ولقد عثرت ، في المكتبة الصغيرة المظلمة القائمة في الزاوية القريبة من كنيسة فلادبمير ، على نسخة من روبنسون كروزو — كان كتابا صغيرا أصفر الغلاف ، ووجدت في الصفحة التي تحمل العنوان صورة رجل ملتح قد وضع قبعة من الفرو على راسه ، والقى معطفا من جلد النمر على كتفيه . لم يستهوني ذلك ، بل فضلت عليه اقاصيص الجنيات التي فتنتني .

واقتسمت ، اثناء الفرصة ، الخبز واللحم مع الاولاد ، ورحنا نقرا معا قصة « العندليب » التي ادهشتنا واستحوذت على قلوبنا منذ بدء الصفحة الاولى :

« ان سائر الناس في الصين صينيون ، وحتى الامبراطور نفسه صيني ايضا . . . »

وما برحت اذكر كيف ابهجتني هذه الجملة ببساطتها ، وموسيقاها الباسمة ، ولست ادري اي شيء اخر فيها كان رائعا .

ولم اجد الوقت الكافي كي انتهي من قراءة « العندليب » في المدرسة ، وعندما عدت الى البيت سالتني أمي في صوت مغتصب ، وهي تقلي بعض السمك :

— هل اخذت روبلا ؟

— نعم ، وها هي ذي الكتب . . .

فضربتني بعنف بالمقلاة ، واغتصبت مني القصص ، واخفتها عني للابد ... كان هذا العقاب اشد ايلاما من الجلد بما لا يقاس .

وانقطعت عن المدرسة اياما عديدة ... ومما لا ريب فيه ان زوج أمي اطلع الناس في المعمل على فعلتي ، فرووها بدورهم لاولادهم الذين حملوا القصة الى المدرسة التي استقبلتني — عندما عدت اليها — بلقب جديد ، الا وهو « الحرامي » ... كان اللقب وجيزا ، واضحا ، ولكنه خاطىء .. ولم اجرب ان اخفي حقيقة سرقتي للروبل . ولكنني ، عندما حاولت ايضاح ذلك، لم يصدقني احد ... وهكذا رجعت الى البيت واخبرت امي انني لن اعود الى المدرسة ثانيـــة ..

كانت حاملا ، مرة اخرى ، تجلس الى النافذة تعلم اخـــي ساشا ، فادارت وجهها نحوي ونظرت الى بعينـــين مذعورتـــين وقد فتحت فمهـــا دهشة ...

قالت في صوت اجوف :

— انت تكذب ، اذ لا يمكن ان يعرف انسان انك سرقت الروبل .

— ما عليك اذن الا ان تستفهمى .

— لا ريب انك انت الذي اخبرتهم بالامر اذن ؟ اصدقنى الحقيقة — الم تخبرهم ؟ ولكن ، لا تكذب ، — سأذهب غدا الى المدرسة لاتحقق من الامر .

فاخبرتها ، باسم التلميذ ، واذا وجهها ينقبض الما ، والدمـــوع تسيل عليـــه بغزارة ...

ذهبت الى المطبخ ، وتمددت خلف الموقد على الفراش الذي صنع لي من بعض اخشاب الصناديق . وكنت استطيـــع ان اسمع امى تبكـــي في الغرفة المجاورة وهى تتأوه ، وتتفوه ببعض كلمات غير مفهومة .

لم اعد استطيع ان اطيق الرائحة التي تبعثها الاسماك القذرة ، فخرجت الى الساحة .

نادتني امـــى :

الى اين ؟ تعال الـــي !

جلسنا معا على الارض ، وساشا يقتعد ركبتيها يشد أزرار ثوبها ، وينحني عليها . . والتصقت بأمي ، فلفتني بذراعها . قالت :

ــ اننا فقراء معدمون . فكل كوبيك ــ كل كوبيك واحد . . .

وضغطت علي بذراعيها الدافئتين عاجزة فيما يبدو عــن التصريح بما تريد أن تقــول . . .

وزمجرت فجأة ، وهي تراجع كلمة كانت تتفوه بها كثيرا من قبل :

ــ اواه ، يا للوحش ، يا للوحش !

كان ساشا طفلا غريبا ــ ضخم الراس ، هـــادىء الطباع ، ذا عينـــين زرقاوين ساحرتين تضحكان دوما ، بدأ يتكلم في سن مبكرة غـــير عادية . ولم يكن يبكي ابدا ، بل يعيش على الدوام في حال من الفرح المستمر . وكان اضعف بنية من أن يقبل على الزحف بيسر ، ولكنه كان يبتهج كثيرا عندمـــا يراني ، فيمد ذراعيه الصغيرين ، ويروح يلعب بأذني بأصابعه الناعمة التي تفوح منها رائحة البنفسج . ولقد مات على غير انتظـــار ، دون ان يمرض أبدا . كان سعيدا كل السعادة في الصباح كعهده . . . ولكنه ، عندما يهبط المساء ، واصوات اجراس الكنيسة تدعو النـــاس الى صلاة الغـــروب ، كان يضطجع علـــى الطاولة دون حراك ، ولقد حدث ذلك بعد ولادة الطفل الثانـــي نيقولاي بفترة قصيرة .

وقد دبرت امي الامور في المدرسة ، فعدت أتابع الدروس كالمعتـــاد . ولكني عدت أعيش ، مرة اخرى ، مع جدي للسبب التالي . . .

ذات يوم ، بينما كنت ادخل الى المطبخ ، سمعت أمي تصيح بيأس :

ــ يفجيني ، يفجيني ، لا تذهب ، اتوسل اليك !

فأجاب زوجهـــا :

ــ هــراء !

ــ ولكني اعرف انك ذاهب اليهـــا !

ــ حسنا ، وماذا في ذلـــك ؟

صمت كلاهما عدة لحظات ، ثم قالت امي بين نوبتين من السعال .

ـ يا لك من نذل خسيس !

وسمعته يضربها ، فعدوت داخل الغرفة كي أراها جاثية على ركبتيها ، تستند الى احد المقاعد بظهرها ، وراسها يتدلى الى الخلف ، وعيناها تبرقان بصورة غير معهودة بينما انتصب مكسيموف امامها ، مرتديا سترة جديدة ، يرفسها بساقه الطويل على صدرها ... والتقطت سكينا حادة مصقولة المقبض ـ الشيء الوحيد الذي بقي لوالدي من مخلفات أبي ـ وصوبتها الى خاصرته بكل ما بي من قوة .

ومن حسن الحظ ان والدتي استطاعت ان تدفعه عنها في الوقت المناسب ، فتنقت السكين المعطف وحده ، وجرحت الجلد جرحا طفيفا . فأطلق أنينا مزمجرا وخرج من الغرفة راكضا وقد أمسك خاصرته .

اختطفتني أمي وقد ندت عنها صيحة حادة ، ثم طوحت بي على الارض ، ولكن زوج امي انتزعني منها عندما قفل عائدا .

في ساعة متأخرة من مساء ذلك النهار ، عندما خرج بالرغم من كل شيء ، جاءتني أمي الى خلف الموقد ، وعانقتني بلطف وقبلتني :

ـ سامحني ، يا عزيزي . لقد اسأت اليك ! ولكن ، كيف يمكن ان تفعل مثل ذلك ؟ بسكين !

فأقسمت ، وانا ادرك تماما معنى كلماتي ، اني سأقتل زوج أمي ثم اقتل نفسي ايضا . واخال انني كنت فعلت ذلك ـ او حاولته على الاقل . وانا ما برحت ارى حتى اليوم تلك القدم المقيتة تتأرجح في الفضاء ، لترفس صدر امرأة ضعيفة ...

وعندما اذكر ، في بعض الاحيان ، تلك الحياة الروسية الهمجية اتساءل ان كانت تستحق ان يتحدث المرء عنها ... ولكني اقتنع بعد التفكير ان من الواجب ان أعرفها ، لانها تشكل الحقيقة الدنيئة التي لم تستأصل شأفتها حتى اليوم الحاضر .. انها تمثل حقيقة يجب معرفتها حتى أعمق جذورها ، كي ننتزعها بعد ذلك من حياتنا الملطخة بالعار .. ننتزعها من صميم نفس الانسان وذاكرته ... اجل ننتزعها من ذاكرة الجيل الطالع .

١٣

هأنذا مرة اخرى مع جدي ...

حياني ، وهو ينقر على الطاولة بعصبية :

ــ حسنا ، انا لن اغذيك بعد اليوم . فلتتكفل جدتك بذلك .

فقالت جدتي :

ــ سأدبر ذلك ، لكأن هذا الامر عمل شاق !

ــ حسنا ، خذيه في عهدتك اذن .

ولكنه أوضح لي الامور بعد ذلك بهدوء اعظم :

ــ ان كل شيء ينقصنا ــ كل يعني بنفسه وحدها ...

جلست جدتي الى النافذة تطرز ، فراحت بكرات خيطانها تتدحرج على الوسادة الملأى بالدبابيس النحاسية التي تلمع في اشعة شمس الربيع. كانت جدتي نفسها تلوح وكأنها اناء من البرونز ، لم يتبدل فيها شيء ما على الاطلاق . لكن جدي اصبح اشد هزالا واكثر تغضنا تناقص شعره ، واستحالت رزانة حركاته اضطرابا مرتعشا ، واضحت عيناه الخضراوان ترنو الى كل شيء في ارتياب وتشكك . راحت جدتي تخبرني ، وهي تضحك ، عن اقتسام الاملاك بينها وبين جدي . لقد اعطاها جميع العلب ، والصحون ، الاحواض ، وقال :

ــ كل هذا لك ،واياك ان تسأليني شيئا اخر !

ثم جمع سائر ثيابها القديمة وممتلكاتها ، بما فيها قبعة من جلد الثعلب ، وباعها لقاء سبعمائة روبل ، اقرضها بالفائدة ليهودي اعتنق المسيحية يتاجر بالفواكه . لقد اصبح مريضا ، اهلكه الطمع ـ اصبح طماعا بصورة مشينة ، فهو يزور معارفه القديمين ـ من تجار اغنياء ، ومهنيين ، ىعامل واياهم فيما مضى ـ ويسألهم بعض المال ، قائلا ان ابنيه قاداه الى الخراب والتهلكة . ولقد قدموا له منحا سخية احتراما لمركزه السابق ، فكان يرجع الى البيت ويلوح ببعض اوراق النقد تحت انف جدتي وهو يسخر منها كطفل صغير :

ـ هل ترين هذه ، ايتها العجوز الحمقاء ؟ انك لن تجدي من يدفع لك عشر هذا المبلغ فقط !

ثم اقرض جدي هذا المبلغ الجديد بالفائدة لشخص تعرف عليه حديثا ، تاجر فراء عملاق ، اصلع الراس ، ، ولاخته ، وهي صاحبة دكان سمينة ، حمراء الخدين ، سوداء العينين ، حلوة ورخوة في وقت واحد معاً .

كان اهل الدار يقتسمون كل شيء بصورة دقيقة : فاليوم تهيء جدتي الغداء من مالها الخاص ، وفي الغد يشتري جدي الخبز والطعام ، وفي هذه الحال يكون الغداء رديئا على الاطلاق . كانت جدتي تبتاع لحما جيدا ، اما هو فيبتاع رئة الخروف او امعاءه . وكان كل منهما يحتفظ بشايه وسكره الخاصين ، ولكنهما يغليانه في الابريق نفسه . ويقول جدي مذعورا :

ـ مهلا ! كم وضعت فيه ؟

ويرجع اوراق الشاي ، ويعدها بعناية فائقة ثم يقول :

ـ ان الشاي الذي تبتاعينه ارق من الذي ابتاعه انا ـ ولكن اوراقي اكثر كثافة ، فهي تختمر بصورة افضل . وهكذا فعليك ان تضعي عددا اكبر من اوراقك .

ويراقب جدتي ، وهي تصب له الشاي ، كي يرى ان كانت حصته تساوي حصتها في الكثافة . كانا يشربان دوما عددا متساويا من الاقداح .

وكانت جدتي تسأله :

ـ اتشرب القدح الاخير ؟

فيوافق جدي بعد ان يلقي نظره الى الابريق :

ـــ حسنا ! انه القدح الاخير حقا !

لا بل ان كلا منهما كان يبتاع الزيت الضروري لقنديل الايقونة .

كنت اجد أعمال جدي مسليه ولكنها مقرفه ـــ اما جدتي فتراها مسلية فقط . . . كانت تقول لـــي :

ـــ لا تفكر في كل ذلك ! لقد كبر ، شاخ كثيرا ، فاصبح شاذ الطباع . لقد ناهز الثمانين ـــ فكر فقط في هذا العدد الكبير من السنين ! فليصبح شاذ الطباع اذن ـــ ذلك لن يؤذي احدا . أما انا وانت ـــ فكن على ثقة من انني ساكسب دوما ما يدفع عنا غائلة الموت جوعا .

واصبحت اكسب ، بدوري ، بعض المال ، فما ان يشرق يـــوم الاحـــد حتى أحمل كيسا على ظهري وأتجول في الشوارع والساحات اجمع العظام، والخرق . والمسامير ، والاوراق . كانوا يدفعون لنا عشرين كوبيكا مقابل كل حزمة من الخرق والاوراق وقطع المعـدن ، وثماني او عشر كوبيكات مقابل كل حزمة من العظام . ثم اصبحت أجمع هذه الاشياء من الطرقات بعد خروجي من المدرسة ، فأربح كل يوم سبت من ثلاثين حتى خمسين كوبيكا .

وكانت جدتي تأخذ المال مني : وتودعه جيب قميصها : وتطرف بعينها وهي تكافئني بكلمات المديح :

ـــ شكرا ، ايها العصفور الصغير ! فلن نجوع ، لا أنا ولا أنت ، ابدا . . اليس كذلـــك ؟

وفي ذات يوم ، فاجئتها وهي تشخص الى قطع الخمس كوبيكات التي أملكها وتبكي وقد علقت دمعة براقة عند نهاية أنفها . .

ولكني وجدت ان ارباح المتاجرة بالخر ق اقل مما استطيع كسبه من سرقة الواح الخشب من منجرة تقع على ضفاف نهر الاوكا ، حيـــث تجري التجارة بالمعادن خلال السوق السنوي تحت خيمات مصنوعة من الخشب . وعندما كان ينتهي السوق كانت تلك الخيمات تفكـــك وتكدس الواحها فوق بعضها البعض وتبقى على أرض الجزيرة حتى صعود مياه النهر في الربيع . وكانوا يدفعون لنا عشر كوبيكات لقاء كل لوح جيد ، ونحن كنا نستطيع ان

نسرق لوحين او ثلاثة يوميا . ولكن عملية السرقة يجب ان تجري على اية حال في الايام الماطرة حتى يحتمي الحراس داخل الابواب .

كنت اعمل مع عصابة لطيفة من زملائي ، في عدادها سانكافيا الملقب بالحمامة ، وهو صبي في العاشرة من العمر ، كان ابنا لامراة متسولة من مردانيا ، هادىء الحركة أبدا ، مرح الطبيعة دائما . وكان هناك ايضا اليتيم كوستروما ، وهو صبي شديد النحول كثير العصبية ، واسع العينين السوداوين ... ولقد شنق نفسه فيما بعد ، عندما كان في الثالثة عشرة ، في اصلاحية للاحداث ارسل اليها لسرقته زوجا من الحمام . وكان هناك التتري خابي ، وهو شمشون في الثانية عشرة من العمر يجمع الى القوة الخارقة نفسا طيبة ساذجة . وكان هناك ياز ذو الانف الافطس ، وهو صبي يبلغ الثامنة من العمر ، صامتا أبدا ومصابا بـ « الداء الاسود » كان أبوه حفارا للقبور وحارسا للمقبرة في وقت واحد . وأخيرا كان هناك اكبر افراد عصابتنا ، وهو شخص اختصاصه في توجيه الاوامر يدعى ريشكا شوركا ، كانت امه أرملة تشتغل بالخياطة . وكنا جميعا نعيش في الشارع نفسه .

ولم تكن السرقة تعتبر جريمة في حينا ، بل كانت الوسيلة العادية ، والوحيدة تقريبا ، التى يستطيع بها اكثر البورجوازيين الصغار المتضورين جوعا ان يحصلوا على القوت . كانت الايام الخمسة والاربعون التي تقام خلالها السوق السنوية لا تكفي لتطعمهم طوال السنة بحيث كان عدد كبير يصطادون الواح الخشب وقطع الحطب التي يحملها المد معه ، أو ينقلون البضائع الخفيفة على عوامات صغيرة ... ولكنهم كانوا يعمدون الى السرقة في المحل الاول ... يسبلون الارصفة والقوارب وضفاف النهر وكل ما تناله أيديهم . وفي أيام الاحاد كان الكبار يتباهون بنجاحهم . أما الصغار فيستمعون اليهم ويتعلمون منهم الدروس الباهرة .

خلال الاسابيع المليئة بالعمل اثناء الربيع التي يجري فيها الاستعداد للسوق ، كان بعض العمال يملأون الشوارع بعد عمل النهار المضني . وعندئذ كان اولاد الحي ينطلقون في استكشاف الجيوب ، وهو عمل كان مشروعا في اعين الجميع يجري تحت انظار الكبار الذين يلاحظونه في لامبالاة.

اعلن شوركا ذات يوم :

ـــ اني لن اسرق بعد اليوم ، فامي لا تسمح لي بذلك .

واضاف آخـــر :

ــ وانا اخاف من ارتكاب اية سرقة .

كان كوستروما يحتقر اللصوص ويلفظ كلمة « اللص » وهو يشد عليها بصورة غريبة ، فهو عندما يقع على بعض الصبية وهم يسلبـــون السكارى يطاردهم وينهال عليهم ضربا دون هوادة او رحمة . كان هذا الصبي الكئيب الواسع المينين يتصرف أبدا وكأنه احد الكبار . فيسير وهـــو يترنح مثـــل الحمالين ويجرب ان يجعل صوته عميقا قاسيا . والحقيقة ان شيئا مشدودا ، مسنا ، غير طبيعي ، كان يبدوفي شخصه كله . اما الملقب بالحمامة فكان مقتنعا بان السرقة خطيئة لا تغتفر ..ولكن انتشال الـــواح الخشب والعواميد من جزيرة « الرمـــال » كـــان مسموحـــا به فلم يكـــن احد منـــا يخاف مـــن ارتكابه ، بل اننا اخترعنا طرقا عديدة كانت تيسر علينا ذلك العمل كثيرا . كان اثنان منا ينطلقان اذا ما هبط المساء وخيم الظلام ، او في أيـــام الضباب الكثيف ايضا ، نحو الجزيرة فوق الجليد الموحل . كانا يذهبان بصورة ظاهرة ساعيين الى اجتذاب انتباه الحراس ، بينما ينطلق اربعتنا زحفا من جوانب مختلفة دون ان يشعر أحد بنا ، وبينما يعني الحراس بمراقبة الاخرين كنـــا نجتمع في المكان المعين ونختار الواحنا .. ومن ثم ، في حين يخـــدع رفيقانا الحراس ويهربان منهم ، كنا نحن ــ بكل هدوء ــ نختار طريق العودة . وكان كل منا يملك حبلا ينتهي في احد طرفيه مسمار ضخم منحن على شكل الكلاب كنا نربط اللوح لنجره بعد ذلك على الثلج والجليد . نـــادرا ما كان الحراس يروننا . فان فعلوا كانوا عاجزين عن الامساك بنا . ولدى بيع القيمة كنا نقسم الرصيد الى ست حصص متساوية ، وكان ثمن اللوح عادة يبلغ خمس او سبع كوبيكات .

كان هذا يكفي كي ناكل مـا شئنا طوال يوم واحد ، ولكـــن ام رفيقنـــا الملقب بالحمامة كانت تجلده ان لم يجلب اليها شيئا من الفودكا معه . وكان كوستروما يوفر ارباحه كي يستطيع في المستقبل ان يحقق أحلامه في تربية الحمام . وكانت ام شوركا مريضة ، فهو اذن في أمس الحاجة الى كل مـــا يستطيع ان يربحه من أجلها . اما خابي فكان يوفر المال ايضا كي يرجع الى المدينة التى جاء به منها عم لهغرق بعد وصوله الى المدينة .

ولسبب ما وجدنا فكرة المدينة مسلية مضحكة ، فكنـــا نهـــزأ بالتتري

ذي العينين المنحرفتين . وننشد له على الدوام حين نلتقيه :

« هناك مدينـــة جد جميلـــة ،

لكنـــه لا يعـــرف أين هـــي

هنا أم هنـــاك ، أم في الهواء »

وكان خابي يغضب منا في اول الامر ، ولكن الحمامة قال له يوما :

ــ دعك من هذا الان . من الذي سمع عن رفاق يغضبون من بعضهم؟

فخجل السري . وقبل التأنيب بطيبة خاطر . ومنذ ذلك الحين أصبـــح ينشد وايانا تلك الاغنيـــة .

ولكننا بقينا نفضل جمع الخر ق على سرقة الالواح . ولقد اصبح ذلك العمل مثيرا جدا للاهتمام في الربيع عندما ذابت الثلـــوج وغسلت الامطـــار الشوارع المرصوفه في الســوق المهجور .. وكنا نستطيع دوما ان نجد فـــي أرض السوق كميات كبيرة من المسامير وقطع المعـــدن والخـــرق ، وبصورة خاصة في مجاري المياه . وكثيرا ما كنا نعثر على بعض القطع النحاسية او الفضية ايضا . ولكن الحراس كانوا يلاحقوننا وينتزعون الاكياس منا اذا لم نعطهم كوبيكين في كل مرة ، وعلى العموم ، لم يكن كسب المال بالامر اليسير ، ولكننا اصبحنا افضل الاصدقاء في جهودنا المشتركة في سبيل الحصول عليه . وكان الخصام ينشب بيننا في بعض الاحايين ، ولكنني لا اتذكر اننا تقاتلنا مرة واحـــدة .

كان الحمامة يلعب دور المصلح بيننا دوما . كان أبـــدا يجد الكلمات المناسبة كي يهدىء من اعصابنا واحتياجنا .. كلمات بسيطة كانت ، بالرغم من كل شيء ، تدهشنا وتجعلنا نخجل من أنفسنا . وكـــان هو نفسه يبدو مدهوشا عندما يتفوه بها . لم يكن يستاء ابدا من الاعيب ياز الوضيعة ، بل يغض النظر بهدوء عن كل شيء تافه على اعتباره سخيفا عديم الجدوى . كان يسأل :

ــ لماذا اقدمت على فعل هذا الشيء ؟

فيتضح لكل واحد منا ان ذلك الفعل لم يكن له معنى حقا ...

وكان يسمي أمه « مردامييي » . لكن احدا منا لم يكن يجد في ذلك ما يضحك . كان يضحك وعيناه الصغيرتـــان الذهبيا اللون تسعان ، وهـــو يحدثنا قائــــلا :

— في الليلة الماضية عادت مردافيني الى الدار مشربة خمرد مثل دجاجه مبتلة . وسقطت على عتبة الباب واضطجعت هناك تغني بملء عقيرتها . يا لها من دجاجة عجوز !

فيسأله شوركا جادا :

— وماذا تغنـــي ؟

فيضرب رفيقنا على ركبتيه في توافق مع الموسيقى ، وهو ينشد اغنيه أمه بصوت مرتفع رفيـــع :

« الراعي دق على بابـــي ..
فمشيت وحـــدي للغـــاب ..
والراعـــي ينشد للجـــارة
آه مـــا احلـــى مزمـــاره ! »

كان يعرف عددا كبيرا من الاغاني المرحة فينشدنا اياهـــا في حماسة واندفاع ، واسترسل يقول :

— نعم ! ولقد استغرقت في النوم هناك على العتبة ، والريـــح الباردة تدخل الى الغرفة بحرية تامة . وانا ارتجف واكاد اتجمد مـــن البرد لاني لا استطيع ان اجرها الى الدار . لقد قلت لها هذا الصباح : « مـــاذا تتوخين من السكر هكذا ؟ » . فاجابت : « ما هم . جرب ان تتحمـــل ذلـــك بعض الوقت أيضا ، فاني سرعان ما سأموت ! » .
فأكد شوركا في خطورة :

— بكل تأكيد ! سوف لن تعيش طويلا ! افلا ترى كيف انتفخت ؟

سألت بدوري :

— هل ستأسف لذلك ؟

— بكل تاكيد ! لقد كانت اما طيبة لي .

وبالرغم من الحقيقة التى كنا جميعا نعرفها ، الا وهى ان الموردانية ضرب ابنها كثيرا ، فقد كنا على يقين من طيبة معدنها . ولقد كان شوركا تترح في الايام حيث تكون أرباحنا قليلة :

ــ فليعط كل منا كوبيكا واحدا كي نبتاع قليلا من الفودكــا لام زميلنا لحمامة ، كي لا تجلـــده .

كنت وشوركا الوحيدين الذين نعرف القراءة والكتابة ، وكان الحمامة حسدنا على هذا ، وهو يشد على اذنه المدببة الشبيهة باذن الفأر :

ــ عندما تموت موردانيتى سأذهب الى المدرسة أيضا . سوف ارجو لاستاذ واقبل قدميه كي يقبلني . ثم عندما انتهـي سأصبـح بستانيا عنـد لاسقف . وربما عند القيصر نفسـه .

وفي ذلك الربيع ، قتلت الموردانية مع عجوز كان يجمع التبرعات لبناء كنيسة جديدة ، عندما سقطت عليها كومة من الاخشاب ونقلـت المرأة الى لمستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

ــ تعال وأسكن معنا . ولسوف تعلمك امى القراءة .

كان حبه الفائق للاشجار والاعشاب يدهشنا ويسلبنا . . .

كان حينا رمليا فلا يجد المرء فيه الا قليلا من الخضرة ، الا بعض اشجار لصفصاف الهزيلة هنا وهناك فى ارض الباحات ، أو بعض فروع البيلسان الملتوية أحيانا . وقليل من العشب الجاف المختفى تحـت الاسوار . وعندما كان أحدنا يجلس على هذا العشب ، كان الحمامة يوبخنا غاضبا :

ــ لماذا تفسدون العشب ؟ الا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك سواء لدبكـم ؟

وكنا نتردد في حضوره في اقتطاع غصن من البيلسان المزهر او غصن من الصفصاف المتفرع على ضفاف النهر . كان يقول لنا عندئـذ، وهو يهـز كتفيه في ذهـول :

ــ لماذا تفسدون الاشياء دوما ، ايها الشياطين ؟

كان ذلك الذهول يخجلنـا . . .

كنا نجمع ، طوال الاسبوع ، الاحذية العتيقة البالية من الطرقات استعدادا لرياضة أيام السبت ، حيث كنا نختبىء في المساء في احد الشوارع ننتظر ان يغادر الحمالون التتار الرصيف كي نرميهم بالاحذية . وكانوا في البدء يغضبون ، فيلعنوننا ويطاردوننا ، ولكن سرعان ما استهوتهم التسلية دورهم ، فكانوا يسلحون انفسهم بالاحذية البالية ايضا استعدادا للمعركة القادمة ، لا بل كانوا يسرقون احيانا مخزننا بعد ان اكتشفوا المكان الذي نضع فيه الاحذية . ولكننا اعترضنا على ذلك ، فقلنا :

ــ هذا ليس لعبا .

وعندئذ كانوا يقاسموننا السرقة ، ثم تبدأ المعركة . وكانوا يتخذون بالاحذية البالية . وكانوا يصرخون بدورهم وينفجرون ضاحكين كلما دفن أحدنا انفه في الرمل وقد اصابته قذيفة .

كان اللعب يستمر احيانا حتى حلول الظلام . وكان بعض البورجوازيين الصغار يتفرجون علينا محتمين بأحد المنعطفات ، وهم يحتجون على اقلاق راحة الناس . ولكن الاحذية كانت لا تنقطع عن الطيران في الهواء اشبه ما تكون بعصافير رمادية مغبرة . وكان احدنا احيانا ينال صفعة قاسية ؛ ولكن لذة القتال تعوضه عن كل الــم .

وكان التتار يجاروننا في حماستنا ، فاذا انتهى القتال كنا نرافقهم احيانا حتى الست حيث كانوا يقدمون لنا صحونا من لحم الخيل مع نوع خاص من الخضار المطبوخة . ويقدمون لنا بعده شايا كثيفا ونوعا من اللوز . كنا مغرمين حدا بهؤلاء الرجال العمالقة الذين يبدو كل منهم أقوى من الاخر ، فقد كان فيهم شيء طفولي وطبيعي ... وقد تأثرت خاصة عندما وجدتهم لا يتناؤون أبدا من بعضهم ، بل هم يتعاملون بلطف واحترام دائما .

كان جميع التتريين يضحكون كثيرا ... يضحكون حتى تسيل الدموع على وجناتهم . وكان أحدهم مخطم الانف ، خرافي القوة ، لقد حمل ذات يوم جرس كنيسة يزن قنطارين من أحد المراكب حتى ضفاف النهر يزمجر عندما يضحك ولا ينقطع عن الصياح والتفوه بما لا نتمكن من فهمه .

وفي ذات يوم ، حمل الطمامة على راحة يده ورفعه عاليا في الواء ، وقــال :

ـ اذهب وعش هناك في السماء !

وفي الايام الماطرة كنا نجتمع في البيت الصغير في المقبرة حيث يعيش ياز مع والده . كان ابوه هذا رجلا طويل الذراعين ، نغطى جمجمته ووجهه خصل من شعره القذر . كان رأسه يشبه راسا من اللفت يقوم على عنقه المتعظم الهزيل .كان يضيق عينيه الصفراوين بصورة مبهجة ، ويغمغم بسرعة:

ـ فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة .

وابتعنا شيئا من الشاي وبعض السكر والخبز وقليلا من الفودكا لوالد ياز ... وكان شوركا يعطي التعليمات باستمرار :

ـ انتبهوا وافتحوا أعينكم جيدا . بعد غد ستقام في دار آل تروسوف وليمة احتفالية احياء لذكرى احدهم . ولسوف تكون هناك كميات كبيرة من العظام .

فيقول شوركا ، ولديه الخبر اليقين دائما :

ـ ان طباخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها على الدوام !

ويقول الحمامة متأملا :

ـ سرعان ما سيصبح الطقس جيدا فنستطيع الخروج الى الغابات .

كان ياز نادرا ما يتكلم ، بل هو يراقبنا في سكون بعينيه الكئيبتين .

ويهيىء والده المائدة ، فيضع عليها اقداحا مختلفة الاشكال ، ثم يحمل اليها المصباح . ويصب جوسروما الشاي ، بينما يحتسي العجوز حصته من الفودكا ، ويتسلق على الموقد يتطلع بنا من عل بعينين كعيني البوم ، وهو يغمغم :

ـ الا فلتحل اللعنة عليكم ! انتم كائنات بشرية ، أم ماذا ؟ عصبة حزمة من اللصوص ، فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة .

ويقول الحمامة :

ـ ولكننا لسنا لصوصا !

ــ لصوص صغار اذن ؟

وعندما يرهق والد ياز اعصابنا ، كان شوركا يصيح به في قسوة :

ــ اخرس ، أيها الموجيك اللئيم !

كنا لا نطيقه ولا نطيق الاستماع اليه وهو يعدد مرضى الحي ، ويتساءل عمن سيموت منهم قبل الاخر . كان يخال لنا انه يمتص شفتيه في انتظار ذلك الحادث دون ان تعرف الشفقة طريقا الى قلبه ، وعندما يرى أن اقاصيصه تضايقنا كان يتعمد ازعاجنا ، فيروح يسخر منا .

ــ انكم تخافون ، أيتها الحشرات الصغيرة ! ان هناك رجلا كبيرا سمينا سوف يموت عما قريب .

ونحاول اسكاته ، ولكنه يسترسل قائلا :

ــ ولسوف ياتي دوركم عما قريب ؛ فلا تنتظروا ان تعيشوا طويلا فوق هذه الاكداس من الاقذار حيث تعيشون .

فيقول الحمامة :

ــ حسنا ، سوف نموت . ولسوف نصبح ملائكة .

فيقول والد ياز مدهوشا :

ــ أنتم ؟ ملائكة ؟

ومن ثم ينفجر ضاحكا ، ويعود فيعذبنا بأقاصيصه المقيته عن الموتى والجثث :

ــ اسمعوا ، ايها الفتيان ! لقد دفنوا بالامس سيدة ذات قصة عجيبة . ولقد اكتشفت كل شيء عنها ، ما رايكم في ذلك ؟

كان كثيرا ما يتكلم عن النساء وبصورة بذيئة دوما . ولكن شيئا من الشك او التساؤل كان يتسرب الى اقاصيصه ، وكانه يتوجه الينا كي نساعده على فهم ذلك جدا . وكنا نصغي اليه بانتباه ، وهو يتحدث فيقطع حديثه كثيرا كي يطرح علينا الاسئلة . ولكن ما يقوله كان يترك دوما اشياء مثيرة في ذاكرتنا .

كان يعرف قصة حياة كل من دفنهم في ارض تلك المقبـرة المهجورة .
وعندما كان يتحدث ، فكأنه كان يفتح امامنا ابواب المنازل المحبطة بنا فندخل اليها ونشاهد حياة سكانها ، ونحس شيئا رهيبا خطيرا في هــذا العمل . وكان يبدو قادرا على الحديث طوال الليل ، ولكن شوركا كان يهب واقفـا عندما يقترب الظلام من النوافذ ، ويقول :

ــ اني ذاهب الى الدار ــ فسوف تقلق امي . من يرافقني ؟

ونرافقه جميعا ... فيصحبنا ياز حتى السور .

فنرد السلام عليه منزعجين من تركنا اياه في المقبرة . وفي ذات مساء، تطلع كوستروما الى الخلف ، وقال :

ــ سوف نستيقظ ذات صباح فنجده ميتا .

كان شوركا غالبا ما يدعى ان ياز يعيش حياة اسوأ من حياتنا جميعا ، فيعترض الحمامة عليـــه :

ــ نحن لا نعيش بصورة سيئة ابدا .

وكنت اوافقه على ذلك . كنت اتمتع بحياة الشوارع المستقلة كما كنت مولعا برفاقي ، تملأني صحبتنا بشعور عظيم جديد يوحى الى الرغبة الدائمة في مساعدتهم جميعـــا ...

وعدت الاقى المصاعب في المدرسة ، فطفق التلامذة يلقبونني بالشحاذ وجامع الخرق ، ثم اعلنوا للاستاذ بعد شجار نشب بيننا ان رائحـــة منتنة تفوح مني بشدة حتى يستحيل الجلوس الى جانبي . وما زلت أتذكر كم آلمني ذلك الافتراء ، وكم صعب علي ان اعود الى المدرسة بعـــد ذلك . كانـت الشكوى افتراء حقيرا لاني كنت دائما اغتسل بعناية فائقة كل صباح ، ولا اروح الى المدرسة ابدا في ذات الثياب التي ارتديها عند جمع الخرق .

واخيرا ، اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح كوفئـت عليه بشهادة شرفية وهدية التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتـــابا آخر يحمل عنوانا غامضا « فاتا مورجانا » . وعندما حملـــت هذه الهدايا الى الدار ، تأثر جدي كثيرا بهـــا ، وشعر بفرح عظيم فاعلـــن ان من واجبنـــا الاحتفاظ

بالكتب في حرز أمين ، وانه في سبيل ذلك سيحفظها في دولابه . وكانت جدتي تلازم السرير لمرض الم بها منذ أيام ، بينما جدي يزمجرفي وجهها ابدا ويعوي :

ــ لسوف تخربين بيتي ! فتأكلين وتشربين على حسابي . . .

وهكذا اخذت الكتب الى أحد الباعةفأشتراها مني بخمسةوعشرين كوبيكا عدت بها الى جدتي .

وعندما انتهت المدرسة، عدت الى حياة الشوارع التيامست مع قدوم الربيع اكثر سحرا وروعة . . . واصبحنا الان نكسب كمية اكبر من المال ، وفي أيام الاحاد نذهب جميعا الى الحقول والغابات ، وقد زادت أواصر الصداقة فيما بيننا .

غير انهذه الحياة لم تطلكثيرا ، اذ ما لبثزوج أمي ان فقد عمله فغادرنامرة اخرى الى مكان ما ، فجاءت أمي وأخي الصغير نيقولاي ليقيما مع جدي . ولما كانت جدتي قد ذهبت للاقامة في دار تاجر ثري كانت تطرز له غطاء لجسد المسيح ، فقد كان علي أن اعنى بتمريض أخي الصغير .

كانت امي الساكتة دوما تكاد لا تجد القوة لرفع قدميها عن الارض ، بينما أصيب اخي بقروح في مرفقيه ، شديد الضعف حتى ليعجز عن البكاء ، فان جاع راح يئن بصورة مستمرة ، وان لم يكن جائعا فهو يغفو ويصعد زفرات متقطعة .

قال جدي ذات يوم ، بعد أن تفحص الرضيع طويلا :

ــ ان ما يحتاج اليه هو الغذاء الحسن ! ولكن من أين لي كي اطعمكم جميعا !

فأجابت امي ، وهي تتنهد :

ــ انه لا يحتاج الى شيء كثير !

ــ هذا صغير .. وذاك صغير ..

ولوح بيده في قرف وتوجه الى قائلا :

ــ ان نيقولاي يحتاج الى الشمس ، فأخرج به على الرمال . . .

اخذت كيسا من رمل جاف نظيف ، وكومته في بقعة مشمسة تحت النافذة ، ومن ثم دفنت أخي فيه حتى العنق مثلما امرني جدي ، فبدا على الرضيع انه احب ذلك ... فكان يطرف بعينيه راضيا ، ويمرس بعينين مندهشتين .

أصبحت مغرما جدا باخي ... اظن انه يفهم كل افكاري ، فاسلمني الى جانبه ساعات طويلة تحت النافذة التي يتناهى الي منها صوت ابي المدوي :

ـــ ان الموت لا يكلف تفكيرا طويلا . اذ كنت فقط تملكين ما يكفي من الذكاء كي تعرفي كيف تعيشين الان ...

وكان نيقولاي يحرر ذراعيه الصغيرتين ويرفعهما نحوي ، وهو يشير برأسه الشاحب . واذا اقترب منا قط او صوص ، راح نيقولاي يراقبه بانتباه مركز ثم يستدير الي وعلى شفتيه ابتسامة ناحلة . كانت هذه الابتسامة تقلقني ... ايمكن ان اخي قد أدرك مبلغ ضجري من الجلوس ههنا الى جانبه ؟ وهل يفهم ان ما أرغب فيه هو التخلص منه واللحاق باصدقائي في الشارع ؟

كانت الباحة صغيرة ملأى بمختلف الانقاض ، والخروق ، وعدد من المظلات المهترئة ، وأشياء أخرى سواها تمتد من البوابة حتى غرفة الحمام في أقصى الباحة ... وكانت السطوح مزدحمة بألواح من الخشب والعمد وحطام القوارب والنجارة المبلولة ، وجميعها صيد من النهر ايام الفيضان بعد ذوبان الثلوج في الربيع . وكانت الباحة بأسرها مزروعة بقطع من الخشب تفوح منها رائحة العفن عندما تضربها الشمس .

وكان البيت المجاور لنا مذبحا صغيرا ياتينا منه في كل صباح تقريبا خوار البقر ، وثغاء الخراف ، ورائحة الدم التي كان يخيل الي لشدتها انها تعلق في الهواء مثل شبكة دقيقة .

وعندما كانت صيحات الحيوانات تخرس بضربة من قضيب حديدي تنهال بين قرونها ، كان نيقولاي يقطب جبينه ويمد شفتيه فكأنه يحاول ان يقلد اصوات الحيوانات ، فلا ينجح الا في اخراج صوت ضئيل غير مفهوم . وعند الظهيرة ، كان جدي يمد راسه من خلال النافذة وينادي : « الغداء ! » .

وكان هو نفسه يأخذ الرضيع على ركبتيه ويطعمه ، يمضغ الخبز والبطاطا له قبل ان يدفعها بين شفتيه الرقيقتين ، وهو يلوث له فمه وذقنه الصغيرة ويقول :

ـــ أتساءل ان كان هذا يكفي .

فتقول امي من الزاوية المظلمة حيث ترقد :

ـــ أفلست ترى انه يمد يديه الى الخبز ؟

ـــ ان الطفل لا يعرف ان كان قد نال حاجته أم لا .

ولكنه كان يدفع لقمة اخرى في فم الصغير بالرغم من ذلك . ويقول جدي اخيرا :

ـــ حسنا ! خذه الى امه الان .

وعندما كنت آخذ نيقولاي بين ذراعي ، كان يئن ويمد ذراعيه نحو المائدة . وكانت امي ، وقد نحلت بشكل مخيف ، تنهض نفسها لتلقاني وهي تمد ذراعيها الطويلين العاريين من اللحم .

ونادرا ما كانت تتكلم . أما الكلمات القليلة التي تتفوه بها فتتدحرج بسرعة من صدر مسلول ...

كانت ترقد طول النهار في سكون وتموت ببطء في تلك الزاوية .

كنت أحس انها تشرف على الموت ، وجدي يوضح ذلك بكثرة حديثه عن الموت ، واصراره على ذكره دون انقطاع .

كان سرير جدي يقوم في الزاوية تحت الايقونات تقريبا ، وكان ينام ورأسه الى النافذة ، وقبل ان يستسلم للنوم يروح يغمغم بينه وبين نفسه:

ـــ حسنا ! لقد حان أوان الموت ، ولسوف نتقدم الى خالقنا مشهدا رائعا . ماذا عسانا ان نقول ؟ لكأنني اشتغل طوال حياتي ـــ أعمل دوما شيئا ما . وهذا ما نتج عن ذلك !

كنت أنام على الارض بين الموقد والنافذة ، وكانت المساحة قصيرة جدا

بالنسبة الي ، فاضطر الى دفع قدمي تحت الموقد حيث لا تنقطع الصراصير عن دغدغة جلدي . كان جدي ، وهو يطهو الطعام ، يكسر أبدا زجاج النافذة بالطرف الاخر من ملقط النار الذي يدفع به اوعية الطعام من الفرن واليه . كان من الغريب والمضحك ان رجلا ذكيا مثله لم يفكر في قطع الطرف الاخر من الملقط للتخلص من اذاه .

وفي ذات يوم ، بينما كان شيء ما يغلي على الفرن ، دفع بالملقط بشدة حتى كسر الوعاء وحطم مصراع النافذة ولوحين من الزجاج . وكان ذلك مصيبة عظيمة خصوصا بعد ان جلس العجوز على الارض وشرع يبكي .

وعندما ترك البيت أخيرا ، تناولت سكين الخبز وقطعت نهاية الملقط . . .

صاح جدي ، عندما رجع ورأى ما فعلت :

ـ ايها اللعين ، كان يجب أن تنشره ، هل تسمع ؟ تنشره بالمنشار ! كان يمكن ان نصنع من قطعه بعض الدبابيس ونبيعها . الا تبا لهذه العائلة المبذرة !

وقالت امي عندما خرج مسرعا الى الرواق :

ـ الافضل الا تمد يدك الى اي شيء مهما كان .

ماتت امي ظهر يوم أحد من شهر اب . كان زوجها قد عاد حديثا من رحلته ووجد عملا ، وقد انتقلت جدتي ونيقولاي واياه الى جناح نظيف صغير يقع بعد المحطة حيث كانوا سينقلون امي بعد أيام قليلة . . .

و في صبيحة اليوم الذي ماتت فيه ، قالت لي بصوت ضعيف :

ـ اذهب وقل ليفجيني فاسيليفيتش اني أريد ان اراه .

وجلست ، وهي تعتمد على الحائط لتسند نفسها . . .

واستطردت ، وهي تعود فتسقط على الوسائد :

ـ اركض سريعا !

خيل الي انها كانت تبتسم وان نورا جديدا كان يلمع في عينيها . كان

زوج أمي في الكنيسة فأرسلني جدتي الى اليهودية كي أشتري بعض السعوط . ولم يكن لدى هذه الاخيرة شيء منه ، فكان علي ان أنتظر تهيئته.

عندما عدت اخيرا الى بيت والدي ، وجدت أمي جالسة الى المائدة ترتدي ثوبا نظيفا . وقد سرحت شعرها بعناية ، فخورة متكبرة مثلما كانت عليه فيما مضى .

سألتها خجولا ، دون ان ادري سبب ذلك :

ـ هل أنت احسن من ذي قبل ؟

فقالت ، وهي ترمقني :

ـ تعال هنا . أين كنت حتى هذه الساعة ؟

وقبل ان أجد الوقت الكافي للاجابة ، امسكت بي من شعري وحاولت ان تضربني فلم تتمكن من ذلك . ثم دفعتني ، وذهبت وجلست على حافة الموقد ورحت أراقبها بعينين مذعورتين .

قامت عن مقعدها ، ومشت ببطء نحو الزاوية حيث رقدت على السرير وشرعت تجفف العرق المنصبب على وجهها . كانت يدها تتحرك في اضطراب ، كما سقطت مرتين على الوسادة والمنديل يرتجف بين أصابعها .

ـ قليلا من الماء . . .

قدمت لها قدح ماء من السطل . فابتلعت جرعة وهي ترفع رأسها بصعوبة بالغة . ودفعتني عنها بيد باردة وصعدت زفرة عميقة . نظرت الى الايقونات في الزاوية . ثم تطلعت الي ، وحركت شفتيها وكأنها تبتسم ، ثم اسبلت جفنيها الطويلين على عينيها . كان مرفقاها مشدودين الى جانبيها . بينما ارتفعت يداها الى صدرها . ومر ظل على وجهها ، بينما فتحت فمها في دهشة .

وقفت هناك وقتا بدا لي انه أجيال كثيرة لا حصر لها . والقدح في يدي الى ان دخل زوج امي وهو مصفر ويكسي باللون الرمادي .

دخل جدي . قلت :

ـ لقد ماتت أمـــي .

فأجاب ، وهو يلقي نظرة سريعة على السرير :

ـ لماذا تكذب ؟

ثم اتجه الى الفرن وراح يحرك الفطير وهو يثير ضجيجا مملا :

راقبته ، وانا أعلم أن امي قد ماتت ، وانتظر ان يتحقق من ذلك .

ودخل زوج أمي ، وهو يرتدي معطفا صوفيـا أبيض ويغطـي رأسه بقبعة . تناول بكل هدوء مقعدا وحمله الى جانب سرير أمي . بغتة ، أسقط المقعد من يده ، وصاح :

ـ لقد ماتـت !

فترنح جدي في اتجاه السرير ، والملقط في يده ، وعيناه تكادان ان تقفزا من محجريهمـا .

عندما بدأوا يجرفون الرمل على نعش امي ، راحـت جدتي تتنقـل على غير هدى بين القبور الاخرى .. فتعثرت بأحد الصلبان ، وسقطت على وجهها الذي تأذى من ذلك . أخذها والد ياز الى بيته ، وبينما هـي تغسل جرحها كان هو يهمس في أذني بهدوء بكلمات معزية :

ـ فليحفظنا الله من الليالي المؤرقة ! ما بالك ؟ يجب الا تشغل بالك بمثل هذا الامر . السست على حق ، أيتها الجدة ؟ ان الفقير والغني يذهبان جميعا الى الحفرة .

عندما انتهت جدتي من الاغتسال ، لفتمنديلا حـول وجهها المنتفـخ ودعتني كي أرافقها الى الدار . لكننـي رفضت ... فقد كنت أعلم انهـم سيشربون ويتقاتلون في خلال الوليمة التي تتلو المأتم . كنا في الكنيسـة بعد عندما سمعت الخال ميخائيل يقول للخال ياكوف :

ـ حسنا ! سوف نتناول قدحا لا بأس به هذا النهار ، ما ؟

فجرب الحمامة ان يخفف عني بتعليق المهماز ومحاولة الوصول اليـه

بلسانه ، فطفق والد ياز يضحك ضحكا واضح المبالغة ، وهو يصيح :

ـــ انظروا فقط ما هو فاعل ، انظروا فقط !

لكنه عندما راى فشل ذلك في تسليتي ، انقلب جادا وقال :

ـــ كفى ، كفى ! تمالك نفسك ! لا بد لكل انسان ان يموت ! حتى العصافير تموت ! ان كنت تريد ذلك فسوف اضع بعض العشب حول قبر امك . هل تحب ذلك ؟ سوف نذهب الى الحقول الان ونجمع ذلك العشب . سوف نقتطع العشب ونضعه حول القبر . ولن يكون هناك قبر اخر ينازعه جمالا .

اعجبتني هذه الفكرة ، فذهبنا جميعا الى الحقول ...

بعد أيام من وفاة والدتي قال لي جدي :

ـــ حسنا ، يا الكسي ! اني بالضبط لا استطيع ان ابقيك مدالية معلقة في عنقي . ليس لك من مكان بعد اليوم ههنا ، فقد آن لك ان تخرج الى ما بين الناس ...

وهكذا خرجت الى العالم ...

الادباء العرب
89270/92

الكتاب العالمي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان